كتابٌ مرقوم

كتابُ الفجّار وكتابُ الأبرار

ولادةٌ تحتَ الغَمام

وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ، وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى

ولادةٌ تحت الغمام

تُرى.. أين حطّت روحك يا امرأتي في مدينة الإسكندريّة؟ أفي بحرها؟ أم في مكتبتها؟ أم في جامعتها؟ أفي عبير زهور حديقة الشـلالات؟ أم فوق تمثال الإسـكندر وروحه الأنثوية؛ التي تطوف في سـماء المدينة باحثة عن فعل جديد؟ أفي بحري؟ أم في ميامي؟ أم أين؟ بالله عليكم أخبروني! أين حطّت روحها في زمن الثورة؟!

أبحث عنك أيتها المرأة في روحي التي تسكنيها، أتطلع إلى مجد آلائك، وأنقّب عنك في أنفاس يحيى، ابني، الذي أحياني مع كل لحظة عشتها معه في زمن الثورة؛ حتى لحظة انتزاعه من حضني في مهجع الموت لدى فرع المخابرات العسكريّة.. ألمح طيبة أهلي في أنفاسك، وأبحث عن أنوثة وطن يخبّئ في أرضه سنبلة، وأستنشق عطرك حول فضاء في المدى المفتوح إلى لا نهائيّة المعاني في عبير زهرة.

جاب أحمد المدينة وطاف في أحيائها وأطرافها، كان يبحث عن امرأة تحمل روح محبوبته ماري سمعان، التي خطفها الموت منه، لاح في الأعالي نداء الحرية الممزوج بألوان قوس قزح، تبعه، وسمع صوت الحريّة.. وصل وعرف أنّه المبتغى والهدف.

هنا.. في مسجد القائد إبراهيم وحوله المشحون بهدير شباب ميدان التحرير، استجاب أحمد لصوت الحريّة، وانضمّ إلى مظاهرات شباب مصر، وصار يردد معهم:

- يسقط يسقط حكم العسكر...
- يسقط يسقط الإخوان المسلمين
- لا لا للتكفير ..... إحنا جيل التفكير
- لا عسكر ولا سلفيّة ..... عايزين دولة مدنيّة

حوصـر المتظاهرون من جهات ثلاث، ألقوا عليهم القنابل المسيلّة للدموع، قاوم الشـباب حتّى النهاية، ثمّ تنادوا للاجتماع من جديد في ميدان سـيدي جابر، فتوجّه أحمد مع مجموع الثائرين، واحتلّوا قلب الميدان، لحقت بهم سـيارات العسـكر، توافدت تباعًا وتمركزت حوله، وفجأة انبعثت توابيت التكفيريين من عمق بحر إسكندرية، والتقت مع طيور الليل الهابطة من خلف الغمام، وارتمت في أكثر زوايا المدينة عتمًا، كانت ديدان الموت السـوداء المرقّطة بالأصـفر التي خبرها أحمد عند جدّه وصـفي قبل أربعة عقود وفي أنف الذيب ابن شطمة وماهر، وفي مدفن الدّار الكبير، الذي هدمه شباب حي أم الإبر، كانت تلك الديدان تنبثق من رؤوس جيل الموت بمواجهة شباب الثورة لوقف عجلة التاريخ.

رائحــة غــازات تعمي العيون، وتغلق مجــاري التنفّس، طــائرة حوّامــة فوق الميــدان تطلق النّــار على المتظاهرين، وطائرات من دون طيّار تحوّم في زوايا غامضـــة بين الغمام؛ لقنصــــهم.. غيوم رماديّة تغطّي السـماء، وتمنع تطلّع الشـباب نحو آفاق حريتهم اللانهائية، صـراخ ونحيب وغُصّـات مشـحونة بالغضـب، أصـوات الاسـتغاثات فاقت أزيز الرصـاص ونيرانه؛ التي لم يُعرف مصـدرها، أكانت من طواغيت العسـكر؟ أم من جحور التكفيريين؟!

كان أحمد يسـمع أصـوات الانفجارات وأزيز الرصـاص، ويشـهد سـقوط الكثيرين من شـباب الثورة جرحى، وربما شـــهداء على الدرب الطويل، إلى أن غاب المشـــهد عن ناظريه.. وانفتح باب أمامه، فواجهت عينيه ضـياء بيضــاء ممتدّة إلى آماد لا نهائية، اصــطبغت بلون مياه نهر بردى المختلطة بالتراب وبدماء آدميين، ودخل في الظلام البهيم، سوى من بصيص نور تلألأ في ذاكرته، آتٍ من آخر النفق.

حاول سدّ جرحه ومنع نزيف دمه المتدفق من رأسـه، ولكنّه فشـل، غاب عن المشـهد، ولم يشـعر إلّا بأقدام الهاربين من إطلاق النار العشوائيّ ومن الرصـاصـات الطائشـة والغادرة؛ تدوس فوق جسـده.. صـاح مسـتغيثًا؛ وأصبح صوته يخفت رويدًا رويدًا، حتّى اختفى، حاول أن يطرده من داخله، فأبى الصوت مغادرة حلقه...

ها هو ذا يبتعد أحمد مبتســمًا نحو الغرفة التي شــيّدتها له ماري ســمعان عند خطّ الأفق، إنّه يراها أمام ناظريه، ولكنّه صُدِم من هيئتها التي تغيّرت، تجهّم وجهها، وضـاقت عيناها، وصـار شـعرها مشـعّثًا، تركته.. واستدارت على عقبيها رافضة أن تستقبله.

ولادة تحت الغمام

LEVANT

عنوان الكتاب: ولادة تحت الغمام، رواية

الكاتب: أدهم مسعود القاق

الطبعة الأولى: 1440هـ - 2020م

© جميع حقوق الطباعة والنشر الورقيّ والإلكترونيّ محفوظة

مركز ليفانت للدراسات الثقافيّة والنشر

ب ض: 03- 11- 520- 00408- 5- 022

س ت: 9882

الإسكندريّة – مصر، 44، شارع سوتير، أمام كليّة حقوق الإسكندرية

الدور الثالث، الإسكندرية، مصر

موبايل: 01030036491

هاتف: 034830903 - 002

بريد إلكتروني: levantegsy@gmail.com

موقع إلكتروني: www.levantcenter.net

رقم الإيداع: 11311 / 2019م

الترقيم الدولي: 1 - 53 - 6651 -977 - 978

إدارة: القسم الفني في مركز ليفانت، د: هانم العيسوي

تصميم الغلاف وإخراج:

59

لم يبق سوى أسبوع لمغادرة أحمد لبنان إلى مؤتمر المعارضة السورية في القاهرة، اتصل مسؤول أمن الحزب التقدميّ ظهرًا، وطلب منه تحضير جواز سفره؛ ليحجزوا له بطاقة سفر، فاشترط أن تكون باتجاه واحد، مغادرة من دون عودة، وأرسل لهم صورة جواز سفره بالإيميل.

ثمّ اتصلوا به مرّة أخرى، وأخبروه بضرورة حجز العودة قانونيًّا، لاحتمال إعادته إلى لبنان، ولكنّه رفض.. ضامرًا توقه لتنفيذ ما طلبته منه ماري، فروحها – هناك – في مصر تبحث عن امرأة، لتخلق منها وطنًا يسكنه.

أنهى مكالمته، ثمّ شعر أن أنفاسه ضاقت في صدره، وكاد أن يُصاب باختناق وشيك، خرج نحو شرفة الشقّة، وشخص على طول الحارة المغلقة بأكياس الرمل، التي اختفى وراءها مسلّحون لبنانيون، يرفعون رايات سوداء، ويحملون بنادق امتدّت فوهاتها حتّى قلبه الدامي.

جالت في خاطره بدايات الثورة.. كيف كانت أحجار أرصفة الشوارع تتراقص ضاحكة تحت نعال المتظاهرين، وكيف بثّت الورود والأشجار رياحين الحبّ، وعزفت موسيقى النور مع صرخات شباب سوريا المطالبين بالحرية والكرامة.. لم يمض على انطلاقة ذاك الزمن الجميل سوى نحو سنة وأربعة شهور، ولا تزال أحداثه طازجة، ثمّ ساءل نفسه: "متّى يرحل عنها حكم التكفير والطائفيّة؟ وكيف نتخلّص من إرهاب القرون الوسطى وجهلها؟ ولماذا يتآمر النظام العولميّ المؤمرك على شعب سوريا؟ أين طاقات الثورة الحقيقية؟ ومتى تغمر سماء سوريا ضياء جديدة؟" أجابته جارته الحمصيّة بنظرتها الشبقيّة، وشعرت بآلام روحه، وهو يروح ويجيء على شرفة الشقّة، فقدّمت له فنجان قهوة مغليّة من دون سكر، كما يرغب، ودعته إلى الدخول.. نظر إليها بإمعان، رافضًا أن يستحضر صورتها، وهي تقدّم شفتيها كحبة فراولة ناضجة في ليلة سابقة، ثمّ جلس بين أبيها الذي يعاني من ضعف في حاسة السمع، وأمّها التي بدأ مرض الزهايمر يزداد وضوحًا على تصرّفاتها، لم يستطع أن يتواصل معهما، إلى أن ضحكت المرأة، وقالت له:

- أنت شاب، ولا يمكنك أن تتفاهم إلّا مع الشباب، أتدخل إلى غرفتك أيّها الشقي، أم أنادي خديجة لتداويك على طريقتها؟

- والله العظيم يا سيدتي الجميلة، لولا معاشرتي لخديجة، وجيل ما بعد الألفية، لبقيت أميًّا، بل جاهلًا بعلاقتي بالوجود.. سابقًا كانوا يعتدّون بصحبة الكبار، ويزعمون: من ليس له كبير يبقى بلا تدبير، ويفاخرون بأنّ فلان الفلاني عاشر الكبار، فامتلك عقلًا كبيرًا، أما الآن فانعكس الأمر 180 درجة..

- صحيح، ولكن جيلنا من يحافظ على القيم والأخلاق يا أستاذ، أما الجيل الجديد فيتنكّر لها، ويرفضها لمصلحة نزواته وشهواته.

- يا ستي.. فلتسقط القيم والأخلاق التي تقوم على الخيانة والكذب والتعصّب، اليوم يسعى جيل الألفيّة؛ ليرسم معالم قيم أخرى، وأخلاق مغايرة لما نحن فيه، سيدتي نحن نكذب على أنفسنا، أليس ذلك صحيحًا؟ اليوم بدأ هذا الجيل باستبدال العيوب النسقيّة المتغلغلة بثقافتنا وسلوكنا وقيمنا على شكل كراهية الآخر وتضخم الذات وتصنيع الحكام المستبدين وقتل روح الأنوثة وهيمنة الذكورية الجوفاء والتقية، بأنساق ثقافية ظهرت طلائعها في ميادين الثورة وأسر شبابها وتجمعاتها وتنسيقياتها.

- الله حيّك يا أستاذ.. والله أنت تملأ الرأس والعين بآرائك الثوريّة.

ضحك أحمد، وخطر له أن يقول لها: "ليتك تمكنت من تجريب ثوريتي على سريري في ليلة فائتة أيتها المرأة الجميلة..."، وخطر على باله دعوتها إلى سريره، ولكنّه بلع ريقه، وسكت لحظة وصول خديجة؛ التي جلست، وقالت:

- والله أنا معجبة بفكرك يا أستاذ، تتكلم كما لو كنت بعمر العشرين، فقالت لها أمّها:

- أنت اخرسي، واذهبي إلى المطبخ، وأكملي تقشير البطاطا، اقترب موعد الغداء.

نظرت خديجة، إلى عينيّ أحمد، ليردّ على أمّها، ولكنّه ابتسم لها، وغادر إلى غرفته.

نقّب في مغارات ذاكرته القريبة، واستحضر وقائع الثورة وأيامها، وكم كان فخورًا بشبابها، الذين أخرجوه من مدفن الدار الكبير إلى رحاب حريتهم.. وضع رأسه على طاولة المكتب، وغاص في أعماق الأزرق، حطّ على مستعمرات من المرجان والإسفنج، واسترخى مسلّمًا نفسه؛ لأيّامه الذي تمضي عصيبة.

في قاع اللون الأزرق، راقص أحمد كائنات مجبولة بالحب والحرية والكرامة.. استحضر لحظة وصول محمد بن عبد الحليم إلى مركز الدراسات الثقافيّة، وطلب لقاءه منفردًا، ثمّ أخبره عن النشاطات الثوريّة الآخذة في الاتساع، وعن شباب الثورة الشارعين في تنظيم أنفسهم داخل أشكال تنظيميّة جديدة، تحت مسمّى: تنسيقيات الثورة السوريّة، إلى أن تداعت تخيلاته مع شهور الثورة الأولى، فارتدى أرواح شهداء تزايدت أعداداهم كثيرًا.. حزن عليهم، ولكنّ جانبًا منه ضحك لكوثر، التي اعتادت ارتياد مركز الدراسات، فأعاد تركيب الحكايات التي نفخت الروح في جسده.

قال الله لنبيه: أرسلتكَ لتقلعَ وتهدمَ، منْ أجلِ أنْ تزرعَ وتبني

(العهد القديم)

وصل محمد بن عبد الحليم إلى مركز الدراسات، وطلب من أحمد استضافة اجتماع تنسيقية جنوب الغوطة الشرقيّة فيه.. سرّ أحمد كثيرًا، ورحّب بالفكرة، وبدأ يستعدّ إليها طوال يومين، من دون أن يغيب ذاك

الحدث عن تفكيره لحظة واحدة، إلى أن حضـــر أعضــــاء التنســـيقية تباعًا، وكانوا حذرين جدًّا من مراقبة المخابرات، لدرجة عدم اكتمال نصـــاب اجتماعهم قبل مرور أكثر من أربع ســـاعات على وصــول أوّلهم، ثمّ أغلق باب المركز، وأدخل الجميع إلى الإدارة؛ وخرج ينتظرهم في قاعة بحثيّة، ثمّ جاءه محمد بن عبد الحليم، وطلب منه حضـور اجتماع التنسيقية؛ بناء على رغبة شبابها، استقبلوه بودّ، وأجلسـوه على منصـة الاجتماع إلى جانب كهلٍ من كهول أحزاب ربيع دمشق؛ الذي أظهر تبرّمًا واستياء من وجوده، من غير سبب واضح.

في مجرى ذاك الاجتماع لفت انتباه أحمد حماس شاب ملتحٍ، وعرف أنّه من المليحة، فتودّد إليه، وسـأله عن اسمه، فقال له:

- غوطاني، فردّ عليه:
- تشرّفنا، اسمك غوطاني؟
- نعم، غوطاني.. وأبو فوز أيضًا، وحضرتك، عرّفنا بنفسك؟

ردّ الشاب مرتابًا، حيث اعتاد الشباب أن يخفوا أسماءهم عن بعضـهم البعض؛ حيطة وحذرًا من اعترافاتهم لدى أقبية المخابرات حين يكونوا معتقلين.

عرّفه أحمد بنفسه، وكان قلبه يضحك لحيوية الشاب الناضحة حبًّا وذكاءً، ثمّ أخبرهم أحد شباب التنسيقية؛ أنّه تلقّى خبرًا على إيميل مشترك مع تنسيقية الميدان بموعد مظاهرة الجامع الأموي.

وفي وقت الاســتراحة قدّم أحمد ضــيافة، ثمّ فتح اللابتوب الذي أهداه إياه عمر قبل أيام، وأنشــأ محمد بن عبد الحليم له إيميلًا وحسابات على الفيسبوك وريتر وسكايب باسم: غوطانيّ أبو فوز، وقال له:

- لا تنس اسمك الجديد، أستاذ أبو فوز، أنت غوطاني أبو فوز، منذ هذه اللحظة، ثمّ أنشأ قناة يوتيوب وعلّمه كيفية استخدامها.

بعد خروج أعضــاء التنسـيقيّة تباعًا في تلك الليلة الدهماء، اتصــل أحمد بأخيه عمر، ســأله عن ســلمى ويحيى وسارة، وطلب منه أن يرسلهم إلى مركز الدراسات، فأجابه:

- صار لي يومين لم أستطع أن ألتقي بهم.
- خير إن شاء الله، هل أصاب أحدًا منهم مكروه لا سمح الله...
- لا.. لم يصبوا بمكروه، ثمّ عرف منه أنّ كمال خلّص السيّارة من مقرّ الحجز، ووضعها

في صـيانة الشـركة نهارًا؛ ليكملوا إصـلاحها، وأخبره أنّهم سـرقوا منها بعض القطع الضـروريّة، ولم يتجرأ إخباره عمّا حدث فعلًا إلّا حين التقى به ليلًا؛ إذ تأسّــف على الميكانيكيّ الذي اكتشــف عبوّة داخل المحرّك تبثّ غازًا منوّمًا نحو السائق ببطء، فأزالها، واحتفظ بها، ثمّ اختفى مع العبوة بعد ساعة.

- مسكين الميكانيكي، هل بالإمكان مساعدته؟

- طبعًا.. ابتعد عنه، ولا تذكره أمام أحد، وهذا خير معين له.

ثمّ طمأنه أنّ السيارة بحاجة بضع ساعات؛ ليتّم تجهيزها وتركيب القطع المسروقة منها، وفق ما أخبره كمال.

***

حضـرت كوثر أنشـطة محلّية كان أحمد قد شـارك فيها من قبلُ، فعرفته عن قُرب، حينها أبدت رأيها الإيجابي لصديقتها سلمى بشخصيته وثقافته، وما لبثت تزور المعهد بعد أن قدّمتها سلمى بصفتها مدقّقة لغوية، وتطوّرت علاقتها مع أحمد قليلًا، عندما اعتادت أن تشكو همومها ومشاكلها له، وكان أحمد يسمعُها ويرشـدُها إلى طريق الأمان، أمّا في ذاك اليوم، الذي وصلت فيه إلى المركز؛ لتقابل غوطاني أبو فوز، فقد اختلفت مشاعره تّجاهها عما سبق من بداية معرفتها به قبل سنوات، فقد أصبح قلبه ينبض، وبراعم وروده تتفتّح في يباس أيامه الجديبة، بدأ يكتشف مفاتن أنوثتها الآسرة، فأيقظت أحلامه العتيقة؛ حتّى شرع في جمعها نثارًا من جرار محطّمة، ومضى من أمامها هاربًا إلى الغمام والسحاب الرماديّة التي تأبى الهطول، وبعد أن وطئت نعش عواطفه الكئيبة المتعبة، لاحت أمام ناظريه ألوان قزحيّة، ثمّ تأطّرت بورود الجوريّ والفلّ وشقائق النعمان وأزهار الكرز والمشمش والياسمين المنتشرة في بستان أهله حين كان يضجّ بلاخضرة والحياة، بدت كوثر له شـاطئ الأمان الذي تاق إليه رغبةً في نفض بحر أحزانه، فدخل عالم غُلمته المبهمة، وتفرّس في وجهها، شعر أنّ وردة جوريّة حمراء نبتت في أعماقه، صمت... ولكنّ كوثر أدركت ما دار في خلده بحسّها الأنثوي المرهف، فبادلته نظرة، أشعرته أنّها مملوءة بالاشتياق؛ فاستحالت بعينيه غيمة ماطرة تحوّم فوقه، مطالبة بالتعرّي لاستقبال قطرات ندى تتكوّن على صفحة الجسد من أعماق الروح.

سألته عن أبي فوز لتوقف تأجّج عاطفتها نحوه، فردّ عليها مرتابًا منها:

- من أبو الفوز؟
- غوطاني؟
- من أين تعرفين غوطاني أبو فوز؟ سألها أحمد مستهجنًا!

وضّحت له، أنّها تواصلت مع شباب الثورة الذين تعرفهم، وبلّغوها بضرورة التواصل مع شخص اسمه غوطاني أبو فوز في المركز، رحّب بها، وبلّغها أنّه هو المعني، فضحكت، وارتمت في حضنه؛ فتراجع عنها، والتفت لا إراديًّا نحو صورة ماري سمعان، فاغرورقت عيناه، أمّا كوثر فتجاسرت عليه، واقتربت منه من جديد، وقالت له:

- ما توقّعت أن تكون أنت غوطاني أبو فوز! رحم الله ماري يا أستاذ أحمد، فبكى صامتًا، اقتربت منه قائلة:

- الله يرحم روح ماري سمعان، كانت من أعظم النساء، لكن الحياة أقوى من الموت، حرام عليك، تعيش داخل نفق الكآبة والحزن، ثمّ ما عليك إلّا أن تلتفت لمن حولك، أو لتخبرني فورًا، بأنّك مستاء من وجودي، لأبحث عن مكان أكثر أمانًا، أرجوك أجبني؟

- لا.. لا ترحلي، ابقي إلى جانبي يا كوثر، ولا تتركيني وحيدًا.

- نحن في زمن ثورة يا أستاذ، أنسيت ذلك؟ كان أحمد قد جلس على كرسيه، واضعًا يديه تحت فكه الأسفل متأمّلًا في وجه كوثر، الذي ينمّ عن عزيمة عظيمة؛ لإخراجه من أحوال الحزن والكآبة، ولسان حالها يقول له: إنّها أحبّته من قبلُ، قال لها:

- ليتها كانت معنا في الثورة يا كوثر، كنّا مشينا على درب الصواب، لا أعرف ماذا أقول لك!

ثمّ هرب من الموقف؛ حينما ذكر لها ما حدث للسيارة؛ بعدما ثقبوا عجلاتها برصاص سلاح ناريّ في أول تظاهرة لهما قرب السفارة المصريّة؛ تأييدًا لثورة 25 يناير في مصر، فقالت له:

- ألم يصلح عمر السيّارة، وتأكّد من سلامتها؟ فأجابها:

- بلى، انتهى من إصلاحها، بعد أن اكتشف الميكانيكي عبوة مملوءة بغاز منوّم يُبثّ نحو السائق.

- أصاب العمى قلوبهم، انتبه يا أستاذ، والله أنا أعرف طيبتك، ولم ينفتح قلبي لغيرك، أخبرتك بهمومي وعذاباتي في حياتي البائسة، والآن أشعر باطمئنان لوجودك بجانبي، والله، إن أصابك مكروه، فلن يبقى لي أحد في هذه الدّنيا.

***

حان موعد قيام مظاهرة الجامع الأمويّ بعد خطبة الجمعة، استقلّ أحمد سيارته ومعه كوثر للمشاركة فيها، وطلبت منه اصطحاب صديقتها حنان المكتئبة؛ اتصلت بها وواعدتها، ثمّ توقّف أحمد بسيارته جانب مكان وقوفها، ففتحت باب السيارة الأمامي، وطلبت من كوثر الجلوس في المقعد الخلفي، وجاورت أحمد، وسرعان ما شرعت في الحكي عن شوقها الجارف؛ لفقدان حبيبها المهجّر قسرًا بعد رفض أبيها وأخوتها زواجها منه كونه سنيًّا، وهي من الطائفة الإسماعيلية، وعن إجبار أهله ترحيله من سوريا، وتهديدهم بقتله أو اعتقاله عن طريق أخيها المتطوع في جهاز المخابرات.. وبعد دقائق، انهارت بكاء مرًّا نادبةً حظّها السيء في حياة نجسة – حسبما عبّرت – كانت تتذكّر غياب حبيبها الذي أحبّته في الجامعة، وتلعن أهلها والطوائف والأديان كلّها، فما كان من أحمد إلّا أن لمس يدها ودلكها ببطء، واحتضن كفّها بكفّ يده الأيمن، وامتدت يده إلى أعلى كتفها رويدًا رويدًا، داعب شعرها، وناولها مناديل ورقيّة؛ لتجفّف دموعها، فقالت له كوثر ممازحة:

- انتبه لاندفاعك أيّها الشاب الشقي، أنا موجودة، لا تأخذ حريتك إلى الأخير، كأنّك لا تحسب لوجودي حسابًا، أم غيّرك اسمك الجديد، يا غوطاني أبو فوز.

ابتسم أحمد، ثم وجّه خطابه جادًا:

- من أجمل لحظات حياتي حين أسمع منك هذا الاسم يا كوثر، أنا فعلًا تغيّرت من جوّاي، بتّ أشعر أنّني أُخلَق من جديد، حتّى إنّ اسمي الذي أطلقوه عليّ يوم ولادتي نسيته، انسوا اسم أحمد فعلًا، أنا غوطاني أبو فوز وكفى، فصرخت كوثر بصوت عالٍ:

- يحيا غوطاني أبو فوز، نصير الثورة والنساء، تحيا حبيباته جملة وتفصيلًا، تحيا كوثر التي لن تترك أحمد إلّا حرًّا وجميلًا... قاطعها أحمد قائلًا:

- أخفضي صوتك أيتها البلهاء، لا بارك الله في أمثالك، فضحتينا! ثمّ إذا لم تنسِ اسم أحمد، سأناديك شطمة المجنونة، فأجابت كوثر:

- العمى! شطمة؟ فعلًا قبل الثورة، كلنا كنّا شطمة المجنونة بأقنعة متباينة، استأنف أحمد موجّهًا خطابه لحنان:

- وأنت يا حنان، يجب أن تعرفي أن بلادنا ظالمة بحقّ أبنائها، لو لم يخشَ أبوك من شطمة وابنها الذيب القابعين في وجدان معظم السوريين، ويقدّر حساب المجتمع المتخلّف حقّ قدره؛ لكنتِ – الآن – أجمل عروس، لكن لو وافق على زواجك، لجعلوا منه مسخرة، ودفعوه إلى الجنون، إنّ تجربة هذا الواقع أثبتت ضعف الناس وعجزهم على مواجهة الجهل والقهر والتخلف المهمينين على جوانب الحياة كلّها، وأنت تعرفين دور جمعية التراث ونبيه منزوعيا وماهر وأمثالهم في حزب الجبهة التقدميّة، وتعرفين كيف ينشرون ثقافة الطائفية، ويمارسون القهر والفساد والدعارة علنًا، ويشجّعون على التديّن الزائف وقتل الروح الأنثويّة الخلّاقة، دعينا – اليوم – في أجواء الثورة؛ التي ستغيّر كلّ شيء إن شاء الله، أرجوك أُخرُجي من حزنك وشقائك، ثمّ واستها كوثر ضاحكة:

- على أي شيء خائفة يا مجنونة؟ لو كان أحبك فعلًا ما أعلن هزيمته من أول جولة خاضها مع أهلك، هو سافر وتركك – الله لا يسهّل له دربًا – وعلى فكرة هو ليس أحسن من ابن العرص؛ الذي غرّر بي منذ كنت في السنة الأولى في الجامعة، أمّا اليوم؛ فلتعيشي مثلما يحلو لك وتريدين، أهلك وأهلي يغضّون النظر عن كل شيء نقوم به سرًّا، المهم ألّا تحدث لهم فضيحة، يا حنّة الحلوة، والله ما في أكثر من الرجال، فعددهم يفوق الهمّ على القلب.

- .... استأنفت حنان البكاء، وأكمل أحمد:

- والله أنا أستمدّ طاقتي من كوثر وأمثالها من الشباب، عليك أن تقطعي مع واقع الذلّ يا حنان، أتعرفين وصيّة الله لأرميا النبيّ في سفر إرميا بالعهد القديم حينما أرسله؛ لإصلاح ضلال شعبه وفسادهم،

قال له الربّ: "أرسلتك يا أرميا لتقلع وتهدم؛ من أجل ان تزرع وتبني" وها هم شباب الثورة عليهم أن يبدؤوا بهدم أركان الظلم والفساد والجهل، من أجل أن يستنبتوا بذور الخير والجمال والحبّ.

ولكن حنان استمرت بنحيبها، مما جعل كوثر تلومها على ضعفها، وتعنّفها طالبة منها الصمت، فأجابها أحمد:

- يا كوثر، أحوالنا ليست أحسن حالًا من حالها، أنا لا أزال مفعمًا بالموت مع كلّ لحظة عشتها منذ طفولتي.. كان أبي يضرب أمّي، والذيب ابن شطمة يمرّغ كرامته بالتراب، ثمّ هربت إلى لبنان، وعدت إلى سوريا والخدمة العسكرية والسجن المتكرر وهروبي من السجن، وميسون وخيانة أقربائي، ومدفن الدار في أمّ الإبر، وفصل رأس ثريّا عن جسدها، وموت إبراهيم بعد معركة المقبرة واغتيال أخي سليمان وانتحار أختي خديجة، ثمّ ملاحقة الموت لأعزّ من قابلت، ماري سمعان، التي امتصّت بذور الموت من داخلي؛ فخطفها مني السرطان.. لاحقتني ديدان الموت التي شهدتها منبثقة من رأس جدّي وصفيّ ومنخريّ الذيب بن شطمة وسرير ماهر، ومن قاع مدفن الدّار الكبير، ثمّ ما تزال غرغرات المحكومين بالإعدام في سجن تدمر العسكريّ تسيطر على وجوديّ، وعيون البومة وصوت الغراب ومخالبهما...، المخابرات وجرائمها.. همومنا كبيرة جدًّا، كان الله في العون يا كوثر، العتب اليوم على الذي يعيش أسير ماضيه، اليوم أشعر أنّ الثورة أخرجتني من قبر كان مطبقًا على وجودي،... تقاطعه كوثر:

- الله يكون في عونك يا أستاذ أحمد، والله جيلنا لم يعش ربع ما عاشه جيلكم من مآسي،...

- الله لا يحمدك يا كوثر، ألم أقل لك أنّ اسمي تغيّر، واسمي هو غوطاني أبو فوز! فقالت حنان:

- لا تعتب عليها أبو فوز، كوثر لا همّ على قلبها، تختار من تريد، وتنفّذ ما يجول في خاطرها فقط.

- والله همومي كثيرة يا غوطاني أبو فوز، لكنّي صرت خبيرة بالرجال ومحبّة لهم؛ إذ قلة منهم أدخلوني جنّة المشتهى، وكثيرٌ منهم عاهات وحيوانات، وأولهم ابن الكلب الذي قدّم لي بنطال جينز وبلوزة حمراء هدية في محله في الحريقة؛ عندما كنت في السنة الجامعيّة الأولى.

- ماعلاقة البنطال بمعرفتك بالرجال؟ ما فهمت والله يا كوثر!

- لك يا أبو فوز.. الذي لم يفهم شيئًا من الحياة بعد أكثر من نصف قرن معاناة على ما ذكرت، يبقى مغمضًا عينيه وقلبه، طنّشْ تعشْ، لا يوجد أحلى منك يا أستاذ، تخلّصت من وساخة بيئتك وعائلتك، أهم شيء فيك أنك نفضت عنك دنس التعصّب الدينيّ والطائفة والعائلة، وتحرّرت من انتماء ولادتك، استهنت بقيم متخلّفة على طريقتك، ونجحت، خرجت حنان من حالتها، وابتسمت، ثمّ قالت:

- إذا كان الأستاذ أبو فوز مغمّضًا، يعني أنت المفتحة يا قحبة، احكِ له ما الذي حدث معك؛ حينما أهداك قوّاد الحريقة بنطال جينز وبلوزة حمراء من محله في السوق.

-	حكيت له يا هبلة، فضفضت له بكلّ شيء، كلّ ما عددته أسرارًا، في هذا العمر الشقي، لم أتجرأ على البوح به لأحد سوى لكِ ولغوطانيّ أبو فوز بارك الله في عمره بحقّ الله ورسوله الأكرم.

***

احتشدت صور الماضي البائس في رأس أحمد، وانكشفت له آلامٌ ومآسٍ جديدة في أثناء طريقهم إلى الجامع الأموي، وطغى القلق على وجوده، ودخل أنفاقًا تنغلق على بعضها، وقد تدلّى في داخلها أسوار ليلٍ مدلهم مطبق على قطّانها المجترّين حكايات ولّى زمانها، ثمّ تساءل: "تُرى، لماذا قامت الثورة؟" تقرأ كوثر سؤاله في عينيه، فتجيب:

-	والله يا أبو الفوز، الثورة ليست ضد السلطة والدولة، الشباب ثائرون قبل كل شيء على أنفسهم وعلى أهلهم، على مظاهر خنوعنا وعلى فسادٍ عشنا في وسطه جميعًا، على مظاهر التماوت، على مجتمع ظالم، وآخر شيء يفكر فيه الشباب هو سلطة نظام الحكم وعهرها وطائفيتها وظلمها، وأكملت حنان:

-	والله الناس – بالسنة الأخيرة – بدأت تنبح مثل الكلاب وتقأقئ قأقأة الدجاج، وأمثال ابن شطمة ونبيه منزوعيا وماهر يكشّرون عن أنيابهم مثل الكلاب والجرذان مع أسيادهم الضباع والذئاب، صار الوضع يحتاج ألف ثورة حتى ينصْلح.

بعد اقترابهم من الوصول تأوّه أحمد، وتنهّد تنهيدة عميقة ملازمة له عند كلّ موقف صعب، ثمّ ركن السيارة إلى جانب سور قلعة دمشق، وتوجّه مع كوثر وحنان نحو الجامع الأمويّ، كانت ساحته الخارجيّة من جهة سوق الحميدية مكتظّة بالناس، وقفوا بينهم منتظرين تكبير شباب الثورة؛ لحظة انتهاء خطبة الجمعة؛ للمشاركة في المظاهرة؛ التي أعلن عنها قبل أيام على صفحات التواصل الاجتماعيّ لشباب الثورة السوريّة، فوجئت حنان بأخيها المتطوّع في جهاز مخابرات أمن الدولة، حين التفتت بعد أن تلقّت نكزة عنيفة من خلفها، وبعد أن نظر نحو أحمد نظرة احتقار وتهديد، ومن دون أن ينبس بكلمة واحدة قادها من يدها، وأوصلها إلى الشارع المستقيم، وهناك تلقّت تهديداته بإماتتها، إن شاركت بأية مظاهرة، ثمّ أودعها سيارة أجرة؛ لتوصيلها إلى البيت مهدّدًا السائق إن تقاعس عن توصيلها .

اقترب أبو الفوز وكوثر من باب الجامع الأموي الغربي، انتظرا دقائق، ثمّ بُعيد بداية خطبة الجمعة، سمعا التكبير من الداخل، فاقتحم قسم من المخابرات المتخفّين بين الناس الباب، وتوجّهوا نحو صحن الجامع، الذي امتلأ بالمتظاهرين المردّدين بصوت واحد:

-	الله أكبر، حرية.. الله أكبر، حرية...

تمكّن المتظاهرون من إيقاف اندفاع المخابرات نحوهم، ممّا استدعى من بعض رجال المخابرات إطلاق النار في فضاء الجامع من فوق رءوس المتظاهرين، مترافقًا مع انسحابهم نحو الباب، الذي دخلوا منه، أمّا

المتظاهرون فقد اتّجهوا نحو الباب الشرقيّ، وهناك التحموا مع آخرين توافدوا من حارات فرعيّة وأماكن متفرّقة، وانعقدت المظاهرة منطلقة من أمام مقهى النوفرة؛ تّجاه حارات دمشق العتيقة المليئة بالياسمين والورود، فنثر أهلها أزاهيرها فوق رءوس المتظاهرين.

أمّا ساحة الباب الغربيّ للجامع، فلم تحرّك ساكنًا، ثمّ تلفّت أحمد، فوجد الناس من حوله كثيرين، فظنّهم من المتظاهرين، على اعتبار أن المخابرات دخلوا إلى الجامع، أومأ لكوثر وشبك يده بيدها، وتوجّها نحو أكبر تجمعٍ من الموجودين، وهتف:

"واحد واحد واحد، الشعب السوريّ واحد"

لم يسمع سوى صوت كوثر تردّد وراءه، وقبل أن يكرّر الهتاف، جاءته صفعة على قفا رأسه، كاد يهوي على الأرض، لولا أن كوثر أمسكت به، لقد أخطأ أحمد التقدير فالتجمع الذي استهدفه، كان يغلب عليه شبيحة النظام وعناصر المخابرات؛ التي قامت بحصار الجامع الأموي، اقترب منه اثنان، تأبطّاه، وسارا به نحو سيارتهم المركونة في زاويةٍ بهدف اعتقاله، إلّا أنّ أخا حنان تدخّل في اللحظات الأخيرة؛ لمعرفته بكوثر وبحياة أحمد البائسة في أم الإبر، فقال:

- ألا تستحي على شيبتك، أنت أحقر شخص قابلته، تضحك على البنات، وتخرجهن في مظاهرات، عيب على شيبتك، تشارك بمظاهرات مع الأولاد الزعران! ودفعه بقسوة، وأمر عنصرًا بإخراجه مع كوثر من الساحة، موجّهًا شتائم مقذعة له وللثورة والحرية؛ التي يطالبون بها.

شبكت كوثر كفّ يدها بكفّ أحمد، ودفعهما رجل مخابرات إلى سوق البزورية خارج ساحة الأمويّ، ثمّ أمرهما بالابتعاد مهدّدا بإعدامهما، دخلا من حارة ضيقة، قاصدين قلعة دمشق للوصول إلى السيارة، وصلا إلى سوق النسوان، عبراه، ثمّ اتجها نحو سوق الحريقة؛ وحينما اقتربا من سوق الحميدية، سمعا صوت المظاهرة؛ التي تشكّلت من أمام سوق المسكيّة بعيدًا عن أبواب الجامع المحاصرة، ثمّ عبرت سوق الحميدية، بغفلة منهما.. التحقا أخيرًا بالمظاهرة قبيل خروجها من بوابة الحميدية الغربية، واتّجهت كتلة واحدة نحو ساحة المرجة، كانوا يتناوبون الهتافات:

"سوريا نحن رجالك، أللّه يلعن خوّانك
الشعب السوري ما بينذل
لا سنية ولا علوية، بدنا دولة مدنية
الله، سوريا، حرية، وبس..."

***

هناك، في ساحة المرجة التي شهدت ميلاد سوريا الحديثة إثر الثورة العربية الكبرى 1916م، رجال يرتدون الأسود، ويحملون بأياديهم بنادق ورشاشات، وبالقرب منهم آليات عسكرية مدرّعة.. كانوا من فرقة تشكّلت حديثًا؛ لمناهضة الإرهاب، وعرف أنها تكوّنت من شبيحة معظمهم من الأقليات وعناصر من الجيش الفئوي، وكان عناصرها يتدربون بإشراف الحرس الثوريّ الإيرانيّ، ويصطبغون بلون السواد.

لم يتدخّل أصحاب القمصان السود بدايةً، وتركوا المظاهرة؛ يزداد عددها من الموجودين في ساحة المرجة؛ التي تكون – عادة – مكتظّة بالناس، إلى أن تجمهر المتظاهرون وسط الساحة أصواتهم تصدح مطالبين بالحرية، متحمّسين ومنشدين هتافات استعاروها من حراك مناطق ريفيّة في المدن السوريّة المختلفة:

"الله، سوريا، حرية...

سوريا بدها حريّة...

لا سنية وعلوية، بدنا دولة مدنية"

فجأة، فتح أصحاب القمصان السوداء نيران أسلحتهم تّجاه المتظاهرين، فتفرّقوا، ولم يبق إلّا من أصابتهم الرصاصات الحيّة مرميين على الأرض.. عاد بعض الشباب لإسعافهم، ولكنّ رصاص الشبيحة ورجال المخابرات طال بعضهم من جديد، ثم أطبق عناصر القمصان السوداء على ساحة المرجة من جهاتها الأربع، اعتقلوا بضع عشرات من الهاربين والجرحى، رموهم بسياراتهم، وأخذوهم إلى مجهول سجونهم.

لم يتركوا في الساحة سوى جثمان شهيد، كان يفتح يديه باسمًا؛ غريقًا في دمائه، وجهه متّجهًا لوهج الشمس؛ التي بدأت ضياؤها تتضاءل حزنًا على شبابه وقامته؛ تلك القامة الجميلة التي كانت مرفوعة على الأكتاف قبل دقائق من استشهاده.

خرج أحمد من الساحة برفقة كوثر، واتّجها نحو السيّارة، ومازال يتأوّه وينشج ويتألّم، حتّى أصبح يتذكّر تفتّح شبابه، قبل نحو عقود ثلاثة؛ حينما أطفؤوا جذوة ثورته في معتقلاتهم الرهيبة، كان اسم الشهيد؛ أحمد أيضًا، وهو من حي التضامن التابع للميدان، شقيق لأحد أبطال مظاهرات الميدان، الذين اعتقلتهم السلطة جماعيًّا.

بعد دقائق وصلا إلى السيارة، وهمّ بالتحرّك بها؛ حينما داهمته سيارة سوداء مفوّمة باللون الأسود لتمنع رؤية الآخرين نحو داخلها، اعترضت سيّارته، ثمّ حمله أربعة أشخاص مكبَّلا ومطمّشًا، بعد أن وجّهوا إليه ركلات ولطمات على رأسه وجسده، أبدا مقاومة عنيفة لهم، إلّا أنّهم أدخلوه سيارتهم عنوةً، واتّجهوا به إلى مكان مجهول.

أما كوثر فكتبت على صفحات مواقع التواصل الاجتماعيّ خبر اعتقال أحمد، تركت السيّارة مكانها، ووأخذت مفتاحها لعدم معرفتها قيادتها، وبكت قهرًا في شوارع المدينة، اتجهت نحو مركز الدراسات فوجدته

مغلقًا، ثم بدأت تتلفت متلهفة على أول عابر، لتعبر معه يومًا آخر، وعندما اقترب منها شـــابٌ ســـوقيّ، وعاكسـها، صـرخت به صـوتًا، جعلته يفرّ من أمامها مذعورًا، وقبل أن تصـل إلى بيتها؛ حاولت الاتصـال بحنان أو بأحد شـباب التنسيقية، ففشـلت، ثمّ عادت وحيدة إلى بيتها منهكة، نامت كالقتيلة، واسـتيقظت على صـوت الموبايل، كان ذلك بعد منتصـف الليل، وسـرعان ما أدركت أنّه صـوت أحمد، أخبرها أنه متجّه إلى قلعة دمشق، المكان الذي ركن سيارته فيه:

- أين أنت؟

- في البيت، حالًا سأتحرك، ومعي مفتاح السيارة، الحمد لله على سلامتك.

كان أحمد يجلس على حافّة الرصيف متواريًّا خلف السيارة، مختفيًا عن أعين المارّة؛ نتيجة أحواله المزرية؛ ملابسه ممزقة، ودماؤه شكّلت بقعًا كبيرة عليها، شعره مشعثٌ، وليس بإمكانه إخفاء أنّاته بين الفينة والأخرى.

وصلت كوثر، وتلفتّت في الاتجاهات كلّها من دون أن تراه، وحينما تنبّه لوجودها وقف وناداها، وهو يئنّ، فاتّجهت نحوه، عانقته، فتأوّه وجعًا من جروحه، وطلب منها الابتعاد عنه؛ حتّى لا تؤذيه، فقالت:

- ما الذي فعلوه بك، الحمد لله على سلامتك، الله يكسر علمهم، وينصر شباب الثورة.

- الله يسلمك، يا كوثر...

ثم ارتمى على السيارة متوجّعًا من جراح جسده، وابتسم بصعوبة قائلًا:

- خلصينا.. أسرعي يا كوثر افتحي باب السيارة.

- على رأسي يا أستاذ، الله ينتقم منهم، طلبت منك تدريبي على قيادة السيارة من زمان، ولكنّك رفضت، لو علّمتني لكنت قدتها بك في هذا الوقت الصعب، ثمّ سألها إن كانت قد أخبرت أحدًا، فقالت له:

- العالم كلّه عرف باعتقالك، نشـرت خبر اعتقالك على الفيسـبوك، ونشـره الشـباب في العالم، ونشـروه على قناة أورينت.

- معنى ذلك أن أهلي قد عرفوا!

- طبعًا.

اتصل أحمد بسلمى ويحيى وعمر وبقية رفاقه، وأخبرهم أنّه بخير، وأنّه حينما يصل إلى أمّ الإبر، سيعلمهم بوصوله، تحرّك بسيارته، وكوثر بجانبه، وعدها بتعليمها قيادة السيارة، فرنت إليه؛ وتدفق الدمع من مقلتيها.. ابتسـم، وتمنّى ألّا تكون جراحه عميقة وعظامه مكسـورة، فتحوّل بكاؤها إلى ضـحكة هسـتيريّة، منعتها من التلفّظ بكلمة، أمّا هو فقاد سيارته على مهلٍ، وهو يسألها عن سبب ضحكها.

حكى لها، أنهم أخذوه إلى مكان مجهول بالنسبة إليه، وأدخلوه إلى قبو، ضـربوه بوحشـيّة، وهدّدوه بالموت؛ إذا عاد إلى التظاهر من جديد، ثمّ أوصـــلوه إلى طريق فرعيّ في بســاتين الغوطة، ورموه على قارعته،

وغادروا.. بقي مرميًّا؛ حتّى تمكّن من الوقوف بعد ساعات، وسار بصعوبة إلى شارع رئيسيّ، وحين رآه سائق سيارة إجرة؛ أوصله إلى مكان السيارة.

- عرفت لأيّ فرع تابعين؟
- غالبًا هم من الشبيحة وزعران من أمّ الإبر وحواليها، وليسوا من المخابرات.
- هل تعرف أحدًا منهم؟
- أغلب الظنّ أنهم من شبيحة ماهر.
- رحم الله ثريا، قتلوها وفصلوا رأسها عن جسدها أبناء الشرّ...!

أوصلها إلى قرب عمارة شقّتها الواقعة في بناء عالٍ، دعته للمبيت عندها، رفض، فنزلت، وانطلق بسيارته، اتّصل بسلمى:

- وصلت إلى أمّ الإبر، وفي غضون دقائق أصل إلى الدار الكبيرة.
- حمدًا على سلامتك يا بابا، الجميع ينتظرونك هنا في الدّار، لكنّه سرعان ما غيّر رأيه،

بعد لحظات استدار بالسيارة، ركنها في مكان آمن، وفاجأ كوثر باللحاق بها للمبيت عندها، اتصل من جديد، وأخبر سلمى أنّه سينام خارج البيت؛ وطلب منها أن تطمئن أمّه وكلّ الموجودين، ثمّ تحادث مع أمّه، التي طلبت منه أن ينتبه لنفسه، وعمر الذي قال له أنّ بإمكانه الذهاب إليه إذا احتاج أيّ شيءٍ.

شرعت كوثر في تحضير عشاء خفيف وكأسٍ من النبيذ الأحمر خلال استحمامه، متحمّلًا آلام جراحه، التي لم تكن عميقة، ثمّ نظّفتها له كوثر بقطن وكحول طبي وسط تأوهاته، ومسحتها بمراهم، ضمّدت النازفة منها، وطلبت منه الجلوس على كنبة عريضة، خلف مائدة عامرة.. تناولا طعام العشاء، وشربا النبيذ المعتّق الذي كانت قد جلبته معها من قريتها، وأصبح يطلب كأسًا بعد كأسٍ، من دون أن يشعر أنّه دخل في عالم السُكر الذي أراحه، وجعله يستعيد طاقته رويدًا رويدًا.. بعد أن تمدّد على سريره، خفّت أوجاعه، واستراح من تعبه، ودخل في جولة استرخاء بناء على أوامر كوثر؛ التي بدأت تحوم حوله كفراشة، تبثّ في أنفه عبقها، تمسّد على أعضائه السليمة.. وبات أحمد يتأوّه لحظة امتزاج أنفاسه بأريجها الأنثويّ المختلط مع رائحة النبيذ.. لم يواتيهما النّوم، كانا ملاكين يسبحان في فضاء حلمهما، بقيت كوثر حذرة من الاقتراب من أعضائه المُصابة حتى لا توجعه؛ إلى أن شعرت ببحار رغبة تموج في داخلها، فنشرت رياحين المتعة في روحه، وأحيتها له حين ضخّت مزيدًا من شغفها في غلمة رجل، يعرف كيف يطفئ لظى قلب امرأته، تحرّك بصعوبة متأوّهًا، وحين لامس حواف حرّها وشفرتيه المكتنزتين، نسي آلامه، ونسي أن الهدهد يتزوج مرة واحدة؛ تبعًا لنبل أخلاقه مع محبوبته، نسي نفسه، وصار ديكًا يحوم حول أنثاه.

لم تعدم كوثر الوســـــيلـة في تثبيت حركتـه تخفيفًا لآلام جراحـه.. كـانـت تميل نحوه بحذر وتؤدة، ولكنّ عاطفتها بثّت نيران جهنم اللاسعة ألسنتها جسده وعاطفته.. كم مرة عاودته بجمر نارها! لا يعرف إلّا لحظة انبلاج فجر ذاك الصباح، وصوت أذان الصلاة، حينها تمكّن من إشباع رغبتها، مغادرًا حياته الوجوديّة إلى برزخ الشهوات، طاردًا كلّ ما اكتسبه من آلام اليوم الفائت الرهيب.. استيقظ نشيطًا، وشعر بصهيل فرس توقظ داخله، أمّا كوثر، فكانت المهرة؛ التي من الصعوبة إيجاد من يلجم جموحها.

60

لم يكن بمستطاع أحمد أن ينسى تلك اللحظات؛ التي مرّت عليه في خضم الثورة، مرّها وحلوها، كان يقبس من فضاء ذاكرته نورًا توهّج له في المظاهرات.. يحشره في وجدانه، ويستمدّ منه طاقة إكمال أيامه في بلدة عرسال اللبنانيّة، رغمًا عن تزاحم مآسيه لفقده أحبته موتًا أو اعتقالًا أو تهجيرًا.. سالم في دوما ومحمد في داريا وبدر في القابون وضرار في قدسيّا، أبو جاسم في سقبا...، تتزاحم أسماء الشهداء الذين عرفهم، في كناكر وبرزة، الهامة، التل، معضمية، عرطوز وجديدة، قطنا وزاكية والمليحة، جوبر وعين ترما وزملكا وجسرين والنشابية وحران العواميد والغزلانية وشبعا، في ريف دمشق ومدينتها ودرعا والمحافظات السورية كلّها، كان يعيش مع مآسي ناسه وبطولاتهم في أوقاته كلّها.

يحزن، ثمّ يفخر أنّه انتمى إلى أولئك الأبطال، ويعزّي نفسه بتوهّج ذكر أسمائهم على مدار سنة انقضت من عمره، استعاد فيها كرامته المهدورة منذ نصف قرن مضى.

حلّ المساء، فطلب من جارته في الشقة فنجان قهوة، وشرع يغيّر من جلسته، ويعود إلى واقع غرفته.. إلى فضائها المغلق؛ القاطن فيه روح ماري، وطيف يحيى – أيضًا – الذي تخيّله مصلوبًا على جدران ساحة الإعدام في معتقل فرع المخابرات العسكريّة، كما أطلّ عليه رأس ثريا المفصول عن جسدها الساكن في جوارحه وفي كهف يسكنه، وتحوم حواليه أرواح الشهداء، يبتعد عنهم، وهو يتساءل عن مصير سلمى وهيام وبقية الغياب، وعبد الحليم الذي تركه فاقدًا ذاكرته، وابنه محمد عبد الحليم الذي اختفى في غياهب الحرب، سارة وعمر وابنهما الرضيع الذي أسمياه سليمان، وأمّه التي تركها ضعيفة الحركة، متسائلًا عن مصيرهم مع نظام الموت الطائفيّ والتكفيريّ؛ الذي ضمّ معارضة سياسية لا يسع رموزها سوى القوادة في فنادق العهر السياسيّ.. كاد يدخل إلى عالم الموت مع استحضار ذاكرته غرغرات موت المحكومين بالإعدام في سجن تدمر العسكريّ؛ لولا طيف ماري سمعان التي أطلّت باثّة فيه الحياة.. قادته إلى خلف مكتبه؛ ليكمل تنظيم ملفات يحيى مع روز، التي آثرت البقاء في دمشق، حاول الاتصال بها، ولكنّها لم تجب، فقدّر أنّها توجّهت إلى وظيفتها في المتحف.

وأخيرًا.. استعان بسلمى الخبيرة بقيادته على درب السلامة، استحضر طيفها مرفرفًا فوق جدار سجن مخابرات القوى الجويّة، الذي قفز من فوقه بعد أن انتشلته عن السلم، وقادته على درب وصوله إلى لبنان قبل أكثر من عشرين سنة مضت، كانت سلمى وفيّة لأبيها، عرف ذلك منذ طفولتها، وفي شبابها، وفي أيام الثورة، اتصل بها على السكاي بي، ردّت عليه فور طلبه لها، قائلة له:

- القلوب عند بعضها يا بابا، أنا أفتح اللاب لأتحدث معك، فوجدتك على الخط.

- قد يكون تخاطر الأرواح وحلول الروح بأجســـاد متنوعة، هذا ما حاول أخوك يحيى أن يقنعني به حينما كنّا في السجن سويّة!

- اتركنا من يحيى يا بابا، أردت أن أبشّرك أنّني حامل...

- ....

- بابا أين غبت يا بابا؟! بابا... أينك!... شعر أحمد أنّه يغرق في دموع مقلتيه، ولا يدري إن كان فرحًا بخبر حمل سلمى، أو حزنًا على غياب يحيى، ثمّ ردّ بصعوبة:

- مبارك، يا سلمى، مبارك يا عيوني؟

- أأنت تبكي يا بابا؟! أحزنت على خبر الحمل؟ إذن، ما الذي يحصل لك، إذا عرفت أني حامل بتوأم؟ أضحكته سلمى.. ثمّ قال لها هربًا من الموقف:

- ألف مبارك يا عيوني، ولكنّ آراء يحيى حول تناســـخ الأرواح والتقمّص حيّرتني.. والله يا ســـلمى، انشغلت بقضايا لم أفكّر فيها طوال عمري! وتفاجأ حين أجابته سلمى:

- والله يا بابا التقمص فكرة حلوة، وأنا راغبة في الاقتناع بها.. لكنّ يحيى يتناول موضـــوعاته من زاوية مختلفة عن الزاوية؛ التي نرى فيها نفس الموضوعات، يحيى يراهن على فشل نظرية المعرفة؛ التي جاءت بها الحداثة وفق قيمها وقواعدها؛ جاعلة منها مقياسًا للصح والخطأ، ويتحدث عن قضايا معاصرة.. حتى دعاة ما بعد الحداثة لم يعالجوها.. حرّره الله، وفكّ أســـره، فهذه البلاد بحاجة إلى يحيى ورفاق يحيى وأخت يحيى، ضحك أحمد:

- ولماذا لم تذكري أباه؟ والله يا سـلمى خبر حبلك أعاد لي الحياة من جديد، انتبهي لنفسـك، ولا تهملي صـحتك.. ثمّ ذكّرها بالشـهور الأولى لحمل أمّها بيحيى، وصـار يهذي في كلامه عن بدايات الثورة في أيامها الأولى، حين كان قرب كوثر؛ التي أنقذته من الاعتقال مرات عديدة، حتّى قال لها:

- ما من أحد اعترض على مشاركتي في الثورة، سوى أمك" هل تتواصلين معها يا سلمى؟

- لا.. ولكنّها تتصل بي، وتطلب مني أن أعطيها رقم موبايلك أو عنوان وجودك لتتواصل معك.

- وهل أعطيتها أية معلومات عنّي؟

- لا.. لا يا بابا، اطمئن، ولكن استعدّ؛ فكوثر راغبة في زيارتك في القريب العاجل.

أريدُ أنْ أمسكَ قدري من عرقوبه

(بيتهوفن)

بعدما انتشــر خبر الاعتداء عليه إثر مشــاركته بمظاهرة الجامع الأموي وســاحة المرجة، ســمع أحمد من سلمى أنّ ميسون انتابتها الشماتة فيه؛ حين معرفتها كيف أهين وضُرب ورمي على أحد أرصفة طريق قرويّ، إذ هاتفت ابنتها:

- قلّل الله من هيبة أبيك، قولي له: ليخجل من عمره، ويتوقّف عن أفعاله الصبيانيّة...

أغلقتْ سلمى سماعةَ الموبايل، قبل أن تتمّ كلامها؛ مما استدعى من ميسون أن تكرر الاتصـالات طوال اليوم، أمّا سلمى فقد امتنعت عن الردّ، فاتصلت بيحيى، واشتكت سلمى، ثمّ بكت، فتأثّر يحيى كثيرًا، طالبًا منها عدم البكاء؛ ودعاها لزيارة ســوريا إن أمكنها، فذكّرته بمشــاكلها مع الذيب ابن شــطمة وحمود، وأنّها لا تتجرأ على العودة، ثمّ أعادت على مســامعه، ما ذكرته لأخته عن أبيه، فطلب منها ألّا تتحدث عن أبيه بهذه الطريقة، لأنّه حرٌّ بما يفعله، فردّت:

- أأنت مصدّق أنّها ثورة يا يحيى؟! الثورة لا تنطلق من الجوامع... قاطعها يحيى، وقال لها:

- الثورة لا تنتظر توجيهًا من أحد، في ســـــوريا ثورة عارمة، وأبي من الفاعلين فيها، لا يجدر بك أن تتناوليه بأيّة كلمة سوء، بكت ميسون من جديد، ورجته أن يطلب من سلمى الردّ عليها.

في اليوم التالي، اتصلت سلمى بأمّها بناء على طلب يحيى.. وبّختها، وهدّدتها بمقاطعتها، وبأنّها ستتوقف عن مكالمتها، إن هي استمرّت بتناول سيرة أبيها بالسوء.

***

وصل أحمد إلى مركز الدراسات مواربةً، كان الباب الخارجيّ مغلقًا، فتحه، فوجد في الإدارة الأستاذ منذر ود. سلمان خائضين في حوار ساخن حول الثورة، ولعلّهما كانا يكرّران كلامًا مستهلكًا عن تسمية ما يجري انتفاضة محدودة أو ثورة عارمة، وكانا قد اتفقا على تسمية تلك الأحداث انتفاضة حسبما أورده د. سلمان من موجبات نظريّة مرتكزة على تفريقه بين أوضاع المجتمع المهيّأ للثورة – كما هو الحال في المجتمع السوريّ – والثورة بحدّ ذاتها، وقد وافقه الأستاذ منذر، واستدلّ على صحّة ما ذكره برأي ســالم أبو فرج الله الذي أطلق مسمّى انتفاضة لا ثورة على الأحداث في سوريا، مما بدا لأحمد أنّهما يقلّلان من شأن ثورة يرى أنّها تضيف إلى التراث الإنســاني أبعادًا جديدة لمفهوم الثورات وتراثها، لاســيّما أنّها ثورة عربيّة ممتدّة على رقعة جغرافيّة واسعة، وهي سابقة في العصر العربيّ الحديث، وإن مثّلت صدى عهد النبوّة، الذي وحّد هذه الشعوب تحت راية الإسلام.. فكّر في إبداء وجهة نظره، ثمّ تخلّى عن ذلك؛ حينما سمع أصوات المتظاهرين؛ إذ تركهما من دون استئذان؛ وهرع تّجاه صوت شباب التظاهر، لم يسعه أن يشارك؛ فقد وصلت سيارة المخابرات، واعتدى

عناصرها على المتظاهرين بالضرب، فهرب من هرب، واعتقل من اعتقل، أمّا أحمد، فقد حمى امرأتين ركضتا نحوه هربًا من شبيح يصرخ بملء فيه: "هذه الكلبة هي التي صوّرت، امسكوها، امسكوها..." وما كان من أحمد إلّا أن مدّ رجله أمامه بتلقائية، فارتمى على الأرض، وكاد يصل رأسه إلى مقدّمة سيّارة، لولا أن أحد الشباب أوقفه، ووجّه له لكمات عديدة، ورماه على سيارة مركونة، فارتدّ نحوه الشباب الهاربون، وهم يردّدون:

- "آجروا .. آجروا به.. آجروا يا شباب...
- يستحقّ الضربَ يا شباب، شاركونا بالضرب.. آجروا به، أثابكم الله..."

تزايد تواجد المخابرات والشبيحة، وهرب المتظاهرون.. وفي تلك اللحظة أمسك أحمد بيدي المرأتين، ودخل معهما إلى مركز الدراسات، فوجده فارغًا؛ إذ خرج منذر وسلمان؛ للمشاركة في المظاهرة، ولم يعودا.

عرف أحمد إحداهن، وهي زوجة حمود واسمها حنين، تذكرها حين زارت الدّار الكبيرة، وتذكر كيف كانت تمازح أخاه عمر، ويقتربان من بعضهما كثيرًا، حتّى ظنّ أحمد بوجود علاقة عاطفية بينهما، فحذر عمر قائلًا:

- انتبه يا عمر، إياك أن تتورّط مع حنين.
- لا تقلق أخي، حنين تحبّنا جميعًا ومدركة وساخة زوجها حمود، حماها الله من شروره.

حينها، لم يكن يأمن جانبها، لا سيّما أنّه رصد تلصصها عليه من شرفة الشقة المطلّة على الدار الكبيرة؛ وهو يستحمّ بأشعة الشمس الصباحية تحت شجرة التوت العتيقة في أرض الدّار، أخبر عمر، الذي طمأنه بدوره عن نواياها الطيبة اتجاهه قائلًا:

- حنين تستميلك يا شيخ، عليك أن تستعد لمعاشرتها أبو يحيى.
- قطع الله لسانك يا عمر، كيف تتجرأ على أخيك الكبير، ثمّ أليست متزوجة؟! كيف تسمح لنفسك بالحديث عنها بهذه الوقاحة؟!
- سامحنا يا شيخ أحمد، سامحنا، توقّف عن الخروج إلى أرض الدّار وأنت نصف عارٍ من ملابسك.

شريط مرّ بذاكرة أحمد استحضر من خلاله تأوهاتها امامه في الدار، من دون إعارتها انتباهه.. إلى أن اقتربت منه، ولمست جسده مظهرة غنجًا أنثويًّا، وقالت له:

- والله يا أستاذ أحمد منذ اليوم الذي رأيتك فيه، وأنت تلتحف شمس الصباح مع قهوتك في أرض الدّار الكبيرة، وأنا أشتهي أن ألمسك، والله العظيم أراقبك من شبّاك غرفتي في الشقّة منذ سنين سبقت، ولا أستطيع وصالك.

لمس أحمد صدقًا في أقوالها، وإن استقرّ في ذهنه رغبتها الأنثوية التي تصهل في روحها المعذّبة، ثمّ سأل المرأة الأخرى عن اسمها، وعرف أنّها ابنة أبي العزايم الذي تحوّل من قوّاد في المكاتب العقاريّة إلى شيخ دينٍ يؤّم في مجالس الدين ومساجد أمّ الإبر، أما ابنته فقالت عنه:

- يتحوّل إلى ضبع مخيف في البيت، ثمّ قدّمت نفسها باسم هديل.

- تشرفنا بمعرفتك أستاذة حنين، قال لها أحمد، وغادر إلى المطبخ، ليعدّ الشاي، وقبل أن ينتهي وصلتا إليه، وحينما لاحظت حنين غلمة أحمد، همســـت في أذن حنين، كما لو كانتا متواطئتين مســـبقًا، فخرجت مفســـحة لهما المجال لفعل ما يريدان، أمّا أحمد فخاف عليها، وحاول اســـتبقاءها؛ إلّا أنّها أصـــرّت على المغادرة، فأخذها إلى إحدى القاعات الداخليّة، وكلّفها بمتابعة أخبار الثورة عن طريق شـبكة الإنترنت، ورجع إلى الإدارة، فوجد حنين نصـــف عاريّة، فهرع نحو الباب الخارجيّ، وأغلقه من الداخل؛ حتّى لا يمكن لأحد مباغتتهم في المركز، ورجع إليها لائمًا:

- ما الذي قمت به يا مجنونة، لماذا خلعت ملابسك؟ قومي وارتديها.

- ....

اســـتلقت حنين على الأريكة، وطلبت منه الاقتراب منها مبديّة رغبة في امتلاكه، جلس على حافّة الأريكة جانبها، مصـرًّا أن ترتدي ملابسـها.. أمّا هي فلم تمهله كثيرًا.. سـرعان ما خلعت ملابسـها الداخليّة، ووقفت أمامه، عانقته بشـراسـة لبوة، وألقمت شـفتيه برعمي ثدييها؛ ليتناوب التهامهما، كانت الرغبة تسـري ليس في جسديهما فحسب، بل في مسارب النور التي ازدادت بريقًا، فتحركت ستائر النوافذ راقصـة، وتأوّهت الجدران، وتقافزت اللوحات، ثمّ تراءى لأحمد أنّ عصـافير شـجيرات المركز تراقبه من فتحات النور؛ التي تسـللت نحو الغرفة.

فكّت حنين له حزام بنطاله على مهل، ثمّ عرّته من لباسـه، وطفقت تمسّـد جسـده برفق، إلى أن وصـلت إلى حيوان ذكورته، دلّكته بكفيّ يديها كلتيهما، واســـتطاب لها الأمر ألّا يســـتلقيا على الســـرير، أبقت قامته منتصـبةً، ثمّ مالت معه على حافة المكتب، قبّلته، وركعت لتدخله في فمها مثيرة فيه رجولته، لم يسـتجب لها أحمد فورًا؛ مما جعلها تخرجه، وتقلّبه بين كفيها من جديد، ونظرت إلى حيوان ذكوريته نظرة عتاب، كانت تنقّل نظرها بينه وبين عينيّ أحمد؛ حتّى انتصـب فجأة.. لحظة اسـتحضـر عينيّ ثريّا؛ عندما تعرّض للموقف نفســـه قبل نحو أربعة عقود مضـــت، تحجّر حيوانه، وفتح عينه الوحيدة باحثًا عن مكمنه، أمّا حنين فتمكّنت منه، أمسكته واحتفظت به بين كفّيها، حتّى زادته انتصـابًا وتصـلّبًا، ثمّ استرخت على الأريكة عارية، وأدخلته في كهف حميميتها الدافئ، إلى أن امتطى صـهيل رغبتها، مسـتجيبًا لأنوثتها الخلّاقة؛ التي فاضـت عبقًا في

أرجاء الغرفة، كانت حنين مصرّة أن تشعره برجولته المتأصّلة في نفسه حريّة وحبًا، وكانت توّاقة لاستقبال دفقات مشتهاه متأوهة ومندفعة نحوه على إيقاع دقات قلبيهما توترًا صاعدًا.

رائحة الأنوثة أزكمت أنفه، وتفجّرت في أعماقه ذكرى ماري سمعان وثريّا البعيدة، أغوته الذكرى للدخول في نفقها، انتحى مكتئبًا، ارتدى ملابسه، بعد أن أزال آثار المعاشرة غير المتوقّعة بالمناديل الورقيّة، وحكى لها قصّته عن ثريّا؛ التي ذبحوها، وألقوا رأسها في حمّام الموت في حي تشرين، ثمّ باح لها عن ماري سمعان الساكنة روحه، ولكنّه لم يستطع أن يذكر سوى بضع كلمات مع اسمها؛ إذ طفق بالنحيب المرّ، كانت حنين تحتضنه بين ذراعيها ملصقة جسدها العرم بجسده، حتّى استطاعت أن تخرجه من ثورة حزنه واكتئابه.

حضّر أحمد ركوة قهوة، وطلب من هديل الحضور، وجلسوا في الإدارة، يسمعون الشيخ إمام ويشربون القهوة، كانت حنين تحكي، وجروح روحها تطفح في أرجاء الإدارة، حكت كيف تعرّف إليها حمود في مجمّع استهلاكيّ؛ بعد وصولها من إحدى قرى الجنوب الفقيرة؛ حالمة بإكمال دراستها في قسم اللغات بجامعة دمشق، وكيف أغراها؛ وبعد أن امتنعت عنه وصدّته، توصّل إلى أهلها، وطلب يدها، أجبروها على القبول به زوجًا؛ على الرغم من نذالته، وفق ما حكت حنين، وحكت هديل عن الضبع الذي يسكن في نفس أبيها، أبو العزايم، كلما وصل إلى البيت، وحكت لهما كيف شهدت على قوادته وتعريصه هو وخاله وقريب لهم على امرأة جار لهم، كانوا يوقعونه في التوهم أنّ رغبتهم منصرفة للسهر معه، ثمّ يتناوبون على معاشرة زوجته، وكيف كانت أمّها تنتقم من الضبع، بإقامتها علاقات جنسيّة مع بائعين متجولين، أو مع المنجّد الذي كان يقيم في بيتهم أيامًا؛ بحجّة أنّه ينجّد مرتبات أسرّة النوم والوسادات وغيرها، فتمارس معه أمّها الجنس في غفلة عن أبيها الضبع.

خرج أحمد من الإدارة، ووقف في فسحة المركز السماويّة، رفع رأسه فلم يجد السماء الزرقاء، ولم يستشعر دفء الشمس، كانت السماء قد عكست غيومًا سوداء فوق غمام يمنع وضوح الرؤية، ثمّ اشتمّ رائحة جثة تتفسّخ؛ حينما دخل إلى إحدى قاعات المركز، بحث عن مصدرها؛ فلم يستطع معرفته.. قلق، وأخفى الأمر على حنين وهديل بداية، ثمّ كرّر الذهاب إلى الغرفة، حتّى رافقتاه، وسألته حنين عن الرائحة، وأشارت إلى نافذة علويّة، قائلة:

- قد تكون الرائحة من هناك يا أستاذ.
- ولكنّها رائحة جثة، رائحة موت!
- صحيح.. ومصدرها هناك، وأشارت بيدها إلى النافذة العلويّة المطلّة على فناء، ارتقى سلّمًا، واشرأب برأسه، متحمّلًا الرائحة البشعة، ثمّ وقع نظره على جثمان قطّ عالق على حافة الشباك، فنزل مسرعًا، وأخبرهما بما رآه.

خرج واســـتدعى عاملًا جســـورًا أعطاه أجرًا، وطلب منه إزالة جثة القط العالقة، وطلب منه تعقيم المكان بمعقّمات قويّة.. ودّعت حنين وهديل أحمد، وواعدهما للمشاركة بمهرجان شهيد حيّ ركن الدّين في مساء اليوم التالي، أمّا رائحة جثّة القطّ، فبقيت عالقة في أنفه تأبى أن تهجره.

رجع منذر وسلمان إلى المركز، كانا لا يزالان يتجادلان حول توصيف الأحداث في سوريّا، وموقعتها من فيض فكرهما الثوريّ، سألا أحمد عمّا فعله بغيابهما، فقال لهما:

- استعنت بأحد الشباب الجسورين، وتخلّصت من جثة قط كانت عالقة على شباك قاعة التدريب.
- أوقت مزاح – الآن– يا أحمد؟ قال له الأستاذ منذر.
- لا والله، اقترب من أنفي واستنشق رائحة الجثمان العالقة في رئتي.
- صدقناك يا سيدي... قال له د. سلمان.. ولكن من أوصل القط إلى أعلى السقف، هل استعار سلمًا؛ ليصل منتحرًا على حافة شباك علويّ.. يا تُرى؟!
- أنتما تشكّكان بصدقي، والله دفعت إجرة لعامل، حتى جاء وأزال جثّة القط، وإذا كنتما غير مصدّقين، اصعد يا سلمان وانظر بنفسك وتشمم رائحة الجثّة بأنفك، أنت أفتى من الأستاذ منذر.
- صدقناك يا أخي صدقناك.. والله العظيم صدقناك...

ثمّ وجّها له دعوة لاجتماع موسّع للمعارضــة الســوريّة ممثّلة بهيئة تنسـيق الأحزاب التقدمية، اعتذر منهما عن الحضــور، وبعد فشـلهما بإقناعه، اســتأنفا نقاشــهما حول مفهوم الثورة والانتفاضــة؛ في الوقت الذي كان يحضّـر أحمد قهوة جديدة، وحين تقديمها لهما، اســتحلفهما أن يصــمتا؛ حتى ينتهيا من شـرب القهوة من دون منغّصــات، شـغّل اليويتوب، ورفع صـوت الميكرفون على موسيقا السيمفونيّة التاسـعة المتضـمنة (نشيد الفرح) لبيتهوفن، ولكنّ د. سلمان، طلب أن يسمعه السيمفونية الخامسة (قدر يقرع الباب)، لأنّها الأنسب مع ظروف البلد الجديدة، فقال لهما الأستاذ منذر: "أريد إمساك قدري من عرقوبه"، هكذا كان يقول صـاحبكم لودفيغ فان بيتهوفن.

61

يرتاح أحمد لصوت سلمى، ويريد أن يحكي معها دومًا، لولا تراكم ما هو مطلوب منه إنجازه، لا سيما التحقيق في بحوث يحيى وملفاته الكثيرة، وفكّر بما ذكرته له عن تصورات يحيى للحداثة وما بعدها وسوبر ما بعد الحداثة بما يختصّ بالتقمّص مثلًا، وصار يمحّص في الكتب الإلكترونيّة والورقيّة؛ التي عالجت مفاهيم الما بعديّات؛ المتعلقة بنتائج الثورات العلميّة المذهلة، وكان مبتغاه أن يجاري يحيى في كيانه المعرفيّ المتطور، لاسيّما قضايا تعلّقت بنظرية الشواش، التي غيّرت النظرة لطبيعة الكون وتاريخه وأزمنته، وقضية علم الجينات؛ المغيّر مفاهيم الطبّ برمتها، والاهتمام برياضيات النانو وفيزياء الكم، العلمين الذين يغيران قواعد التفكير وآلياته، كان أحمد يتخيّل قدرته على تجاوز نفسه، واللحاق بعلوم العصر التي استحوذ عليها يحيى في نيويورك، ولكنّه بقيت المفاهيم التي شرحها له يحيى في السجن حول مفاهيم الحداثة والما بعديّات وقيمها ومقتضياتها المعرفية سابقًا، لأنّها وفق ما سمعه من يحيى في السجن: تحوّلت مفاهيم الحداثة إلى معيقات أمام دروب التغيير وتحديد علاقة الفرد مع الوجود، وفي معرض بحثه وصل أحمد إلى معالجات يحيى لقضايا تتعلق بنظرية الهولوغرام، وتطبيقات الرنين المغناطيسيّ، فلم يستطع أن يفهم... فاتصل بروز على السكايب، ردّت متناومة:

- خير يا أستاذ.. اللهم اجعله خيرًا، لماذا تستيقظ باكرًا؟
- أنا لم أنم بعدُ يا روز، أتصل بك لتجيبيني عن الهولوغرام ومواضيع كتبها يحيى لم أستطع فهمها؟
- كم الساعة الآن يا أستاذ؟
- الرابعة فجرًا، آسف والله لم أنتبه للوقت، ولكن بالله عليك أن تجيبيني عن علاقة الرنين المغناطيسي بحلول الأرواح!
- .... أغلقت السكايب من دون أن تسمعه.

حاول معرفة خفايا مواضيع انغلق عقله على فهمها، فعجز.. ثمّ شعر أن باب غرفته فُتح، فالتفت نحوه، فوجده مغلقًا، عاد لعمله، إلى أن سمع صياح الديك، فحلّ عليه التعب، انتظر حتّى أذن لصلاة الفجر، اندس تحت لحافه، بعد أن أطفأ النور، ثم بدأ يتساءل: "أيحقّ لأبناء جيل الهزيمة الفخر بانتمائهم إلى شباب الثورة؟... الشباب الذين كانوا هامات نور حول نعوشٍ فوق أكتاف رفاقهم.. ليتني كنت أحدهم، ليتني التقيت بهم وبماري وثريا في برزخ خارج وجودي..." استمر بمناجاة نفسه، وهو على عتبة النوم، حتّى لفّه الحزن الشديد، فغيّر منحى سؤاله: "أيستحق طرد الذيب ابن شطمة من المؤتمر عناء سفري والجلوس معه؟ ولماذا أنتظر مؤتمر

المعارضة وسط بحار الحزن التي تحاصرني؟" ثمّ لاح من أعماق لا وعيه لحظات انعقاد اجتماع الوفود في الطريق الواصل بين حرستا ودوما.. كيف تحرّكت السيارات تباعًا؛ حتى وصلوا إلى محيط الجامع الكبير، إلى أن داهمه توافد الوفود إلى دوما، عاشها من جديد رافضًا أن يغادر حلم يقظته.

مهرجان شهداء دوما، يا ألله.. ما لنا غيرك يا ألله

(ثورة الربيع العربيّ)

تقدّمت منتهى سلطان الأطرش مع مجموعة كهول جموع المشاركين من أحياء دمشق ومدنها وبلداتها وريفها؛ جُلّهم من المعتقلين السابقين، كانت الوفود تترجّل من السيّارات عند مدخل مدينة دوما، وتتّجه نحو الجامع الكبير؛ سيرًا على الأقدام.

تعالت الهتافات من كلّ حدبٍ وصوب، واختلطت الأصوات بين ضيوف مهرجان الثورة والمستقبلين لهم بشكل حماسيّ، ولم يعد هناك مجالٌ للخطابات السياسيّة على المنبر المعدّ، خاصّة أنّ تعزيزات كبيرة من آليات النظام وجنوده المدجّجين بالسلاح، وصلت قرب محكمة دوما وسجنها، فقاد كبار السنّ الدوامنة أشباههم من الضيوف إلى البيوت الآمنة، وكان أحمد من بينهم، ولفت انتباهه وجود كثيرٍ من الجرحى في تلك المنازل الواسعة والنظيفة؛ نتيجة اعتداءات المخابرات والشبيحة عليهم بعد صلاة الظهر.. اطمأن على أحوال منتهى، ورجع إلى المظاهرة المتشكّلة أمام الجامع وفي صحنه، حاملًا معه كاميرا ابنه يحيى؛ التي جلبها من الولايات المتحدة، وظلّت كوثر بجانبه مثل ظلّه، إلى أن افتقدها وسط تزاحم الناس؛ ملتحقة بمظاهرة النساء في الجهة المحضونة من حارات دوما الشعبيّة.

ازدادت أعداد عناصر الجيش والمخابرات قرب محكمة دوما وسجن النساء، وكان أحمد يتقدّم نحوهم متواريًّا، فصوّر سرًّا الآليات والدبابات، والتقط صورًا للقنّاصين الموجّهين فوهات قنّاصاتهم نحو المتظاهرين في الجامع ومحيطه، وكانوا متمركزين على أسطحة عمارات مقابلة للجامع.

وصل إلى بؤرة المظاهرة المشتعلة، وشرع في التصوير.. ومع تقدّمها واتساع حجمها وازدياد لهيبها، كان مضطرًا إلى الاقتراب من نواتها أكثر وأكثر؛ تواترًا مع صوت المتظاهرين الذي يصدح للحرية.

وكان الهتّاف شابًّا وسيمًا، حماسته نادرة، صوتُه عريضٌ، وعضلاته مفتولةٌ وبارزة، وعند كلّ صوت من حنجرته تجحظ عينيه، ويشرئب رأسه؛ كأنّه يتوق للانفصال عن جسده نحو فضاء المظاهرة المتّصل بالسماء، وكادت عروق رقبته تتفجّر، حين توجّه بهتافه نحو المتردّدين الواقفين على الأرصفة، فانجذبوا نحوه، واندمجوا في التظاهر، على الرغم من تزايد قوات السلطة ومخابراتها وشبيحتها مع آلياتهم وأسلحتهم حول بناء المحكمة في الجهة الأخرى من جامع دوما الكبير.

تعالت أصوات المتظاهرين، وهم يردّدون خلف الشابّ الهتّاف بحماس وإيمان، كانت أصداء أصواتهم تشقّ عنان السماء ورءوسهم تطالها:

"سوريا بدها حريّة، سوريا بدها حريّة...

اسمعوا صوت الحريّة، من الغوطة الشرقيّة...

يا درعا نحنا معاكي للموت، يا درعا الغوطة معاكي للموت يا درعا..."

لم تثنِ أحمد عن التصوير مشاهد تلاحم الأجساد، وهي تتراصّ حول نواة المظاهرة، وأصوات زغاريد الصبايا تتعالى، حينما شرع الشابّ الهتاف بهتاف جديد:

"إسلام ومسيحية، بدنا دولة مدنيّة

لا سنيّة وشيعيّة، بدنا دولة مدنيّة..."

وأمام اندفاع الشّاب وجموحه، كان أحمد يعي أنّ ما يشهده يفوق معاني البطولة؛ التي أدرك بعضًا من جوانبها في زوايا عقله الباطن المخزّن من بطولات السوريين؛ التي شهد عليها في أثناء اعتقالاته المتكرّرة منذ ثمانينيات القرن الماضي مع شباب تركهم في غياهب المعتقلات، فمنهم من صدق ما عاهدوا أنفسهم والله عليه، ومنهم من ارتقى، ومنهم من غيّب أو هجّر، ومنهم من يخوض مع أبنائه في ساحات الثورة السورية الثانيّة.

فاضت ملامح ذاك الشاب الهتّاف ربيعًا على محياه، وبدا بدرًا أحمر ينذر بالانفجار، مسحةٌ من الحزن خالطت قسمات الحبّ؛ التي كانت تقطر من وجنتيه، فتناوبت ومضات متداخلة بين وجهه وملامح السيد المسيح في درب جلجلته داخل مخيلة أحمد، ولا يعرف بالضبط، كيف داهمه نشيجٌ متواصل من أعماق صدره، فأبقى كاميرته مرفوعة لتصوير مشهد الشابّ، وتعالى صوته مردّدًا هتافات المظاهرة خلف هتّافها، كانت تعتريه غصّة مع كلّ مقطع صوتيّ، ولكنّه استمرّ مستمدًّا طاقته من المعاني النبيلة في محيا الهتّاف؛ الذي لم يتعدّ عمره الثامنة عشرة، وهو فوق الأكتاف مردّدًا:

"واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد"

استمرّ أحمد في تصويب نظره تّجاه الهتّاف مردّدًا وراءه، على الرغم من غصّاته المتتالية؛ التي انتابته، وزادته رعبًا ووهنًا، بدأت قدماه تدفعانه نحو الأجساد المتزاحمة حول الهتّاف.. أصبح يدافع الآخرين؛ راغبًا في احتضانه، راجيًّا أن يسبح معه نحو آفاق لا يعرف مستقرًّا لها، تراءى له شفيف غيمةٍ تتصل بصورة السيّد المسيح المتجلّي حلمًا فوق رأسه، كان يواسي مريم المجدلية التي سألت عنه حين قيامته: أين حبيبي؟ فسمع صدى صوت المسيح الذي كان يتردّد مع كلّ بسمة، يبديها الهتّاف.. ويحتفظ بها أحمد في ضميره:

"إلهي.. إلهي لماذا تركتني؟"

اختلطت قسمات وجه الهتّاف مع الإله، لحظة تعالى صوته من جديد، مشوّحًا بيديه كلتيهما مستعيرًا من السماء وهج شمسها، هاتفًا:

"يا أللهْ.. مالنا غيرك يا أللهْ"، فتتعالى أصوات المتظاهرين:

"يا أللهْ ما لنا غيرك يا أللهْ"، محضرين أعظم معاني الوجد لدى أكثر فرق الصوفيّة حبًّا وتوحّدًا مع الخالق عبر تاريخها الطويل.

تماهى أحمد مع الهتّاف الشابّ، ولم ينتبه إلى أزيز الرصاص الذي انهمر على المظاهرة؛ إلّا حينما فرّ معظم المتظاهرين سواه، لقد افتقد الإرادة أمام صورة الهتّاف وصوته، تسمّر مكانه مردّدًا:

"يا أللهْ.. ما لنا غيرك يا أللهْ، يا أللهْ ما لنا غيرك يا أللهْ..."

تسمّر أحمد وبيده الكاميرا، عدستها كادت تلامس رأس الهتّاف؛ إذ التقطت عدستها مناجاته إلهًا يجحد حبّه، تناغمًا مع أنين أحمد، الذي استحضر هامته المرفوعة فوق الأكتاف؛ مردّدًا خلفه عتبه على الله الممزوج بنشيج الفجيعة تكرارًا لا واعيًا، حتّى حطّ السيد المسيح وشكّل خلفيّة للموقف – الصورة.. أقسم أحمد أنّه رآه؛ في اللحظة نفسها، التي خمد صوت الشابّ.. لحظة تمايل رأسه وجسده على رءوس رفاقه المتظاهرين.. لحظة انهمرت دماؤه فوق أجسادهم، لحظة وقفوا سدًّا منيعًا أمام زخّات الرصاص؛ التي أصابت هاماتهم وأصبحت تتهاوى، وأصواتهم تتلاشى مع تعالي أزيز رصاص القتلة.

ترنو إلى الشابّ فلا تسمع له صوتًا، هو فوق الأكتاف، حركته تلاشت، ودمه انهمر شلّالًا، أمّا جسده فأبى أن يسقط على الأرض؛ ظلّ مرفوعًا فوق رءوس هامات اغتسلت بدمائه.. كاميرا أحمد وثقت آخر حركة لفمه المفعم بكلمة الحرية، وغاص جسده في بحر دمائه، أصداء صوته تتردد في أمداء السماء، استقرّت فوق غيمة، وسكنت لا وعيّ أحمد، ارتسمت على صفحة ذاكرته صور ملائكة ساجدة للهتّاف.. رفع رفاقه جسده فوق رءوسهم، واندفعوا نحو حارة مغلقة، كانوا يرددون بصوت واحد:

"يا الله ما لنا غيرك يا الله..."

***

عشرات أصيبوا برصاص الموت الطائفيّ، انطفأ وهج المظاهرة، وانزوى أحمد وفي يده الكاميرا، تلاشى مع حلمه، أصابته غُصّة، كاد يختنق منها، بخلاف أصوات الحرية، التي ظلّت تصدح مع رقصات شباب، كأنهم سكارى لسحر ما يفعلون.. أصوات تشير نحو المصابين، وأطباء يتدافعون نحو الجرحى.. زغاريد حينًا، ونحيب نساء أحيانًا؛ حينما كنّ يواجهن شهداء أحياء.

رصد الشبيحة انزواء أحمد في ركن غير آمن، فحاولوا الوصول إليه، سمعهم يردّدون:

- "خذوا الكاميرا من المصور،...

- الكاميرا ما زال يمسك بها بيده، انتزعوها منه لابن القحبة...
- هذا هو ابن الكلب الذي كان يصوّر.. الحقوا به، وائتوا به..."

ركضوا نحوه، ولكنّه أنقذ نفسه؛ حينما ركض والتحم بكتلة شباب مدينة دوما، كانوا مرتدّين بهاماتهم نحو الشبيحة، فحالوا بين الشبيحة وبين الكاميرا؛ التي فتح أحمد عدستها، ووثّق هجومهم الهمجيّ بلقطة نادرة.

نكص الشبيحة نحو آليات عسكريّة، كانت متمركزة حول محكمة دوما، وعاد المتظاهرون لإسعاف الجرحى، سمع أحمد أصواتهم يصرخون بأسى ولوعة، وغضب هادر:

- أصيب سالم، يا شباب، سالم يحتاج إلى دكتور يسعفه،...
- سالم يموت، أين النخوة يا شباب، أين الأطباء...

استغاثات من كلّ الاتجاهات، تطلب النجدة، واختلاط العويل بالبكاء قهرًا على عجز سلميتهم أمام أسلحة فتّاكة بأيدي مجرمين طائفيين، وحزنًا على دماء شبابهم المسفوحة.

وصل الطبيب، وعاين حالة سالم، وأمام جسده، ركع على ركبتيه باكيًا بحرقة.. تأوّه الطبيب بحرقة على أجمل الرجال، لم يستطع أن ينطق كلمات، بل شهق وبكى وطنًا؛ يتهاوى كما هوى سالم، سالم الذي هوى شهيدًا جميلًا، ثمّ قال:

- الله يرحمك يا سالم، كنت بطلًا يا أخي...

تعالت أصوات الوعيد لسلطة الموت، وانطلقت زغاريد نساء، وأصوات نواحهن قطّعت نياط القلوب، رفاقه – فقط – من انسحب بهدوء من المشهد، واندفعوا بشجاعة نادرة؛ ليرفعوا أصواتهم من جديد مطالبين بالحرية والكرامة.

عرف أحمد أن سالم هو الهتّاف، فانزوى في ركن من زوايا الحارة الضيقة مع كاميرته، بكى بصمت، استمرّ منتحيًا مجدّدًا نحيبه ونشيجه، كان قلبه غاصًّا بالألم والوجع والفجيعة، وأدرك أخيرًا ما كان يحيق بسالم، حمّل نفسه مسؤولية موته، هو الذي رأى هالة مقدّسة فاضت نورًا حول رأس سالم، اندفع ليحميه من الموت، ولكنه عجز، بكى من جديد وساءل الربّ هل انتبه لعتاب سالم:

"وما لنا غيرك يا الله"، وهل أجاب عن سؤاله:

"إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟

62

ذاكرة أحمد مستدامة، استوعبت عالمه الداخليّ، والكثير من العلاقات الاجتماعية التي انعكست سلبًا على حياته، إضافة إلى صلاته التي أينعت روحه عن طريقها.

بعد ليلة شــاقّة في البحث والعمل، اســتمرّ أحمد نائمًا لما بعد الظهر، لم يزعجه أحد، طوال فترة نومه، سوى أنّ أصوات موسيقا انبعثت من ساحة عرسال، اضطرته أن يخرج، ويسأل جيرانه عنها، فانبرت خديجة، طالبة الثانويّ، وأخبرته ضاحكة:

- هؤلاء شباب حمص، يعزفون أناشيد الثورة، توجّه نحو الشرفة، وتأكّد من وجودهم أمام دكان الحلّاق، ثمّ قال لها:

- انتظريني لحظات يا ديجة، لننزل ونشاركهم الغناء، دخل غرفته ارتدى لباس الخروج، ولحظة مغادرته غرفته، لفت انتباهه ورقة مرمية على أرض الغرفة، حملها ودسّها في جيبه على عجلٍ، ثمّ اصطحب خديجة، وطلب من أمّها ومن يقدر اللحاق بهما.

في الساحة، أمام باب الحلّاق اللبنانيّ المؤيّد للثورة، وقف ثلاثة شباب، شكّلوا فرقة موسيقية مكوّنة من عوّاد وطبّال وزمّار، وأمامهم رابع يغنّي أغنية (يللا ارحل يا بشار) لإبراهيم القاشوش؛ الذي اجتثّت عناصر المخابرات حنجرته، ورموا جثمانه في نهر العاصي؛ بعدما ألهب مشاعر المتظاهرين؛ وقت أنشدها في مظاهرات حماه وحمص.

كان البقّال يتوكأ على عصاه قربهم؛ منتظرًا أمرًا خطيرًا، ثمّ تقدّم الحلّاق إلى الساحة ورقص، وتوافد بضعة شباب من الإناث والذكور، سوريين ولبنانيين نحو حلبة الرقص، وانضمّ إليهم أحمد وخديجة، وفي غمرة انفعالهم، توقّفت سيّارةٌ للجيش اللبنانيّ، وأطلقت رصاصًا في الهواء، فهرب من هرب، وبقي أحمد واقفًا إلى جانب شباب الفرقة؛ الذين شرعوا في حمل آلاتهم استعدادًا للتواري، وصل عناصر الدورية، وحاولوا الاعتداء على الشباب الموسيقيين، ولكنّ الحلّاق، اعترض طريقهم، وسانده بعضٌ من جيرانه اللبنانيين، وخلّصوا الشباب من أيديهم، وشغلوهم عنهم لحظة غافل شاب لبنانيّ البقال الأعور وضربه بعصا على ظهره ورماه أرضًا، فالتفت عناصر الجيش للبقّال، وحاول بعضهم رفعه عن الأرض، وآخرون لحقوا بالشاب، استغلّ أحمد الموقف، وقاد الشباب إلى خلف الساحة، ثمّ إلى شقّته خفيّة عن أعين الجميع، إلى أن غادرت دورية الجيش اللبناني الساحة؛ نتيجة تزايد عدد المعارضين اللبنانيين لتدخلهم السافر، تاركين البقّال يصرخ ملوحًا بعصاه وبجانبه كلبه الذي يعوي على تكاسلٍ، ورجلان وامرأة يعضدان موقفه:

-   نهبوا البلد، هؤلاء السوريون الحرامية، لم يتركوا لنا شيئًا، أقسم بالله العظيم، لأجعل الدم للركب..! أين أنتم يا لبنانيين، لماذا تتركونهم يسرقون بلدكم...

قبل انتصاف الليل، نام فتيان حمص الموسيقيين في الغرفة الكبيرة بجانب ساكنيها، وأرق أحمد في غرفته الضيّقة، تصفّح الإنترنت، وقرأ على صفحات التواصل الاجتماعيّ خبر ساحة عرسال، وشاهد وقائع الحدث على اليوتيوب، كما ظهرت صورته راقصًا مع خديجة، فشعر بالفخر وبانتمائه لبلدة عرسال، وخطر على باله أن يبقى فيها، ويلغي سفره إلى القاهرة.

ظلّ سعيدًا وفخورًا ببقائه ساعة، وشعر بطمأنينة نسبيّة، لولا تصفّحه مواقع الشبكة العنكبوتية، ولاحظ ازدياد أخبارها عن مؤتمر جنيف ومؤتمر القاهرة، وقد بدأت هذه المواقع تتحدث عن حكمة الذيب، وتعقّل ماهر، و... وعن قبول المعارضة السورية بمرحلة انتقالية شريطة أن تكون قيادتها شراكة مع السلطة السورية؛ باستثناء من تلوثت يديه بالدم والمال الحرام، مع بقاء بشار الأسد رئيسًا للجمهورية.. اكتأب من جديد، وانكفأ نحو داخله الذي امتلأ بالحقد والانتقام من أولئك الذين يتاجرون بدماء السوريين، واشمأزّ من سيرة الذيب ابن شطمة القادر على تغيير لونه كالحرباء، واستعاد جانبًا من حياته في كهولته.

الحريّةُ جهادٌ، وهي الجهاد الأكبر في حياتنا

(كمال جنبلاط)

أُهمل الذيب ابن شطمة بعد تقدّمه في العمر، وقررت فروع المخابرات أنّه لم يعدْ نافعًا للسلطة، أقيل من وظائفه، وامتنعوا عن تكليفه بمهام، فأصبح يشعر بفراغ لم يعتد عليه، خاصّة أنّه بقي وحيدًا، من دون زوجة أو أبناء أو أهل.. بات يمضي أكثر أوقاته في لعب الطاولة في مكتب حمود، ثمّ انشغل بإدارة جمعيّة سكنيّة.

امتدّت رقعة الثورة في أنحاء سوريا، وحين بدأت المظاهرات في أم الإبر، لم يجدوا أصلح من الذيب ابن شطمة للاتصال بشيخ أمّ الإبر؛ ومناقشته في أمر شباب يجتمعون في جامع أمّ الإبر، ويشتركون في مظاهرات مناطق أخرى، وكان اسم أحمد وابنه يحيى وسلمى وعمر والعاملون في مركز الدراسات الثقافيّة من الأسماء؛ التي طُلب منه تداولها مع الشيخ بصفتهم محرّضين على قيام المظاهرات.

تداول الذيب مع الشيخ المواضيع، التي أُمر بتداولها معه، ثمّ حثّه على استدعاء أحمد لردعه عن المشاركة بالاحتجاجات والمظاهرات، وحين سأله الشيخ عن أدلّته، أخرج الذيب من جيبه بضع صور التقطت لأحمد قرب السفارتين المصرية والليبية وفي مظاهرة الجامع الأموي وأشير بأسهم إليه وإلى كوثر ويحيى وسلمى وعمر وبقية شباب مركز الدراسات، ثمّ أخرج من جيبه الموبايل، وقال:

- تفضل يا شيخ هذا حسابه على الفيسبوك، وهذه صوره، يتباهى بابنته أنّها تخرج مع الشباب في المظاهرات، صفحته كلّها تحريض على الوطن من دون استحياء أو وجل، كأنّ البلد فلتانة وسائبة له ولأمثاله.

- نحن لا نقبل خروج بناتنا في المظاهرات، حتّى لا يحدث اختلاط – لا سمح الله – وأنا سأردع أحمد وأهل بيته، وأخبر القيادة أنّني سأطبق كلّ ما تأمر به، قال الشيخ للذيب متودّدًا.

ثمّ أسرّ الذيب للشيخ، بأنّ أحمد وجماعته يخطّطون للانطلاق بمظاهرة من جامع أم الإبر، وأخبره عن موعدها وعن مكان تحرّكها:

- ينوون إشعال شموع على أرواح الإرهابيين؛ الذين تمكّن منهم الجيش وقتلهم في مدينة دوما.

- لا.. لن نسمح له بالتحرّك، اترك الموضوع عليّ، بإمكاني أن أجبره على عدم القيام بأي عمل يسيء للحكومة، وأثنيه عنه، وفيما يختصّ بالجامع؛ فأنا مستعد أن أرسل شبابًا يحمونه من أي شغب.

- وفقك الله يا شيخ.. طمأنتنا؛ لأنّ بعض المغرضين أوصلوا خبرًا للقيادة، أنك تشجع وتحثّ على المظاهرات، قالها الذيب مستنكرًا، فأبدى الشيخ استغرابه:

- أنا؟ لا سمح الله، أن أكون مع صبيان لا يعرفون ما الذي يفعلونه! ودّع الذيبُ الشيخَ بعد أن تعانقا، وربت على كتفه قائلًا:

- اعتمادناعليك يا شيخ، ساعة يهدأ أحمد وعائلته وجماعة مركز الدراسات تهدأ أم الإبر.

- توكّل على الله يا دكتور، ووصّل سلامي إلى المسئولين، الله يحميكم.

ثمّ أوكل للذيب الاجتماع مع رئيس البلدية وأمناء الفرق الحزبية ومجلس إدارة جمعية التراث، في مقرّ الفرق الحزبية، بحضور ممثلين عن الفروع الأمنية؛ حيث أصبح لكلّ منها مفارزه في أماكن متفرّقة من أم الإبر، وبعد أن شرح الذيب ابن شطمة أبعاد المؤامرة الخارجيّة التي تحاك لسوريا وحزبها ورئيسها، فّتح باب الأسئلة، فطرح الصحفي الجنوبيّ ضرورة محاورة المحرّضين، فوقف د. نبيه منزوعيا، واتهمه بالجنون:

- كيف تحاورهم يا أستاذ، هؤلاء أرسلتهم إسرائيل والسعودية؛ ليقتلونا، ويمصّوا دمنا، إذا ما كنّا بقدر حجم المصيبة؛ التي حلّت بالبلد نكون انتهينا، ثم تبعه ضابط مخابرات:

- كأن الرفيق لم يسمع تدخّلات الأمريكان؛ لينهوا جبهة الممانعة، ويسقطوا المقاومة، ودارت

حوارات، جلّها تؤكّد على مجابهة المتظاهرين المتآمرين، وكلّ من يعلن معاداته للسيّد الرئيس والوطن والمقاومة، وقبل أن يختتم الاجتماع، رفع الذيب شعارًا كان ينتشر في أوساط الشبيحة:

- "الأسد أو نحرق البلد" يا رفاق لن نسمح للأخوان المسلمين بالتحرّك، لأنّهم سينتقمون من كل أصحاب الدولة، لن نتخلى عن السلطة لشرازم المتظاهرين والمتآمرين، هؤلاء الذين يخرجون مظاهرات

قابضين ثمن تخريبهم بالدولار من قطر والسعودية وتركيا وأمريكا... ثمّ اختتم الاجتماع، ودعا د. نبيه منزوعيا لإلقاء قصيدة من ديوانه الجديد، وحينما أطال في زمن الإلقاء غادر كثير من المجتمعين الصالة، ووزّع على من تبقى نسـخًا من ديوانه، أخذه بعضـهم، وآخرون تركوه على طاولة الاجتماعات، والوحيد الذي طلب منه كتابة إهداء على نسخته كان حمود.

انبثق عن الاجتماع لجنة أمنيّة، أخذت على عاتقها ملاحقة المتظاهرين، وتنظيم لجان المقاومة الشـعبيّة، وتسـجيل أسـماء من يحقّ له حمل السـلاح من الحزبيين؛ إذ أحصـوا أكثر من أربعمئة، جلّهم من زعران الأقليات وصـبية المكاتب العقارية ومخبري الفروع الأمنية، واقترحوا تسـليحم السـريع وإقامة دورت تدريبية لاسـتخدام السـلاح، وأن يكونوا عماد المواجهة مع المتظاهرين، كما اُختيرَ ماهر قائدًا لتلك المقاومة التي أسموها: اللجان الشعبيّة.

***

لبّى أحمد دعوة شيخ أم الإبر، وطلب من أخيه عمر مرافقته، وحين مصافحته حاول الشيخ رفع يده تّجاه فم أحمد ليقبّلها، فأخفضـها له بعنف، ثمّ جلس بمواجهته، تأوّه الشـيخ، ثم سـأل أحمد عن أحواله وأحوال أهل بيته، وترحّم على سلفه الصالح، وأبدى تأثّره؛ ممّا يجري في البلاد من أحداث خطيرة، قائلًا:

- وراء هذه الأحداث قوى خارجيّة خطيرة يا أستاذ، يريدون تخريب بلادنا، فكلّفوا من يخرج على الحاكم؛ لإشعال نار الفتنة، دُهش أحمد وقال له:

- يا شيخ، حين وصلتني دعوتك خمّنت أن لك رأيًا مؤيدًا الثورة على الظلم والقهر والجوع، وأعرف أنّك طوال عمرك تدافع عن المظلومين والفقراء، لكن ما أسـمعه منك تأييدًا للسـلطة الظالمة، واجترارًا لكذبهم أنّ مؤامرة خارجية تستهدف رئيسهم وممانعته المزعومة.

- لا يا أستاذ أحمد أنا محايد، لكنّ الله لا يحب الفتنة والمفتنين، وأخبروني أنك تشارك في المظاهرات، وأنا لم أصدقهم، أعرف أن عقلك كبير.

- والله يا شيخ أنا أشارك مع كل من يقف ضد الظلم، وهذا الجيل ثار على الطغاة المجرمين، لذلك أنا أنحني إجلالًا لأبنائه،... وقبل أن يكمل قال له الشيخ:

- يا أسـتاذ أحمد لا تكمّل، أخبروني أنك مع جماعتك عقدتم العزم على التظاهر ضـد الحكومة من الجامع، وحدّدوا لي خريطة طريق سـيرها، وهذا أمر خطير، لتلغها فورًا، حتى لا يصـطدم أهل حي أم الإبر مع بعضهم بعضًا، رضي الله عنك.

- والله يا شيخ.. هذا الموضوع بأيدي منظّميه من الشباب، وأنا لا أعرف من هم.. وحتّى لو عُرفوا لا يسـتطيع أحد أن يثنيهم عن عزيمتهم، والله كانت النيّة أن يتظاهروا بعد صـلاة الجمعة في الجامع، ولكنّهم

لاحظوا في الأمس وجود كثرة من المسلّحين، جلبوا من مناطق الأقليات، وقد شوهد بضعة أشخاص من أقربائك يا شيخ، فأجّلوا التظاهر.

- أمستغرب أنت يا أحمد؟ نحن من أرسلناهم، ووافقنا على جلب أكثر من مئتي شاب مع سلاحهم؛ لنمنع أي تحرّك يثير الفتنة، فردّ أحمد:

- لكن هذا حرام وعيب يا شيخ؛ حرام لأنك تناصر الظلم والفساد، وعيب لأنّك تسهم أنت بإشعال الفتنة مع النظام؛ الذي يقتل الناس، ويعتقلهم، ويدمّر بيوتهم؛ طمعًا بتسيّده على أبناء الوطن والإمعان في سرقتهم، إضافة إلى نشره الفساد والجهل والموت بينهم.

- العيب والحرام فيك يا أحمد، انظر إلى حالك، كان الله بعون أمثالك، وإياك أن تخرج على الحاكم، أو تشترك بالتظاهر، وإذا خرجت سيحلّ عليك غضبي وغضب الله.

- ....

أطبق صمت على المكان، ثمّ التفت أحمد نحو عمر، فوجده واضعًا وجهه بين كفيّ يديه، ولا يقدر أن يمسك نفسه عن الضحك، فقال له أحمد:

- أتضحك يا عمر؟ ألم تسمع الشيخ؟ والله، إنّ كلامه يحطّ العقل بالكف! أتضحك بدلًا من أن تبكي على شيوخ مخبري آخر زمن، فردّ الشيخ عليه:

- إذا كنت أنا مخبرًا أحسن من أن أكون مشعل فتنة مثل حضرتك، أنا أحذّرك يا أحمد، إياك أن تقترب من الجامع أو ساحة أم الإبر،...

- أنت تحذّرني، يا شيخ الضلالة، يا مخبر، والتفت نحو عمر، وانتشله من مقعده وقال له:

- هذا البيت لا يمكن الجلوس فيه، ثم عنّفه قائلًا:

- اصمت يا عمر، كفاك ضحكًا، توقّف عن الضحك يا أخي.. وامشِ قدّامي؛ لنرجع إلى دارنا، فقال له الشيخ:

- الله لا يردّك، ظننت أنك صرت عاقلًا بعد السجن، لكن تبين لي أنّ بقية العقل التي معك، انتزعوها منك.

من دون أن يلقي تحية الوداع خرج أحمد، وهو يشتم الشيخ، ويجرّ عمر، الذي استمرّ في الضحك من دون أن يستمع لما يقوله أحمد.

وصلوا إلى الدار الكبيرة، فوجدوا الذيب مع أعضاء مجلس إدارة جمعية التراث بحضرة الخال سعيد المتوكئ عصاه، وبضعة رجال تقدّم بهم العمر من أهل الدّار الكبيرة في قاعة الضيوف، دخل أحمد وعمر،

فسكت الجميع عن الحديث، ولكن الخال سعيد الذي بدا عليه الوهن نتيجة كبر سنّه قطع صمتهم، وقال لأحمد:

- وصلت بالوقت المناسب يا خال، ومن الجميل أن يكون معك أخوك عمر، تفضل اجلس،...
- أنا لا أرغب في الجلوس، تفضل احك ما عندك.
- الشباب يقولون: إنك تقوم بتنظيم المظاهرات ضد الحكومة، وهم مكلفون أن يبلغوك بضرورة التوقّف عن نشاطك.

ظهر الغضب على محيا أحمد، وبصوت خطابيّ قال لهم:

- بعدما أن اغتال قائدُكم الممانع كمالَ جنبلاط في عام 1977م، حفظت من الفلسطينيين وشرفاء اللبنانيين مقولته: "الحرية جهاد، وهي الجهاد الأكبر في حياتنا"، وها أنا أجسدها فعلًا، والله لن يثنيني عن متابعة درب الحرية الذي يقوده شباب أبطال سوى الموت، أنتم تناصرون الظلم والقهر والفساد والطائفية المقيتة، بل تسهمون فيها، لم يعد أحدٌ يتحمّل سياسة الموت التي تطبقونها، وتعرفون أنّ: "الله ينصر الدولة الكافرة بعدلها على الدولة المسلمة بمظالمها" كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، أنتم لستم رجالًا، أنتم لستم رجالًا... وغصّ أحمد، وانتفخت أوداجه، وتغضنت ملامح وجهه، وانفجر باكيًا، مما جعل د. يحيى يتقدّم، حيث كان يراقب الموقف من خارج القاعة، تقدّم نحو أبيه، وطلب منه أن يسمح له بالإجابة إنابة عنه، فأومأ له بالقبول:

حكى يحيى عن حراك الثورة وعن طاقات الشباب والنساء، ونصحهم بأن يغيّروا مسار تفكيرهم؛ لأن الثورة منتصرة في نفوس شبابها، وستنتصر مثل كل ثورات التاريخ، ثمّ أيّده عمر وذلك بتدخله وإسكات أي سفيه من جمعية التراث الثقافيّة، الذين لم يتمكّنوا من مواجهة هدوء يحيى وحججه القوية؛ التي جعلتهم يطلبون المغادرة، فاستمهلهم الخال سعيد، وخرج يحيى برفقة أبيه، أمّا عمر ففتح باب القاعة على مصراعيه، قائلًا لهم:

- الله معكم، تفضلوا من غير مطرود، ليس باستطاعة أحدٍ سماع وطنياتكم الكاذبة.

63

استيقظ أحمد مبتسمًا، وحين دعته خديجة للإفطار، سألته:

- يافتاح.. يارزّاق، على غير عادتك تستيقظ من دون عقدة الحاجبين، ما الخبر أستاذ؟

- والله يا ديجة، منذ أمس خطر على بالي شيخ أم الإبر، ولم تفارقني صورته، فهي ماثلة أمام عينيّ، حين طردني من بيته، كانت ذؤابتا شاربيه تتحركان على غير اتساق مع تموّجات لحيته الكثّة؛ التي لم يقرّب منها مقصًّا منذ أطلقها حرّة وهو صبيٌّ.

- ولكن هذا لا يضحك يا أستاذ!

- صحيح يا ديجة، ولكن عندما تعرفين كيف شتمته له وللسلطة بشتائم سوقيّة، أمام عمر الذي لم يستطع أن يتوقّف عن ضحكه المستمر، تعرفين حينها سرّ ابتسامتي.

ثمّ نهض واقفًا، ولم يسعه الوقت للاستحمام، فالفطور كان جاهزًا، ابتسم للشباب الموسيقيين الحماصنة؛ الذين أعدّوا الإفطار بأنفسهم للمقيمين في الشّقة كلهم، وجلس وسطهم، وكان واحدٌ منهم بعمر يحيى، والآخران أصغر ببضع سنوات، وفي أثناء تناولهم الإفطار صار يخبرهم عن الحلم الذي أيقظه، وموقف الشيخ المضحك المعترض على نشاط سلميّ لشباب أمّ الإبر في مطلع الثورة، وحكى لهم عن أخيه عمر الذي لم يتمكن من التوقّف عن الضحك.. ثمّ قال لكبيرهم:

- أنت بعمر ابني يحيى أظن، أما أنتما فأصغر بنحو عشر سنوات على ما أظن؟

- صدقت يا أستاذ، فأنا صار عمري ثلاثين سنة، وهما أصغرهما يصغرني بعشر سنوات، ومحمد بثمانٍ.

- يعني أنت تكبر يحيى بسنة ونصف تقريبًا؟ سألته خديجة:

- ما هو دور ابنك يحيى بالمظاهرات عمو أحمد؟

- ....، صمت قليلًا، وأوجز:

- كان له دورٌ فعّال... وقبل أن يسمع سؤالًا آخر، اعتذر إلى الجميع، وغادر إلى غرفته، تمدّد على سريره، وحين دخلت خديجة لإخراجه من اجل الفطور، خاطبها جادًّا:

- يا خديجة، اخرجي، ولا تسمحي لأحدٍ بمواجهتي، حتّى أخرج لوحدي.

- ولكن يا...

- لا تكملي يا خديجة، واخرجي.

وسرعان ما رجع إلى ذكريات الألم، كان يتساءل عن مصير يحيى في سجنه، "أأنت حيٌّ يا يحيى؟ أم قتلوك أهل الشرّ والعيب؟ ماذا فعل يحيى لسلطة الموت؟ أيستحقّ هذا الجزاء بعد معاناته وتعبه في إعداد نفسه؛ ليسهم في بناء وطنه؟ ألم تكن مخطئًا يا يحيى؛ حينما رجعت بوازع محبتك للوطن؟ لمَ لمْ تفرّق بين الوطن وسلطة مغتصبة، بين الثورة والسياسة، بين الحبّ والعهر؟ أكنت مخطئًا عندما انتظمت في اعتصام الشموع في حي أمّ الإبر مع أصدقائك؟ وفي إرسالكم دعوات على الفيس بوك.. أصدقاؤك الذين تحبهم ويحبونك، أصدقاؤك الذين نشروا هاشتاج مسيرة الشموع؛ حتّى هيمنت على صفحات التواصل الاجتماعيّ.

تجاسرت خديجة طالبة الثانويّ، قرعت الباب، واقتحمت عزلته، ودعته لطعام الفطور مرة أخرى، قائلة:

- لماذا تريد أن أشعر بالذنب لأنني سألتك عن يحيى، والله العظيم.. لن يتناول أحدٌ لقمة من دونك يا أستاذ! اقتربت منه، تجرأت وأمسكت به، ودفعته دفعًا إلى حيث الفطور موجود.

لا يساوي النصر الناتج عن العنف، إلّا الهزيمة

(المهاتما غاندي)

بعد جمعة الشهداء في دوما، التي استشهد فيها ستة عشر شهيدًا؛ حين طالبت الغوطة الشرقيّة بالحريّة والكرامة؛ بمن فيهم الهتّاف سالم الذي كان أحمد قد وثّق لحظات استشهاده، وُجّهت دعوات لمسيرة الشموع في أم الإبر، حدّدوا الساعة السابعة مساء من يوم الأربعاء موعدًا، وساحة الباب العتيق مكانًا؛ من أجل التعبير عن حزنهم على شهداء دوما وتضامنًا مع ثورة الشعب السوريّ، بل مشاركة في فاعلياتها.

انتشرت الدعوات لاعتصام الشموع بين أهل حيّ أم الإبر والأحياء المجاورة، وظهرت استقطابات حديّة بين الشبيحة وشباب الثورة على صفحات التواصل الاجتماعيّ وفي المدارس، ولكنّها لم تظهر بشكلها الخطر؛ عند بداية الاعتصام.. فمئات الأشخاص الذين لبّوا الدعوة تضامنًا مع شهداء دوما، كانوا من الطلاب والنساء، حملوا شموع الحزن ووقفوا في زاوية قرب الباب العتيق، شرق الساحة، أما الفريق الآخر – فأيضًا – بلغ عددهم المئات المكوّنين من دوريات المخابرات ومن أعضاء الفرق الحزبية وأصحاب المكاتب العقارية وصبيانهم، الذين جمعتهم كلمة شبيحة وفي وسطهم شيخ أمّ الإبر ومخاتيرها، رافعين صور رئيسهم، وقد تجمهروا في الجانب الغربيّ للساحة.

ازدادت أعداد الشموع في الجانب الشرقي للساحة؛ لاسيّما لحظة وصول منتهى الأطرش، تحلّق حولها عشرات من الشباب ونساء حي أمّ الإبر، ثمّ جاء من أوعز لأحمد بمقابلة الشيخ، فرفض بشدّة، واحتدم الموقف إلى أن صدح صوت الشباب:

- اسمعوا صوت الحرية من الغوطة الأبيّة... وذلك في اللحظة نفسها، التي كان عشرات الشباب يضعون الشموع وسط الساحة، فهاجم الشبيحة والمخابرات شباب الثورة، وأطفؤوا شموع أحزانهم بوقاحة

ووحشـيّة، وتمكّنوا من الاعتداء على حملة الشـموع من النســاء والشـباب، ففرّوا إلى اتجاهات متعدّدة، وبقي أحمد مع منتهى الأطرش وقلة من الكهول؛ الذين استطاعوا تحييد أنفسهم عن جموع الشبيحة الهائجة.

أدانت منتهى هروب الشباب من أمام الشبيحة، وشعر أحمد بالخجل والإهانة والخزي تّجاه هروبهم، صمتا في السيارة التي أبعدتهما نحو شارع الجلاء، وهناك لاحظا وجود تجمعٍ، وكانت أصوات شباب الحرية تصدح من جديد، ركن أحمد سـيارته، ونزل مع منتهى، واتجها نحو تجمع المظاهرة، وقبل أن يصـلوا كانت دوريات المخابرات، قد حاصـرت تجمّع الشـباب، وفرّقت المظاهرة من جديد، وقاموا باعتقال بضـعة شـباب، وتمكّن الآخرون من الهرب، فتوجّه معظمهم نحو شــارع الشـيخ عربي، الذي يقع فيه الجامع الكبير، وهناك اخترقت أصواتهم السماء:

"الله، سوريا، حرية وبس،

أم الإبر نحن رجالك، الله يلعن خوانك"

وبعد دقائق عارمة من نداءاتهم العطشى للحرية والكرامة، توجّهت عليهم بنادق الشبيحة، والقناصين؛ الذين كانوا على أســطح البنايات على جانبي الشــارع، وأطلقوا الرصــاص الحيّ، ففرّ الشــباب من جديد، ولكن المخابرات اعتقلت بضعة منهم، وأودعوا المعتقلات.

لم يتمكّنوا من اعتقال أحمد؛ إذ كان قد لاذ في زاوية مهملة، ثم أدخله صاحب محل إلى محلّه، وأغلقه من الخارج حماية له، أما منتهى فقد حماها شـباب لبّت دعوتهم إلى منزل أحدهم، وكانوا من الأحزاب السـياسـية التي تدّعي التقدميّة، من الذين حاولوا ركوب موجات حراك الثورة، فظنّوا أنهم قادرون على تلميع صــــورتهم وسيرتهم تحت سمعة منتهى الأطرش ابنة قائد الثورة السورية الأولى.

بقي أحمد في داخل المحل، ثمّ ســمع هتافات الشــبيحة، فاقترب من الباب، وشــخص نحو مظاهرتهم، وأصاخ السمع، كان يتقدمهم الذيب ابن شطمة ونبيه منزوعيا وماهر، وردّد صبية حمود؛ الذين كانوا يتناوبون الهتافات مع شبيحة ماهر:

"طاء طاء طاءية   كس أخت الحرية

طاء طاء طاءية   نحنا رجال الأسدية"

خرج أحمد موارية، وقاد سيارته نحو الدار الكبيرة، وهناك، حوصر بملامات أبناء عمومته وبكاء أمّه، كما وقفت المظاهرة المؤيّدة للسلطة أمام بوابة الدّار الكبيرة، وهم يهتفون:

"حلّك يا الله حلك، حطّ الرئيس محلك"

- هؤلاء الســفلة، والله إنّ غاندي لم ينطق ســوى الحقّ، حينما ســوّى بين النصــر المبني على العنف والهزيمة، كان أحمد يقول لأهل الدّار؛ حين وصل من أخبره:

- المخابرات في مركز الدراسات مع الشبيحة ينهبون محتوياته.
- ومن يوجد في المركز؟
- لا نعرف، فنحن راقبنا حركاتهم عن بعد.

همّ بالذهاب إلى المركز، فمنعه الشابان اللذان أخبراه:

- في الطرف الآخر للدار، قرب سيارتك، دورية مخابرات أغلب الظنّ أنّها تنتظر خروجك؛ لتعتقلك، فسأل أحدهما:
- هل تستطيع التأكّد؟

بعد دقائق تأكّد أحمد من وجود عدّة من دوريات حول الدار، أخبر الموجودين من أهله وأقاربه؛ فتفرّقوا.. منهم من خرج وشغّل سيارته وتحرّك بها، ليعيق حركة سيارات المخابرات، وآخرون تجمعوا أمام حركة السيارات، حتّى استطاع أحمد من الخروج كالبرق نحو سيارته، وقادها بسرعة فائقة، لحقت به إحدى سيارات المخابرات، ولكنّ حركتها تعثّرت قليلًا؛ نتيجة وقوف سيارة على ناصية الطريق، اتّجه أحمد نحو حيّ الميدان، وهناك توارى في بيت أحد أصدقائه؛ الذي عدّ من بيوت الثورة الآمنة، وبات يتحرّك خارج حيّ أم الإبر، ولكنّه سرعان ما عرف أنهم اعتقلوا أخاه عمر، فاختفى حتّى أفرج عنه بعد أسبوعيْن.

***

ضعفت فاعليات يحيى المؤثّرة؛ فقد كان لا يزال منهمكًا في أبحاثه بمتحف دمشق التاريخيّ، وفي تنقيبه عن مخطوطات في دار أبي إبراهيم البكري، ولكنّه لم يتوان مرّة عن تدريب شباب الثورة على التصوير وعلى كتابة تقرير صحفي أو مصوّر، وعن مشاركته في مظاهرات سلمية، أو تسليم مساعدات طبية وإغاثيّة وغيرها، إلى أن داهمت دوريّة مخابرات مكان تواجده قرب الدّار الكبيرة، واعتقلوه، وبعد نحو أسبوع أُعتقل أحمد عن طريق وشاية أحد المأجورين الذي كان يشتغل في مقهى مجاور.

في سجن المخابرات العسكرية، الفرع 256، الكائن في المربع الأمنيّ قرب كفرسوسة، التقى أحمد بابنه يحيى في المعتقل.. احتضنا بعضيهما لبضعة أيامٍ في ذاك المهجع الرهيب، كان أكثر من ثلثي المعتقلين، لا يجدون مكانًا للوقوف بشكلٍ سويّ، ممّا أدّى إلى تزايد حالات الجنون أو الموت فيه يوميًّا، كما شاعت حالات الاستحواذ على أمكنةٍ مستقرّة لأشخاص ذاع صيتهم بصفتهم معارضين وممثلين للثورة؛ بحجة أعمارهم المتقدّمة، كما كانت الشجارات بين المعتقلين الشباب على ماء أو أكل أو حيّز مكانيّ، لا ينهيها إلاّ أكبال الجلّادين؛ التي تنزل على أجسادهم وسط عويلهم وصراخهم.

في ذاك المهجع الذي وُجد أحمد ويحيى فيه مع أكثر من 900 معتقل، باح يحيى لأبيه بكلّ ما كان يقلقه ويعذّبه.. كان يصمت أمام ما يرويه، وكان يلوم نفسه على ابتعاده عنه، متسائلًا: "هل تستحقّ الحياة عناء

السجن بعيدًا عن الابن والأحبة فداء لشعب نصف كهوله وشيوخه راغبون في النهب والغشّ والكذب، والنصف الآخر مذعن وراضٍ بالذلّ والقهر؟

لم يعف أحمد نفسه من المسؤولية لحظة سماع يحيى:

- أتذكّر – يا بابا – تلك اللحظات – ولا أزال أنا الذي تعدّى عمري السابعة والعشرين عامًا – الواضحة كسطوع الشمس، وأنا أرتعش خوفًا من ذاك الموقف، الذي أعادني إلى أكثر من مائة عام انقضت؛ إلى وقائع أذكرها، كما لو كانت قد حدثت معي في أيامي الحاليّة.

***

روى يحيى لأبيه – في ذاك السجن الرهيب – وهو يحتضنه في أقسى حالات القهر والأسى الوقائع الغريبة عن حياة سابقة له؛ انقضت قبل أن يولد، مؤكّدًا له محاولته الهروب منها كثيرًا، ولكن إلحاح وقائعها على ذاكرته أقوى من قدرته على نسيانها، وأردف يحيى:

- منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأنا منغمر بأحزاني نتيجة خيبات عشتها مع أهلي في بيت قوفا، أتذكر طفولتي فيها، ونشأتي في حي قنوات بدمشق، وزواجي من أم الإبر وموتي فيها.

استبدّ الحزن على يحيى، وغاص أحمد في حيرة من أحوال ابنه، ولكنّه ظلّ متماسكًا مشجّعًا إيّاه على البوح: "بُحْ بكلّ ما تريد قوله يا يحيى، كلّي آذان مصغية لك".

- "أنا عربي الصالحاني، فارقت حياتي السابقة منذ نحو 90 عامًا، وها أنا ذا – الآن – تجاوزت السابعة والعشرين عامًا، أعيش نصف ميّت، لم أجد من أبوح له بقصة تقمّصي سوى جدتي أم سليمان جزئيًّا، وصبيّة اسمها روز التقيتها في متحف دمشق بعد عودتي من الولايات المتحدة.. كنت توّاقًا للبحث عن وثائق ومخطوطات تثبت معرفتي لحياتي السابقة، وروز ابنة تلك الدار التي رُبّيت في كنفها، وهي ما تزال تقطن في الزقاق نفسه في حيّ القنوات؛ زقاق الحمراوي الذي عشت فيه نشأتي السابقة.. ولكنّ المخابرات لم تمهلني لإكمال حكايتي لها، اعتقلوني بعد أن رصدوا مشاركتي في مظاهرات جامع الحسن ومسيرة الشموع في أم الإبر، وهذا أنت يا أبي – ليس لي سواك – أكمل لك حكايتي، وأوصيك أن تتابع مع روز ما بدأناه سويّة...

كان يحيى تعبًا ومرهقًا جدًّا، وكان يحكي كأنّه مغيّب، وسرعان ما صمت عن الحكي، وانتبه أحمد أنّه أغمض عينيه، وأخذه النّوم منه.

64

أضحت معيشة أحمد ضنكًا، ولم يعد جسمه قادرًا على تحمّل المشقّاتً.. وبعد أن انتهى من الإفطار أخذ حمامًا دافئًا، وتدثّر بغطاء، وحاول النّوم، تقلّب في فراشـــه؛ إلى أن اســـتقرّ على جنبه الأيمن، وبعد أن غفا دخل إلى مهجع المخابرات العسكريّة، ثمّ بحث عن رأس يحيى؛ فوجده مستندًا على صدره، تحسّسه، استشعر ملمسه الخشن نتيجة بثور ظهرت على بشرة وجهه.. نهض من نومه كمن مسّته الشياطين، وعاش أضغاث أحلام: "تُرى ما الذي يجعلني حريصًـا على تذكّر ما سـمعته من يحيى في المعتقل عن الشـيخ عربيّ؟ أليس التقمّص جزءًا من المفاهيم الخُرافيّة؟ "أم نكصت عن درب العقلانيّة والعلمانية يا أحمد؟ أتقبل الخرافات؛ التي حيكت حول الشـــيخ عربيّ ومقامه وكراماته وبركاته؛ حتّى إنّ أهل أمّ الإبر، لم يتوقّفوا يومًا عن زيارة قبره، تبرّكًا بروحه الطاهرة، أتقبل كل ذلك كرامة ليحيى؟! ولِمَ تتناســى امتطاءك ضـريحه وتحدّيه، وخطابك له في حضرة مقامه: "حا حا حا... منذ كنت صبيًّا..."

ليس بمستطاعك أن تتخيّل تلاطم أفكار أحمد وهواجسه وعواطفه الهائجة في رأسه، أراد أن يبقى بجانب أحبته؛ الذين تعايش معهم في شقة عرسال وشباب تنسيقيتها، وأن ينتظر امرأته الجميلة القادمة من دمشق كوثر، وبنفس الوقت كان يتوق إلى مقاومة الأشـرار في مؤتمر القاهرة، وكان يتخيّل نفسـه – أحيانًا – مقاتلًا في بساتين الغوطة الشرقية على طريقة جيفارا.. ولكن كلّ ذلك لم يخرجه من كهوف ذاكرته المفعمة بالمآسي؛ التي كانت تدعوه للمحافظة على أدقّ تفاصـــيل محتوياتها، مما حفظته على مدى أكثر من نصـــف قرن مضـــى.. كانت نفســه تعيش في فضــاءات متناقضــة، كمن تعاورته الرياح من جوانب الكون كله، منها: ما ينفتح نحو آفاق لا نهائية يعيشـها مع ماري وثريا ويحيى وسـلمى...، ومنها ما يقف عند حدود الغوطة ثائرًا، أو في مؤتمر القاهرة سياسيًّا حاقدًا، أو سابحًا في فضاء الإسكندرية محبًّا، ومنها ما ينغلق على قبره في شقة عرسال.. تجربته المرّة مع ميسون وأقاربه الذين ضلّلوه في أم الإبر، أو في تجارب اعتقاله المتكرر في سجون سلطة نظام الحكم وسـجن التكفيريين له في الغوطة الشـرقية، ولعلّ تداخل العوالم المفتوحة والمغلقة، ومعاني العدم والوجود والغيب والحقيقة، العلم والخُرافة، الحداثة وما بعدها،... كان هو ما ســـمح للأمواج أن تتلاطم بين ضـلوعه، وجعله متسائلًا: "أأشرفت على دار المقام؟ أم ما زالت الحياة تليق بك مع خديجة وجيل ما بعد الألفيّة".

عاش أيامه في بلدة عرسال منتظرًا السفر؛ بين أحلام أو أضغاث أحلام، بين نوم ويقظة يطلّ منها على وجوده، بل يخوض في قلب الواقع الذي تمخّض عن ثورة.. كان ما ســـمعه من يحيى في ســـجن مخابرات

الأمن العسكري قبل أقل من سنة واقعًا مُعاشًا، بات حقيقة، وليس خيالًا.. كثيرًا ما تساوره نفسه – حاليًّا – في عرسال، وتدخله في حالة الرعب نفسها التي ساورته في السجن؛ حينما شرع ابنه يحيى في سرد قصّة الشيخ عربي قبل أكثر من قرن مضـــى، ذاكرًا أدقّ التفاصـــيل، وعلى الرغم من حيرة أحمد ومخاوفه وشـــكوكه من إصـابة يحيى بمرض الفصـام الزوري النفسـيّ، فقد صـمت أمامه؛ لينهي حكايته عن حياته السـابقة، منذ كان اسـمه (ضـائع) في بلدة بيت قوفا وتحوّله إلى الشـيخ عربي، كان يسـمعها من فم يحيى؛ الذي اسـتحوذ على روح ذلك الشيخ.. وبعد أن بكى وحيدًا على ابنه يحيى مجهول المصير وهو في غرفته المعتمة ببلدة عرسال، استعاد الحكاية في عقله متأمّلًا في وقائعها الغريبة، وهو على فراش النّوم.

المكان الذي لا يؤنّث، لا يعوّل عليه

(محيّ الدين ابن عربيّ)

كان ضـــائع طفلًا نقيًّا، ولد في كنف أســـرة فلّاحية مؤلّفة من أربعة أبناء وأربع بنات، وكان أبوه فلّاحًا مرًّا في بلدتهم بيت قوفا، يخرج منذ الفجر إلى حقله مصـطحبًا معه ولديه الكبيرين هاني وسـعيد، مسـلّحًا بزوّادة طعام، يتناولون محتوياتها في أثناء استراحتهم لحظة اشتداد قيظ الشمس فوق رؤوسهم، بعد لجوئهم إلى ظلال أشـــجار الجوز الوارفة، وكانت أمّه ترعى أبناءها وبناتها في دارهم الواســـعة، التي يشـــاركهم فيها اثنان من الأعمام مع أبنائهما.. كان لكلّ واحد من الإخوة غرفتان، أمّا قاعة الضيوف الكبيرة والمزدانة بالثريّات والسجّاد العجميّ والمخدّات المصنعة من أقمشة الفرش نفسها، فكانت مشتركة لأهل الدار، فالجميع من الأقرباء كانوا يلتقون بعد صلاة الجمعة في القاعة الكبيرة؛ الواقعة قرب دهليز معتم متّصل بالبوابة الخارجيّة المتضمّنة بابًا صـغيرًا يدخل منه أهل البيت؛ مضـطرين لخفض رؤوسـهم، كلما دخلوا أو خرجوا منه بسـبب تصـميمه الموائم لانخفاض سـقف انفتاح أفراد العائلة على الغرباء، كما أن الدّار احتوت على مطبخ مشـترك منزوٍ في الطرف الشـرقي لأرض الدار، وبجانبه حمّام تتناوب نسـاء الدار على اسـتخدامه، وأرض دار يتصـدّرها إيوان مرتفع؛ لقضاء سهرات الصيف فيه.

كان ترتيب مواعيد اســـتخدام كلّ من الصـــالون والمطبخ والحمّام وأرض الدّار مع الإيوان وتنظيفها مثار خلاف دائم بين نساء الدّار اللواتي، لا يتوانين عن توجيه الصفات البذيئة بحقّ بعضـهن بعضًا، وهنّ يلوّحن بالمكانس من فوق رؤوســـهنّ؛ لا سـيّما إبان غياب رجال الدّار في بســـاتينهم أو في مناسـبات عزاء أو فرح؛ تختصّ بأهل القرية.

بعد وصول الأب وابنيه مساء من بستانهم، كانوا يغتسلون ويؤدّون صلاة العشاء، ثمّ يتناولون الطعام مع جميع أفراد الأسرة؛ متحلّقين حول مائدة عامرة أعدتها أم هاني بمساعدة بناتها طوال النهار، ثمّ يتوجّه بعضهم إلى النوم، ويقرأ الأب القرآن بحضور زوجته وبعض من أبنائه وبناته في القاعة الكبيرة.

وكانت أم هاني حاملًا في تلك السنة، ولم يتبق لموعد ولادتها سوى أيام قليلة، ثمّ شعرت بالإرهاق الشديد، وكان ذلك إيذانًا باقتراب موعد ولادتها.

لمّا اشتدّ عليها التعب في أثناء يومين، استكانت في فراشها متألّمة كثيرًا، وتناولت وصفات الأعشاب كلّها؛ التي كانت سائدة في تلك الأيّام في قرى ريف دمشق، مثل: مغلي الحلبة والبابونج البرّي وحبّة البركة وصولًا إلى بول الإبل، وأصناف الطب النبوي والأدعيّة والحجامة والتليينة وصولًا إلى الكي، ولكن من دون ظهور أيّ تقدّم في صحتها؛ بل كانت تزداد سوءًا، فأهمل أبو هاني شغله في بستانه، واضطر للجلوس إلى جانبها، ومع ازدياد معاناتها، استأجر عربة خيل، وتوجّه إلى دمشق محضرًا بعد بضع ساعات طبيبًا يهوديّا اسمه فرج فارحي، وكان معروفًا لأوساط فلاحي الغوطة بقدرته على معالجة حالات المرض الصعبة، ومشهودًا له بالحرفيّة الشديدة والشطارة، وصل حاملًا في يده حقيبته القماشيّة المزركشة بخيوط فضيّة، إلّا أنّه بعد وصوله وتهيئة أم هاني؛ التي أصبحت تئنّ ألمًا في فراشها، ومعاينته حالتها، خرج ولم يبشّر بالخير، ثمّ طلب إحضار داية القرية فورًا؛ ليشرف على ولادتها؛ بعدما لاحظ أعراض مخاض ولادة عسيرة، وبدأت الداية في تحضير أدوات التوليد والمياه الساخنة والمناشف، ثمّ أعطاها الطبيب اليهوديّ بعض المعقّمات، التي أحضرها معه وأقطانًا جديدة، وألقم أم هاني أدوية وأشربة؛ لمساعدتها على الولادة، ثم جالس زوجها في الإيوان المتاخم لغرفتها، متلهفًا سماع أخبار المريضة من نساء يدخلن ويخرجن، وأصبح يطلق التعليمات اللازمة في عصبيّة، وحين يتلقى أخبار السوء من النساء الخارجات، كان يتصبب عرقًا، ويصرخ بهن أن يلتزمن بتعليماته:

- هل أُعطيت جرعة الدواء كما أوصيت؟
- لا يا دكتور لم تتقبّل فتح فمها، فيصرخ بهنّ:
- ادخلوا وأعطوها الدواء يا بهائم، مهما حصل.. بسرعة،...

ثم يرجعن ويقلن: إنهنّ فتحن فمها عنوة وحقنَّ الدواء في فمها، وكان يهمّ في الدخول لإنقاذها من موت تنبأ به بينه وبين نفسه، بعدماعاينها لحظة وصوله، ولكن مجرد ورود ذلك على خاطره، كان يرتعد خوفًا من أبي هاني القابع جانبه؛ فلابدّ أن يسيء الظنّ به؛ طمعًا في الاطّلاع على جسد زوجته.

بعد بضع ساعات من الآلام، التي رافقها صراخٌ اقشعرّت له الأبدان؛ نتيجة عذاباتها في مخاض عسير، وبعد أصوات الداية والنساء لتفتح فخذيها وتباعد بينهما ليخرج مولودها، ساندات ظهرها بمخدّات، لفظت أمّ هاني مولودها من رحمها.. كان لونه أزرقَ، وعيونه مغمضةً، ولم يصدر أيّ صوت، تلقّفته الولّادة من بين الدم الذي فاض على الفراش وعلى أرض الغرفة، وحرّكته؛ حتّى أخرجت ماء من فمه، ثمّ أطلق صرخة تقبّله الحياة في اللحظة نفسها؛ التي تهاوى رأس أم هاني خلفًا على وسادتها متوقّفة عن الحركة، ساد صمت

رهيب، فجأة، على المكان، سوى من بكاء الوليد الجديد؛ الذي حملته الداية.. لم يتلقّظ أحدٌ ببنت شفة سواء في داخل الغرفة أم خارجها، ثمّ نظر أبو هاني نحو الطبيب اليهوديّ يستغيثه.

لحظات حزن مضت؛ كأنّها دهرًا، قطعها الطبيب اليهودي؛ منذ استقام من كرسيه، وتوجه – لا شعوريًّا – تّجاه باب غرفة أم هاني، وقف بمواجهة الباب، ووضع يده على جبهته، ونظر نحو أبي هاني، وكأنّه يستأذنه في ولوج الغرفة، ولم ير استجابة منه، ثمّ خرجت إحدى النساء، وزغردت بخلاص أم هاني، وهنّأت أبا هاني بالمولود الصبيّ الجميل، وأخبرت الطبيب أنه بين يدي الداية، وتقوم بتمليحه، وأن غشاء أبيض يلفّ جسده، فصرخ الطبيب فرج فارحي:

- طمنيني عن أوضاع أمه، جهّزوها كي أنظرها حالًا، وأكشف عنها بأقصى سرعة.

وبعد لحظات عادت المرأة، وقالت لأبي هاني:

- أم هاني جاهزة، دخل الزوج ووراءه الطبيب، خرجت النساء باستثناء الداية؛ التي كانت تراقب ما الذي يفعله الطبيب، وبعد أن سلمت أبا هاني المولود، قدّام سرير أمّه الصامتة، بدأ يكبّر في أذنه:

"الله أكبر، الله أكبر، حي على الصلاة، حي على الفلاح، أشهد ان لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" وتمتم:

- ما شاء الله على هذا الرزق، صبيٌّ طويل والنور يشعّ من عينيه...

شخّص الطبيب حالة أم هاني، ثمّ رفع يدها فسقطت على السرير، حاول تحريكها، لم تستجب، ثمّ أظهر حزنًا، وانتظر حتّى أتمّ أبو هاني أذانه، واحتفاله بابنه، والتفت إليه، قائلًا له:

- العمر لكم، يا شيخ توفيت المرأة.

- ماذا تحكي يا رجل، أم هاني لا تموت...

وحين تيقّن من موتها – بعدما لاحظ دمعات الطبيب – صدّق الخبر، ركن الطفل على الأرض، وركع أمام جثمانها، وبدأ يهزّ جسمها ويحادثها:

"ردّي عليّ يا ست البيت، ردّي علي يا أم هاني، ما الذي حصل لك؟ يا قلبي، ياعيوني أنت يا ست الكل... ماذا سيحلّ بنا من بعدك يا أم هاني.. أنت البركة وأنت الخير..."

ثمّ أمسك بيديها، ورفعهما إلى فمه ولثمهما، وتهاوى فوق جثمانها من جديد صارخًا:

"يا حيف يا باطل يا أم هاني، يا قليلة الأمانة، أنا متفق معك أن تضعي الكفن على جثمانيّ، لمن تركتيني؟ الله يرحمك يا أمّ هاني،..."

وكان صراخه وبكاؤه إيذانًا ببدء عويل النساء وصراخهنّ أمام جثمانها، وبكاء أبنائها وبناتها الموجودين، أما الطبيب اليهوديّ فانحنى، وحمل الرضيع المنسي، وانتحى به جانبًا تجنبًا للدوس عليه من

الأرجل المتراكضة نحو الجثمان المسجّى، ثمّ سار به نحو خزانة منزوية عن الناس المتدافعة، سقاه حليبًا كان في محفظته وترك ما في حوزته من حليب، وأمّن عليه قدر استطاعته، ثمّ ثبّته بشال صوفيّ بين مخدتين على أرضية الخزانة الخشبية، وابتسم له، وهو يصرخ وحيدًا وسط ضجيج العزاء، وخرج من الدار تّجاه العربة؛ التي كانت بانتظاره، توجّه إلى العربجي، وطلب منه أن يخبر أحدًا؛ ليعطوه أجرة مشواره، غادره العربجي، وتدبّر الأمر مع أحد رجال العائلة جالبًا له دفعة، على أمل أن يوافوه ببيقة أجرته بعد مرور الأسبوع على وفاتها، رفض الطبيب اليهوديّ فرج فارحي، وأعاد العربجي مرات عديدة؛ حتى جلب له مستحقاته كاملةً.

شهدت القرية أيامًا حافلة بالحزن والكآبة على سيدة محبوبة؛ افتقدوا حضورها البهيّ، بل لم تغادر سيرتها الطيبة أهل بيت قوفا طوال عشرات السنين، فقد ربّت أبناءها على محبّة الله والأهل ومساعدة الفقراء، وكانت مثالًا للطاعة الزوجية ومحبة أسرتها، على ما وصفها أهل بلدتها في أثناء تأدية واجب العزاء.

في زحمة الناس، والحزن المخيّم على القرية والدار بقي الطفل المولود منزويًّا على أرضية الخزانة؛ التي وضعه عليها الطبيب اليهوديّ فرج، من دون أن ينتبه إليه أحدٌ، ومساء اليوم التالي للدفن، تذكّره أبو هاني، وسأل ابنته الكبيرة عنه:

- أين الطفل، كأنّي لا أراه مع أحد؟

ارتعبت، وأخبرت أباها أنها لا تعرف عنه شيئًا، وسرعان ما جرى البحث عنه، فوجدوه يقاوم الموت وحيدًا، سقوه حليبًا كان قد تركه الطبيب جانبه، واهتمّوا بصحته، وسمّاه أبوه ضائع، وتعهدت تربيته أخته الكبرى.

***

تربّى ضائع بين أخوته، وكانوا يعدّونه شؤمًا عليهم؛ لأنّه سبب موت أمّهم، إلّا أنّ أخته الكبيرة كانت تعطف عليه كثيرًا، واستطاعت أن تعوّضه حنان الأمّ، كان يكبر بين يديها، وكانت لا تغفل عينها عنه، مانعة أذى إخوته أو غيرهم عنه، حتّى اقترب عمره من الأربع سنوات، فتزوّجت، وأبقت ضائع في بالها، ولم تستطع إخفاء هواجسها تّجاهه، عاهدت نفسها؛ ألّا تتركه وحده مع مبغضيه، وأصبحت تصطحبه معها إلى بيت زوجها أيامًا عديدة، كما أنّ أباه، بدأ يتلمّس مظاهر حسن وبشائر خير على وجه ضائع، لاسيّما حينما كان يقلّده في تلاوة القرآن، فعطف عليه، وقرّبه منه.

أكثر ما كان يشغل ضائع هو الشفقة على حيوانات أرض دارهم في بيت قوفا؛ فقد كان يتألّم عليها في أيام الشتاء والبرد القارس؛ لعدم امتلاكها أغطية تقيها البرد، وعلى الرغم من أن إخوته كانوا يقولون له:

- تمتلك الحيوانات صوفًا ثخينًا، يقيها البرد يا ضائع،
- الخاروف يمتلك الصوف، والكلب يبكي لأنّه يبرد.

نشـأ ضـائع محبًّا ومحبوبًا.. كان شـديد الحرص على عدم إيذاء أيّ كائن، فإذا صـار ودخلت زلقطة أو ذبابة إلى الغرفة، كان يسارع بمحادثتها؛ ويطلب منها الخروج إلى فضائها الخارجيّ من دون أن يؤذيها؛ خوفًا عليها من أذى الآخرين، وكان الصـديق المحبّب لقطط الدار وطيورها، وكم من مرّة سـبّب لأهله قلقًا، وهم يخرجونه من حالة انسـجام معها، يحادثها كما لو كانت من الآدميين، وكانت هي تسـتجيب لكل ما يطلبه منها.

هكذا كان يحيى يروي لأبيه حكاية تقمّصـه روح الشـيخ عربي همسًـا، وهو يعانقه داخل سـجن فرع المخابرات العسكريّة الذي وضعوهما فيه، ثمّ تنهّد يحيى وهو يستند على صدر أبيه في السجن، وناجى نفسه:

- الله عليك يا ستيّ أم سليمان، لو تعرفين معاناتي وحجم الوقائع المؤلمة؛ التي حصلت لي بعد زيارتي مقام الشـيخ عربي برفقتك، ولم تكن تكتفي باصـطحابي لزيارة المقام، بل كانت تلحّ بأسـئلتها عليّ للحصـول على أجوبة ترضيها، وكانت عيناها تدمع كلما حصلت على أجوبة ترضيها.

كم أشـعر بحنين إلى تلك الأيام يا بابا! كم أنا مشـتاق إلى جدتي أمّ سـليمان؛ لتسـتجوبني عن حياتي السـابقة! كم كانت تتألم على حياة البؤس والمعاناة من ظلم الأهل لي؛ منذ ولدت في بيت قوفا وعشـت في قنوات وحتى زواجي ووفاتي في أم الإبر، فقال له أحمد:

- يا بابا، يا يحيى.. النّاس يعرفون حكاية الشـيخ عربي؟ عمرها تعدّى القرن، ولا يوجد وثائق تثبت ما تناقلته ذاكرات النّاس...

لم يسمع يحيى أباه، كان غريق حكايته، التي استأنف روايتها...

... لأنّ ضائع أصغر أشقّائه، كان أبوه يحتضنه ويجعله ملتصقًا بجسده مغمضًا عينيْه، وجرت العادة أن يسـتمع أبو هاني بعد صـلاة العشـاء لتلاوة أبنائه لآيات من القرآن، وكان لا يخفي إعجابه بصـوت ضـائع الأكثر اجتهادًا في حفظ الآيات وتلاوتها على طريقته الطفليّة؛ ناسـيًّا كثيرًا من مفردات الآيات أو اسـتبدالها بأخرى، مما يجعل الأخوات والإخوة يبتسمون، وسط تأنيب الأب لهم:

- ستندمون يا أولاد على ضحككم منه، حين تعرفون قيمة ضائع عند ربنا، فيستدركون – متأخرين – مرتبة ضائع لدى الأب.

وكم من مرّة كان يفاخر أبوه بمقدرته الفذّة أمام رجال الدار أو أمام أصـدقائه من أهل القرية أيّام الجمع، على الرغم من أنّ ضائعًا، غالبًا ما كان يخذله، ناسيًّا ما كان يردّده في الليلة الفائتة.

لاحظ أبوه حنو ضـائع على أخواته وملاطفتهنّ ورغبته في اللعب معهن ومسـاعدتهن في المطبخ، كان ينجذب للإناث أكثر من انجذابه لإخوته الذكور، فقلق أبوه عليه ولامه وعنّفه على تشبهه بالنساء، قائلًا:

- ما الذي يدخلك إلى المطبخ بين النسوان يا ضائع، خليك رجال يا عيوني، اترك لعب البنات والعب مع الصبية الذين يشبهونك.

- ....

كان ضائع يصمت، ولا يعرف كيف يجيبه، حتّى صار إخوته الذكور يتأففون من طيبته الزائدة، ويعنّفونه تشبّهًا بأبيهم، وكانت أخته الكبيرة هي من تواجههم وتدافع عنه:

- خلّوا عنكم، ضائع له الحرية أن يفعل ما يشاء، لا تتدخلوا في شؤونه، ثمّ كانت تأخذه معها إلى بيتها، خوفًا عليه من أخوته.

وكان ضائع ينساهم حين وصوله إلى حديقة الدار الجانبيّة، حين ينثر حبوبًا للطيور؛ التي كانت تحطّ حوله، فتلتقطها؛ وتقف على يديه وتأكل القمح من كفيّه، ثمّ يتّجه نحو أرض الدار؛ فتستقبله القطط، يلاعبها؛ وتتمسح برجليه، أمّا أبوه وأخوته؛ فكانوا يزدادون حنقًا، ولكن لا أحد تجرأ على معاقبته جسديًّا؛ إذ كان ضائع يزداد نورًا على نور مع تقدّمه بالسن، وما كان يشفع له أمام الذكورية الطاغية وهيمنة إخوته عليه تقدّمه عليهم في حفظ القرآن وتلاوته بشكل محبّب وحزين.. كانت عيناه تدمعان؛ كلما قرأ سورة يوسف، ولا يبقى أحدٌ من سامعيه، إلّا ويجهش من شدة التأثّر والوجد؛ إلى أن يتدخّل أبوه، ويوقفه عن قراءتها ثم يقول:

- والله نحن عايشين ببركة هذا الصبي، إن أصابه مكروهٌ لن نرى خيرًا بعده، فتردّ أخته الكبرى، وهي لا تزال تشهق من شدّة تأثّرها:

- يبعد الشر عنه، ضائع محصّن من عند الله والملائكة والأنبياء.

حينما كان ضائع وأخوه الذي يكبره بثلاث سنوات يختلطان بأبناء عمومتهم في أرض الديار، كانت أخته، قبل زواجها، لا تغفل عن مراقبتهما وتذكيرهما بحضورها الدائم فوق رأسيهما، وبعد أن تزوجت استمرت باحتضانه، ولكنّ الاهتمام به قلّ، وصار – في كثير من الأحيان – يترك اللعب مع أخيه وأقرانهما، بعد أن يدخل في حالة من الشرود، ويذهب إلى القاعة الكبيرة، يجلس وحيدًا، ويذاكر ما تعلّمه من دروس شيخ الكتّاب، ويعيد قراءة القرآن، وغالبًا ما كان يبكي حزنًا، وهو في القاعة، من دون سبب واضح لبكائه.

***

تعدّى ضائع التاسعة من عمره، وفي غفلة من الجميع، راقبه ابن عمّه فريد؛ الذي يكبره بخمس سنوات، وهو في القاعة وحيدًا، وقف خلف شبّاكها متلصّصًا عليه، فسمع بكاءه، وهو يقرأ القرآن في سكون القاعة الرطيبة، وكانت الظلال مخيّمةً على هالات ضياء منبعثة من جسد ضائع الآخذِ في التكوّن، أمّا فريد فلم ينتبه إلاّ لبكاء ضائع، دهش من الأمر، لأنّه لم يعتدْ رؤية رجالٍ يبكون.. بل تذكّر بكاء أمّه المرّ بعد صفعات أبيه على وجهها؛ التي كانت تظهر ضعفًا وبكاء؛ تذكّر أباه عندما صرخ في وجهه، وضربه أيام

طفولته بعنف؛ بسبب ملاعبته ابنة عمّه، إلى أن أمسك بأرنبتي أذنيه لدقائق؛ معاقبًا إيّاه برفعه مرات متكرّرة عن الأرض، لأنّه بكى، وأظهر ضعفًا، تذكّر فريد أذنيه؛ اللتين تطاولتا واحمرّتا، واستمرّ يشعر بألمهما طوال حياته؛ تزامنًا مع شعوره بالخزيّ أمام رجولة أبيه؛ اعتاد فريد ذكورية أبيه وانكسار أمّه، بل أصبح يعتريه حالة من الفخر والاعتزاز بفحولة أبيه، وحالة من الازدراء لأنوثة أمّه الضعيفة والبكّاءة.

دُهِش فريد من بكاء ضائع في القاعة، وفكّر كم هو ضعيف، وقارنه بأمّه، التي يحتقر ضعفها، ثمّ تماهى مع أبيه، وفكّر: "ما حال هذا الولد الذي يبكي مثل النسوان؟! وبتساؤله، تداخل الواقع مع تخيلاته الجنسيّة؛ لأجساد أمّه وأخواته وبنات الدار، فقد كان قد دخل سن المراهقة منذ فترة وجيزة، ولم يكن أمامه إلّا الاستمناء عن طريق العادة السـريّة، كان يختلي خلف حوش الدار، ويحرّك عضـوه ليشـعر باللذة الخارقة التي تريح كيانه، وكثيرة هي المرّات التي داعب فيها عضـو حمارتهم الجنسـية، بعد أن ينفرد معها في حظيرتها، وكان يدخل عضـوه فيها، حتّى يفرغ سـائله، وهو غائصٌ في بحر من أحلام معاشـرته إحدى نسـاء الدار، بنات عمومه أو أخواته، أو أمّه في أكثر الأحيان؛ إذ إنّ فريد كان يتلصّص على أجسادهن البضّة، حين كنّ يبدّلن ثيابهن، أو عندما تكون إحداهن نائمة، وقد انكشـف جانبٌ من جسـدها، لا سـيّما عند أعلى فخذيها، فقد كان يتأمّل ذاك الشيء المعشوشب بشعيرات نديّة، والملّون بزهر يفوح رائحةً بشريةً، تجعله يدخل في غيبوبة الحلم، الذي لا يخرج منه إلّا بعد أن يبلّل ملابسه الداخلية، فيذهب إلى أقرب بئر لينضح منه ماء ويبدأ بعملية إخفاء آثار فعلته، التي طالما حَذّره منها أبوه، من دون أن يقدر على ردعه من ممارستها.

ظلّ ابن عمّه فريد يراقب ضـائع من النافذة، متذكّرًا أجسـاد نسـاء الدار اللواتي تلصّـص عليهنّ من وراء ستور النوافذ والقمريّات، حتّى اشتهى ضائع جنسيًّا، كما اشتهى محارمه في عالم التخيّلات، دخل في غيبوبة الحلم، ولم يخرج منه؛ إلّا بعد أن اسـتمنى داخل سـرواله، فركض من جديد إلى بِركة مائيّة قريبة، وهي عبارة عن مسـتنقعٍ تتجمع فيه مياه من بردى، يلعب حوله الأولاد المشـاغبون، الذين يرمون أنفسـهم في مياهها محاولين السباحة والعوم؛ متخلّصين من أعباء أدران أوساخهم.

وصـل فريد إلى بِركة الماء، فوجد هناك أقرانه؛ ممن ينتمون لأسـر حلّت حديثًا في بيت قوفا، أقلّ شـأنًا وأكثر فقرًا من عائلة أبي هاني المالكة قطعة أرض تكفيهم شـرّ الفقر والعوز، وقبل أن يلمحه أحد منهم.. ارتمى في البركة، ليخفي آثار بلل سـرواله وثيابه، وبعد أن خرج حملق حوله، فوجدهم مجتمعين تحت شـجرة المشـمش؛ التي تغطّي جانبًا من البركة، وهم يتناوبون على سـيجارة ملفوفة من ورق الجوز اليابس، فركض وجلس بينهم، مدّ يده آخذًا حصـته بضـع سـحبات، وسـرعان ما تلاشـت بين يديه، ولم يبق منها سـوى نتف أخذها، وبدأ يلوكها في فمه، محدّثًا أقرانه عن ضائع، الذي أطلق عليه لقب النعجة حينًا والحريمة أحيانًا، لأنّه

شاهده يبكي مثل النساء، وأمام تكذيب أقرانه له ودفاعه عن صحّة أقواله، علت أصواتهم، ووجّهوا لبعضهم أقذع المسبّات والشتائم، ودخلوا في عراك بالأيدي، وآذوا أجساد بعضهم بعضًا.

بعد أيّام توفّيت جدّة فريد التي تقطن في غرفة من غرف الدّار، بعدما عادت إليها مطلّقةً قبل أكثر من خمسين سنة، وهي محمولة على بغل وبين يديها رضيعها، ابن الأسبوعين؛ إذ أعادها زوجها إلى بيت أهلها؛ حينما اكتشف الشبه الكبير بين ابنه، الذي صار أبًا لفريد، وجدّه من جهة الأمّ، الذي كان يحمل رأس ثور وعقل عصفور وعاطفة بغل، كما كان النّاس يتندرون حين الحديث عنه، وقد نقلت جدّة فريد حينها لأبيها، ما قيل عنه، فما كان منه إلاّ أن أعاد الطفل على البغل نفسه مع أحد رجال القرية إلى بيت أبيه، وسلمّه له قائلًا:

- يقول لك الشيخ أبو حسين: إنّه لن يعجز عن أكلات ابنته وكسوتها، أمّا ابنك فخذه وقم بتربيته.
- .... لم يكن لدى جدّ فريد من جهة أبيه جوابٌ، سوى أنّه تعوّذ من الشيطان،

وقبل الطفل رغمًا عنه.. أودعه عند نساء الدّار لتربيته، ثمّ تزوّج الجدّ وأنجب أبناء وبنات ومنهم: أبو هاني.

نشأ أبو فريد طفلًا شقيًّا، إذ لم يصل إلى الخامسة عشرة إلّا وذاع صيته في البلدة كثور عراك، وتيس ماعز في تشييع النساء بنظراته الشهوانية، ثمّ زوّجوه من امرأة من دون مهر، فأنجب منها ستة أبناء منهم فريد، الذي ورث عن أبيه طبع الحيونة الذكوريّة البشع.

***

انشغل أهل الدار، نساء ورجالًا، بتشييع جدّة فريد، وذهبوا جميعًا إلى الجنازة، ولم يبق في البيت إلاّ الصغار، من صبيان الدار وبناتها، ومن بينهم ضائع، الذي لمحه ابن عمّه فريد في أرض الدار، فخطر له أن يرافقه إلى البريّة؛ لإثبات ما شاهده قبل أيام لأقرانه الذين كذبوه، وبعد أن هرع، وأخبر اثنين من رفاقه، حضرا معه إلى الدّار، وشرعوا يتلصّصون من خلف شباك القاعة، فرأوا ضائع يقرأ القرآن حزينًا، ثم اقتحم ابن العم فريد الغرفة مفاجئًا له؛ حاول أن يكفكف دموعه، ولكنَّ ابن عمه فريد أسرع نحوه، قائلًا له:

- لماذ تبكي يا ضائع، أليس عيبًا أن تبكي مثل النساء؟
- ....
- أجب! ما بك خرست مثل النعجة؟
- أبكي على ستّي التي ماتت، ردّ عليه ضائع مخفضًا نظره.

ثمّ استطاع ابن العم فريد أن يقود ضائع إلى خربة خلف الدار برفقة رفيقيه خلال غياب الجميع في جنازة الجدّة، وبعد أن جلسوا لفّوا سيجارة من ورق الجوز، وشرعوا في تدخينها، رفض ضائع أن يشاركهم التدخين، وحاول مغادرتهم والعودة إلى البيت، فمنعوه، وحينما اختلفوا على من يصفّي السيجارة بدأوا عراكهم، موجّهين

اللكمات لبعضهم بعضًا والشتائم المقزّزة، فرّ ضائع باتجاه الدار تواريًّا عن أعينهم، لمحه أحدهم فركض خلفه، ولحقه الآخران، أمسكوه وصفعوه على وجهه، وركلوه وأعادوه إلى الخربة، فانزوى جانبًا، وهو يتألّم، بعد قليلٍ عنّ على باله البكاء، لا لشيء يخصّه، بل من أجل هؤلاء الفتية الأشقياء، ولحظة دمعت عيناه، توسّل ابن عمه فريد، ورجاه أن يسمح له في العودة إلى البيت، ولكنّ ابن عمّه منعه، وصرخ بصاحبيه:

- أما صدقتم؟ هو يبكي مثل النساء!

والتفّ الصبيان حول ضائع، وبدأوا يسخرون منه، ويلكزونه، ويجسّون جسده، مطلقين صفات النساء عليه:

- أتتزوجيني ضائعة، أنا أعجبك، وآخر:
- لا هذه المرأة لي،...
- أنتِ ضائعة وأنا لاقيتك...

وما بين سخريتهم منه واللكز وتوصيفه بالمرأة والنعجة، اهتاجوا جنسيًّا، وتعاونوا عليه، وأدخلوه عنوّة إلى حقل قنّب قريب، وبدأوا يزيلون عنه ثيابه، وكان هو يستجيب مكرهًا بداية، على الرغم من أنّه لم يستشعر خطرًا كبيرًا، ثمّ حاول التخلّص منهم، لكنّهم كانوا يجلسونه من جديد، حتّى تمكّنوا منه، وتناوبوا على انتهاك جسده البضّ واغتصابه.

قبل عودة الكبار إلى الدار، عادوا معه إلى بركة الماء وهناك سبحوا ونظّفوا ثيابهم، ونبّهوا عليه ألّا يذكر لأحد أي شيء مما حصل معه؛ لأنّهم سيقومون بقتله، ثم رجع كلّ منهم إلى بيته، ولازم ابن عمه فريد ضائع؛ حتى لا يخطئ، ويتكلم لأحد عمّا جرى معه، وهذا ما حصل، صمت ضائع عما حصل معه؛ ولكنّ رفقة السوء هؤلاء؛ استمروا بالاعتداء على جسده جنسيًّا، كلما سنحت لهم الفرصة، وأكثرهم فريد.

كان أبو هاني يلحظ أن ضائع في تلك الفترة، يذوي ويضعف حاله، وتتراجع صحته من دون أن يتوقّف عن حفظ القرآن وبعض الأشعار، التي كان ينقلها إليه شفاهةً، ولكنّه لم يكتشف ألمه الداخليّ، الذي يتسبب ابن عمّه فريد غير المكترث لأحواله السيئة، حتّى إنّ فريد جلب أقرانًا، كذّبوه على ما يذكره عن ضائع، فواعدهم وأتى بهم لمكان كان يعتدي فيه عليه، ليروا كيف يستجيب له كامرأة، وبالفعل جاؤوا، وطفقوا تقريظه بأبشع الشتائم، وأحطّها، وكانت فضيحةً له، لم يستطع أن يكشفها لأحد.

بعد فترة من هذه الحادثة، وحينما كان ابن عمّه يعتدي عليه خلف حائط حمام الدار، وكانت عمّته خارجة صدفة لمحت ما يحصل، لاذ فريد بالهرب، ثمّ تلقّى ضائع تعنيفها الأقسى له، وصفعته، واحتارت بأمرها، متخوّفة من نتائج وخيمة لو أخبرت أحدًا بالأمر، وبعد تردّد تركته، ثم عادت إليه، واتفقت معه على أن يترك الدار، ويتوجّه لأي مكان قصيّ، ولا يعود إلى داره في بيت قوفا أبدًا؛ لأنّ العار سيلاحقه طالما هو موجود،

وبالفعل، هيّأ أغراضــه وزوّادته خفية عن أعين الجميع بمســاعدتها، وخرج في غفلة عن كل ذويه، غادر ابن العشر سنوات هائمًا على وجهه، ووصل إلى أطراف بساتين بيت قوفا، كان مسلّحًا بعزيمة مستمدّة من ستر عاره، الذي سيبقى يلاحقه في تلك القرية البائسة التي تقوم على ذكورية جوفاء.

وصـل إلى تخوم قرية ببيلا، وجلس للراحة مدَّة حين انتصـف الليل، ثمّ التفت إلى القرية، فاسـتقبله نسـيم الأشـــجار والورود وتغلغل في أنفه، تذكّر أنّه لن يتمكّن بعد تلك اللحظة من العودة إلى موطنه من جديد، فبكى بحرقةٍ مبديًّا شـوقه المبكّر لأخواته وأبيه وإخوته، شـوقه المبكّر لكلّ ذرة من ذرات تلك القرية؛ التي كان يحلم أن تتحوّل إلى جنة الله على الأرض.

أخذته غفوة، فحلم فيها أنّ الرسول الأعظم يناديه:

- عربي.. يا عربي، لا تخف أنا الله، امش بطريقك وأنا ســأحميك، وتذكّر أني اخترتك مخلّصًــا فئة مغلوبة في الشام.
- أنا ضائع ولست عربي، ولا أعرف الشام.
- صـار اسمك – منذ الآن – عربي، وستصـل إلى من يحتاجون إليك؛ عندما يحين وقت خلاصـهم، انس اســمك وأباك وأهلك، وأنا الآن أختك وأهلك، ادخل إلى أول جامع تصـــادفه في طريقك، إنّ روح أمّك الطهورة حالّة في روحك، لن تبارحك طالما أنت باقٍ في هذه الدنيا، بكى ضائع وسأله:
- أين أمي؟ أريد أن ألتقيها يا سيدي.

لم يجبه الرسـول العربي المعظّم، بل حوّم فوق رأســه بأجنحة ملاك، وحلّق بعيدًا، أمّا ضــائع فنهض من نومه، ورفع يديه يريد اللحاق به، فعجز عن التحليق، بكى بصـمت وبحسـرة، وصـحا من بكائه سـاعة علو السحر، وقبيل انبلاج الفجر، تابع مشواره في دروب البريّة لا يعرف وجهته فيها.

صـمت يحيى عن الكلام.. في سجن المخابرات العسكريّة، لم يستطع إكمال قصـته لأبيه؛ داهمه النعاس فجأة، وأغمض عينيه، ولم يرتضِ إلّا أن يبقى في حضـنه، وضـع رأسـه على صـدره، وطلب من رفاق السجن في ذاك المهجع اللعين، أن يوسّــعوا له المكان قليلًا؛ ليتمكّن يحيى من النوم، في أثناء لحظات أحسّ بأنفاس ابنه الحارّة، وعرف أنّه غرق في نوم عميق.

65

قبل مغادرة الشباب الموسيقيين الشقّة عصرًا، جالسوا أحمد، الذي عرف منهم أنهم على صلة مع تنسيقية عرســال، وأخبروه عن نيتهم في تشــكيل فرقة مســرحيّة على غرار فرق تتشــكل في المدن المحرّرة وأماكن المهجّرين الســوريين، وذكروا مسـرحيات عدة كانت تعرض في أكثر من مكان، مثل مسـرحية سـوناتا للربيع، وثالثهما الشيطان،... فهم ممن يتابع أنشطة شباب الثورة على اليوتيوب والفيس بوك ورويتر، شجّعهم أحمد، ووعدهم أن يؤمّن لهم مسارح يعرضون عليها عروضـهم، وأوصـاهم بقراءة مسرحيات سعد الله ونوس، وبرتولد بريخت، وخطر على باله أن يســألهم عن صــلتهم بحزب الشــعب الشــيوعيّ، فأجابوه بعدم معرفتهم الحزب نهائيًّا، إلّا أنّ أحدهم سأله عن علاقة الشيوعيّ بالشيعيّ، وإن كان ذاك الحزب فرقة شيعية.. أجابهم مقتصدًا في كلامه عن الفرق بين الشيعة والشيوعية.. وعرف منهم أنّهم يتلقون مساعدات بسيطة عن طريق المجلس الوطنيّ السـوريّ، وأحيانًا من هيئة التنسـيق الوطنيّة، من دون أن يعرفوا مكوّنات هذين الكيانين السـياسـيين، سوى أنّ أحدهم قال:

- المجلس الوطنيّ تابع للإخوان المسلمين، وهيئة التنسيق جزء من نظام الحكم.
- ألم تسمعوا بسالم أبو فرج الله؟
- هذا مع الثورة، وهو في المجلس الوطنيّ، مع برهان غليون. وأكمل آخر:
- برهان غليون علمانيّ، وهو يعيش في فرنســا منذ كان صــغيرًا، وقرأت عنه أنه أســتاذ في جامعة باريس.

أدرك أحمد أنّ شـباب التنسـيقية خارج التجارب الحزبيّة، ثمّ فكّر بدور تلك الأحزاب السـلبيّ في فاعليات الثورة، بل لام نفسـه؛ كلما لاحت في ذاكرته تجربته السياسية الضـحلة مع أحزاب تحوي قي صـفوفها بضـعة عشرات متثاقفين في محافظات سوريّة عدة.

ثمّ حكى لهم عن الأسـتاذ سـالم أبو فرج الله، الذي اعتقل عقدين من الزمن؛ حيث عرفه بطلًا في سـجنه، ولكنّه قال لهم:

- كنت أتمنى لو ظلّ أبو فرج الله فكرة في ذاكرتي؛ لأنّ اسمه يرتبط بصوته الرجولّي الذي كنت أسمعه؛ حينما كنت معتقلًا في زنزانة قريبة من زنزانته.. كان – حينذاك – يشــتم جلاديه، ويتحدّاهم لاعنًا ســلطة الاستبداد ورئيسها، ثمّ سمعت الكثير عن بطولاته في الزنازين والمهاجع؛ التي مررت عليها.

شعر أحمد بالخجل من تجربته مع حزب اليسار الشيوعي؛ الذي خبره منذ سبعينيات القرن العشرين، ثمّ خجل من نفسه، لأنّه لم يستجب لتحذيرات الأستاذ منذر؛ حين نهاه عن الاقتراب من تلك الأحزاب؛ بعدما قدّمه لسالم أبو فرج الله.. لكنّ أحمد نسي تحذيراته، حين ارتعشت أوصاله أمام فكرة تعاونه مع رجل سياسيّ بحجم مانديلا العرب، ثمّ اتّفقا على زمان ومكان، ويتذكّر – حاليًّا – في عرسال كيف أنّه لم يذق حينها النوم طوال ليليتين، كان توّاقًا للقاء الرجل؛ الذي غيّر مسار حزبه المذعن للاتحاد السوفيتي منذ أوائل السبعينيات، للرجل الذي انتشر اسمه بين جماعات اليسار العربيّ بصفته بطلًا واجه الطغاة على مدى حياته كاملة.

حكى أحمد للشباب عن هواجسه من الأحزاب، وتمنّى لهم نجاحًا متواصلًا، ووعدهم أن يوصلهم بشباب مهتمين في المسرح والموسيقا من أوساط الثورة، وقبل أن يغادروا قالت خديجة؛ التي وصلت متأخّرة:

- أتمنى ألّا تسافر من هنا يا أستاذ أحمد.

ثمّ عبّروا جميعهم عن أمنياتهم ببقائه، أو رجوعه من القاهرة؛ حالما ينتهي من مؤتمر المعارضة السوريّة، فقال:

- أرجو أن أتمكّن من الرجوع، بعد أن أفضح سلوك أولئك الساسة الوصوليين.

د قبل أن يفارقهم، وصلت مكالمة هاتفية لأحد الشباب، وحين ردّ، عرف أنّ شابًا من قيادي الثورة، سيصل إلى عرسال، وسأله صديقه:

- أما عرفت اسمه؟
- لا، والله، ولكن الذي اتصل بي واحد من شباب الإخوان المسلمين، فقال له أحمد:
- حينما يتاح لكم غدًا ادعوا الشباب الذين يدعونكم لتنظيم الإخوان لنتعرّف عليهم.
- حاضر أستاذ غدًا إن شاء الله.

فارقهم ودخل إلى غرفته، واغرورقت عيناه بالدموع، وهو يجترّ أحقاده، التي لم يبق سوى أيّام على تفجيرها في مؤتمر المعارضة السوريّة بالقاهرة.

آلمته تجربته مع أبو فرج الله، وكان يتساءل عن محمد ورفاقه، عن مصيرهم وسط تنظيمات التكفير الفاسدة، التي شجّع عليها كثر من حزب اليسار الديمقراطي وأحزاب سياسية من اليسار واليمين.

وأيضًا، لم يكن خافيًا على أحد دور أجهزة مخابرات دول المنطقة بتصنيع تلك الهياكل التنظيمية التكفيريّة؛ التي تفسد شباب الثورة بتقديم الأسلحة والأموال لهم، وتعدهم بالنصر المؤزّر أو بجنان الخلد؛ إذا ما استشهد أحدهم، ولكنّ أحمد لم يتيقن؛ إلّا بعد أن قرأ دراسة ابنه يحيى في مشروعه عن دور المخابرات المركزية الأمريكية بتصنيع تنظيمات الإرهاب الإسلاميّة منذ 1979م، وحتّى زمن زمن ثورة الربيع العربيّ في سوريا.

لم يبق لأحمد سوى أيام للسفر إلى مصر، كان يهجس بالأستاذ منذر وعن كلّ من تركهم؛ إذ لا يعرف من أخبارهم سوى شذرات عنها: "أين أنت يا منتهى الأطرش، لماذا انخفض صوتك، أتوقفت وسائط الإعلام عن الاتصال بك؟! ماذا حلّ بعمر وسارة؟" أسئلة كانت تؤرقه على الدوام.

حتّى لاتكون سوريا مملكة للصمت.. الاستبداد إلى زوال

(رياض الترك)

كان أحمد يحزن لأنّ سالم أبو فرج الله خرج من دائرة أحلامه في زمن الثورة، فقد دخل معه ضمن دائرة تجربة حزبه الضيّقة.. أبو فرج الله، الشهيد الحيّ في سجون الوحدة المصرية السورية، الذي ظلّ نحو 18 عامًا في زنازين حافظ الأسد، ونحو ثلاث سنين بعد فاعليته الإيجابيّة في أنشطة إعلان دمشق في زنازين ابنه، الأكثر شهرة في تاريخ المعارضة السياسية السورية، والأكثر خبرة سياسية وتنظيمية، بطل الانتصار على العقلية الستالينية المدمّرة.

أبو فرج الله، هل بقي على ما كان به، أو كشفت الثورة معدنه الذي جبل منه؟ ألم يكن ديكتاتورًا صغيرًا كمعلمه وخصمه – في آن واحد – خالد بكداش؟ ألم يكن يتوهّم قيادته حراك الثورة السورية؟ أم اكتشف قدراته المتواضعة أمام شباب الثورة، الذين كانوا يحاولون خلق المستحيل؟ شباب جيل الألفيّة الذين كانوا يقاومون بوحي إيمانهم بالتغيير، مسقطين من اعتبارهم تجارب الأجيال السابقة.

التقاه، وأخبره أحمد بنشاطاته، واتفقا على اللقاء مرتين أو ثلاث مرات كلّ أسبوع، بناء على طلب ابن العم أو الاختيار – كما كان يطلق عليه – وضعا تصورًا لحراكهما، وبدأا بإنشاء موقع إلكترونيّ، وأطلق – اتفاقًا مع شباب الثورة – اسم "مجال" على الموقع، وقبل الانتهاء من إنشاء الموقع، اعتقل أحمد في الأمن السياسيّ، وتعرّف في سجنه على شباب من معضمية الشام وتلّ منين وقدسيّا وعربين والقنيطرة، وتمّ التنسيق داخل السجن على نشاطات؛ حينما يخرجون من السجن، وبالفعل كانت القاعدة الأولى لنشاطاته الفعّالة، تواصله مع من أطلق سراحهم في تلك المرحلة المبكّرة من عمر الثورة.

مما يخجل منه أحمد تواصله مع كهول صحفيين يعدّون أنفسهم من أبناء الثورة لقيادة موقع مجال، وهم ينتمون إلى أحزاب تدّعي العلمانية، فقد طلبوا مقابلًا ماديًّا كبيرًا مفترضين وجود تمويل خارجيّ للموقع.

التقى أحمد مع سالم أبو فرج الله من جديد، وأخبره عن تجربته في السجن، فراق له ما فعله، وطلب منه الاشتغال على بناء تنسيقية لقيادة جانب من الحراك الثوري في دمشق وغوطتها؛ الذي كان آخذًا في الاتساع والعمق، واتفقا على استئجار شقّة في أمّ الإبر، وبالفعل رافقه مرارًا لاستئجار شقّة، تمّ اعتقال يحيى من جديد في فرع الأمن العسكريّ، وبعد أسبوع تبعه اعتقال أحمد، الذي خرج بعد نحو شهر تاركًا ابنه يحيى الذي غاب أيّ خبر عنه.

فهم أحمد في أثناء لقاءاته المكرورة مع ســـالم أبو فرج الله، أنّه لن يتعاون مع الخونة في هيئة التنســـيق وغيرهم – على حسب تعبيره – ممن يهادنون السلطة المجرمة، وأنّه يسعى للإعلان عن المجلس الوطنيّ في الخارج، وإن كان أحمد غير معنيّ بتلك الترهات الســياســية، لكنّه لم يســفهها؛ طالما ســالم أبو فرج الله من يتبناها، بل كان معنيًّا بإحداث جسـد تنظيميّ لاسـتيعاب شـباب الثورة المتنامية أعدادهم مع نسـائها؛ اللواتي أضحين يلعبن دورًا كبيرًا في التحفيز على التظاهر وتقديم المساعدات للمناطق المنكوبة، فتوافق مع من يعمل معهم في مناطق الريف الدمشــقيّ للتعاون على تبني إعلان دمشــق، ولكنّ أبو فرج الله رفض لعدم ثقته بأحد من جماعة إعلان دمشق وفق وجهة نظره.

***

طلب أبو فرج الله أحمد للقاء في مشروع دمّر، مع ناشـطين مهمّين، وحينما اجتمع مع شـخصـين ملتحيين في إحدى الفيلات، جلبهما أحد قادة حزب أبو فرج الله؛ الذي أصـــبح فيما بعد وجهًا من وجوه المعارضــــة الخارجية، فوجئ بأحدهما يعانقه، قائلًا وهو يبكي فرحًا:

- عمو أحمد، ألم تعرفني؟ أنا محمد، أنا زرتك في مركز الدراساتّ في أم الإبر مع أختي سارة.
- أنت ابن عبد الحليم؟
- نعم يا عمو، أنا ابنه.
- لماذا تغيّر شكلك؟ ما هذه اللحية الطويلة؟ وما هذا اللباس القبيح الذي ترتديه؟! عانقه أحمد مستغربًا لباسًا شرعيًّا وكوفية على الطريقة السلفيّة قائلًا:
- أين اختفيت يا محمد؟ كم حزنت أختك ســـارة على غيابك! ثمّ مرضـــت؛ عندما ظنّت أنك انتميت لتنظيم إسلاميّ مسلّح، أصحيح ما سمعنا عنك يا محمد؟
- لا يفلّ الحديد غير الحديد يا أستاذ أحمد، ومن اعتصم بحبل الله، وباع نفسه له، وتبع قائدنا المعظّم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم، ليس بمستطاع أحدٍ هزيمته.
- ما هو مصير أبيك يا محمد؟ أين تركته؟ لم تترك أختك سارة مكانًا، إلّا وسألت عنه من دون جدوى، وحين تواصلت مع شباب مدينتكم، عرفت أنّ منزلكم تهدّم، ولم يبق منه شيئًا نتيجة القصف.
- بعد ما اعتنيت به، أنا وأخوان الإيمان في بيتنا، وصار وجوده بيننا بمرتبة بركات أهل الخير، قصف الجيش المنزل؛ الذي كان مأوى لإخوتنا، دمّره الكفّار، واســـتطعنا إنقاذ أخين من أخوة الإيمان، بعد أن جرحا جروحًا طفيفة، أمّا أبي فلم يكن بإمكاننا انتشـــاله من تحت الأنقاض، بقينا نســـمع أنّاته، حتّى عاود الجيش القصـف؛ فانسـحبنا، بعد أن صـلّينا من أجل بقائه حيًّا، انسـحبنا؛ وحلّ مكاننا آخرون، ولم أعد أعرف شـيئًا عنه.

- وأنت! كيف سمحت لنفسك أن تتبع درب التعصّب الدينيّ الأعمى؟

- لا درب لنا – يا أستاذ – إلّا درب الإيمان، أصلحك الله وجعلك على درب الإسلام القويم.

لم يكن سالم أبو فرج الله يتحدّث، بل كان مبتسمًا على الدوام، وقال:

- يا أحمد، بعد أن قتل النظام ودمر وهجّر واعتقل، مباح للشباب السوري استخدام الأساليب كلّها؛ التي يجدونها مناسبة لإسقاطه نهائيًّا، فالنظام – الآن – يترنّح تحت ضربات الثوّار.

- ولكن عظمة الثورة بسلميتها وحراكها المدنيّ، فأجابه القياديّ الآخر:

- ابق أنت سلميًّا، ولا تصادر حقوق غيرك باتباع أساليب مغايرة، ثمّ قدّم له محمد ورفيقه بصفتهما، ممن يعملون على حماية الناشطين المهددين من قبل سلطة النظام وجيشه، فتبادل أحمد رقمي هاتفه وهاتف محمد، واستكملوا الحوار من دون أن ينصتوا لآراء بعضهم بعضًا.

***

كان سالم أبو فرج الله لا يثق بأي سياسيّ، وكان قد وصفهم أمام أحمد بالحمقى والكذابين والطائفيين والخونة والمتسولين أمام سفارات الخارج والخرفانين والفاسدين والطامعين برئاسة الجمهورية، حتّى طال وصفه لهم اسميًّا وشخصنةً، فأطلق عليهم البرميل الفارغ والحيزبون والطبل والسخيف وغير ذلك من صفات وألقاب، إلى أن أخبره أنّه سيسافر إلى حمص، ولا يعرف موعد عودته، ثمّ عرف منه – بوجود أحد شباب الثورة – أنّه يهدف بمشواره تعليمهم كيف يصنعون قنبلة المالاتوف؛ التي صنّعها منذ 1970م في جنوب لبنان؛ حينما كان قائدًا من قادة منظمة الأنصار الشيوعية؛ التي قاتلت لمدة أشهر مع المقاومة الفلسطينية بمواجهة إسرائيل.. يومها لم يخف أحمد دهشته، ولكنّه عدّ ذلك شأنًا خاصًّا، سالم أبو فرج الله أحد كبار الساسة العرب، هو الذي ذاع صيته قبل نصف قرن، ابن العم، مانديلا العرب، الشهيد الحيّ في سجون الوحدة السوريّة المصريّة، المحرّف أسس الستالينية البغيضة، القوميّ المناهض لفكر عدمية البكادشة، سالم أبو فرج الله البطل؛ الذي بقي وفيًّا لمبادئه، على الرغم من وضعه في زنزانة منفردة نحو ثماني عشر عامًا متواصلة، الشجاع الذي أطلق لقب ديكتاتور دمشق في زمن القتل، مؤسس إعلان دمشق، وحزب اليسار الديمقراطي الذي سلّم قيادته لجيل الشباب...

غاب سالم أبو فرج الله، وربما كان في حمص، واتصل أحمد بمحمد ابن عبد الحليم، وأخذ منه موعدًا في أحد بيوت أمّ الإبر؛ التي يسيطر عليها نظام الحكم بميليشياته، وبالفعل جاءه مع اثنين من إخوانه، لم يعرف أحمد أنهما داخل سيّارة فارهة مفوّمة، ظنّها تابعة للمخابرات، وهي مركونة بانتظار وصول الإخوان، فسارع وهاتف محمد ليعلمه بأمر السيارة، ولكنّ محمد طلب منه الاقتراب من السيارة والصعود إليها.

تحركّت السيّارة، وفوجئ أحمد بثلاث بنادق آلية، ومسدسات مرمية داخلها، وسأل:

- ما هذا؟ ألا تخافون من مداهمة قوات النظام للسيارة؟
- لا تخف أستاذ، دعهم يجرّبون اعتقالنا، والله العظيم لنفتك بهم كما يفتك الجزّار بخراف العيد.

لم يستطع أحمد الردّ، طلب منهم وقف السيارة، وقال لمحمد:

- لا تنس يا محمد أنّ لك أختًا اسمها سارة تنتظر عودتك، وهي تقطن قريبًا من هنا.
- سلّم لي عليها، وطمأنها أن روح أبي لا تزال قابعة في زوايا بيتنا وداخل قلبي وعقلي، وإن ابتعد عنّي جسدًا، فإنّ الله عوّضني بأب قويّ؛ طالما افتقدته في حياتي، مع أبي عبد الحليم، أرسل لي سالم أبو فرج الله، فأصبح الأب والمرشد والمعلم والقائد بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

ترجّل أحمد من السيارة، ومشى في طريق فرعيّ، وهو حزين على ما يحلّ بالثورة.

***

استطاع أحمد أن يصل إلى قياديين من حزب سالم أبو فرج الله، ومنهم رفيق غياث أمين عام حزبه.. أخبره عن هواجسه، وعن القادة الذين تعدّت أعمارهم السبعين والثمانين عامًا، وأورد مثالًا عن سالم أبو فرج الله، الذي سأله بذات نفسه في لقاء بينهما: "هل يبدو علي الخرف يا أحمد؟ والله أخجل من شباب الثورة وبنفس الوقت أعتزّ بهم، والله لا فكاك من تنظيم شباب الثورة بطرق هم أعرف بها من جيلنا الخرف"، انتضر أحمد يومها للشباب، وانتصر لتاريخ أبي فرج الله العظيم أيضًا.

اتفق أحمد مع أمين عام حزب اليسار على لقاءات مباشرة، وفي نفس اليوم الذي التقى معه، زار معه شباب قدسيا والتل والهامة، وتوافق مع تنسيقيات الزبدانيّ والقابون وبرزة والكسوة لزيارة رفيق غياث في اليوم التالي من أجل شروع حزبهم بتنظيم عملهم، واستقبال شباب الثورة أفواجًا في صفوفهم.. ولكنّه توقّف عن الاتصال بأحمد من دون إعلام له، إلى أن التقى بثلاثة من أعضاء لجنتهم القياديّة، وأخبرهم بما حدث، فأبدوا طيبة نادرة ورغبة بالعمل المشترك، ولكنّهم – كما فعل أمين عام حزبهم – كرّروا حركات يدي سالم أبو فرج الله وابتسامته وانحناءة رقبته، بل أحدهم كان مغرمًا بصوت أسمهان، كما هو أبو فرج الله مغرمٌ بصوتها.. كانوا يجترّون ألفاظ قائدهم وأفكاره كالببغاوات.. إلى أن صارحهم أحمد بحقيقتهم، ثم التقى أبو فرج الله من جديد، وأخبره بهواجسه، لاسيّما تجاهله لقوى يعلنون تأييدهم للثورة، ولكنّ الأخير عنّفه على انتقاده تقزيمه وتسفيه حلفائه، وحذّره من جديد من الاتصال بأعضاء قيادة حزبه.

لم يرتَب أحمد في اعتقاله الأول والثاني عن عدم سؤال محققي فرع المخابرات عن صلته بسالم أبو فرج الله، بل كان مندهشًا من عدم معرفتهم بنشاطهما المشترك، ولكنّه عرف – فيما بعد – أنّ المخابرات كانت حريصة على إبقائه طليقًا، ليتمادى أكثر في سلوكه السياسيّ غير المنضبط، وذلك لمّا علم منه أنّه كان في اجتماع ضمّ عشرات الناشطين في حمص – وربما حين كان يعلّمهم صنع قنابل المالاتوف – وداهتمهم قوات

النظام، فهرب من هرب، واعتقل من اعتقل، ولم يبق في المكان ســواه مع ســبعينيّ آخر عجزا عن الحركة، فعرفه الضابط، ولم يعتقله قائلًا له: "أنت لا يريد أحد أن يعتقلك، ابق طليقًا..."

66

غطّى أحمد رأسه ببطانيّة سميكة، وأحكم إغماض عينيه، ثمّ سدّد سهم قلقه نحو أعماق الظلمة مكوّنًا في أبعد نقطة منها هامات شيطانيّة وأغوالًا تراقص نيرانًا، وتشتعل فيه، حاصره لهيب الموت، وأخذه إلى عالم مغمور بالأزرق الممتدّ إلى تخوم السماء، كان يستغيث بالمستحيل، وهو يتلاشى، إلى أن وضع نفسه في صفحات كفن مكوّن من سحاب أبيض كالثلج، فقيد إلى حفّار القبور.

مدّ يده خارج قبره على أمل لقاء ابنه يحيى، لم يكن يصدّق أنه خسره، كان يستكمل تنظيم ذاكرته معايشًا طيفه، حينما كان في حضنه؛ مستحضرًا لحظة توقّفه عن إخباره قصة تقمّصه لروح الشيخ عربي، التي شغلت تفكيره كثيرًا.

صاح الديك مؤذنًا بانبلاج الفجر، فقال في نفسه: "فلتمت الديكة.. ومتى تستأذن الشمس بثّ نورها ودفئها، ممن يتيهون في دروب الغلظة والتباهي الأرعن!" ثمّ اغتسل، وقبع وراء مكتبه، متصفحًا صفحات ذاكرة الثورة ومواقعها وأخبار تنسيقياتها، ازداد ذهولًا من كثرة أعداد الشهداء والمغيّبين والمعتقلين، ممن عرفهم في سجنه، ثمّ خرج إلى الشرفة، شرب فنجان قهوته، وردّ على الموبايل، وكان واحدًا من الشباب الذي التقى بهم بالأمس، أبلغه أنّ شباب الإخوان سيزورنه بعد نصف ساعة، تهيّأ واستقبلهم في الغرفة الخارجيّة، بعدما رتبتها المرأة الحمصيّة وهيّأتها، وأخرجت أمّها وأبيها إلى المطبخ.

وصل خمسة شباب، أربعة منهم لا يعرفهم من قبل، تعارفوا، وفُتح باب الحوار، بعد أن أشادوا بالضيف المتوقّع وصوله في اليومين المقبلين.. وإن لم يذكروا اسمه، إلّا أنّهم وصفوه بالقائد الشبابيّ العظيم، ورجل الدولة المستقبليّ.

أخذهم الحديث؛ حتّى بالغ أكبرهم سنًّا وحجمًا، وهو يذكر كيف تقوم الميليشيات العلوية والشيعية بالجرائم البشعة، وطالب باجتثاث العلويين من الوجود، فاعترض أحمد، وأكّد أن الصراع مع السلطة يقوم على مقاومة استبداديتها وإفقارها وفسادها، وأنها تستغلّ الأقليّات؛ لترسّخ نظامها القمعيّ، فردّ الشاب:

- أنت لا تعرف يا أستاذ كيف شكّلوا وحدات مقاتلة من العلويين، وأخرى جلبوها من شيعة العراق، ومن حزب الله اللبنانيّ، يبدو أنّك لا تعرف أنّهم يقتلون وفي ظنّهم أنّه ينتقمون للحسين، والله يا أستاذ أنا من الذين سمعت أحدهم، يصرخ: "يا حسين، يا حسين،... ثمّ بقر بطن جاتنا الحامل أمام ناظري، فارتمت مع جنينها قتيلين على الأرض، ثمّ ارتمت أمّها فوقها؛ فأكمل مسلّح آخر برصاصاته على جسدها، أنا يا أستاذ، مات أخي، وتركت أخواتي تحت رحمة هجماتهم؛ التي أضحت أشدّ من هجمات المغول والتتار،

والله.. لم أؤذِ أحدًا – طوال حياتي – قبل أشهر الثورة، حتّى بالكلمة، أمّا الآن، فأنا مستعدّ إلى قتل أيّ علويّ، كبيرًا كان أو صغيرًا، عسكريًّا أو مدنيًّا، طفلًا رضيعًا أو امرأة حاملًا... وضع أحمد كفّ يده على فم ذاك الشاب، وأسكته، قائلًا:

- رحم الله أمواتك يا صديقي، ولكن.. الآن صار يحقّ لنا أن نخشى على الثورة من منطقك الطائفي، تتكلم مثل جماعة السلطة...

لم يكد أحمد يكمل كلمته، حتّى وصلته دفعة من يد الشاب الثقيلة، فارتمى كرسيه، ووقع على الأرض، دافع عنه بعضهم، وآخر أخرج الشاب من الغرفة، ووقف أحمد بين هامات الشباب الذين – وإن لم يضربوه – فقد استاؤوا منه، لأنّه لا يعرف كيف أصبحت عصابات الأقليات، تعيث فسادًا وقتلًا وتهجيرًا، على ما ذكروا.

لم يبق غير الشاب الموسيقي عند أحمد، فاعتذر إليه خجلًا من الموقف، وقال له قبل مغادرته:

- هؤلاء هم الأخوان المسلمين الذي دعونا للدخول معه بالأمس، لعنهم الله.
- ما عليك يا صديقي، أنا معتاد على سلوك أمثالهم السيء.

بقي وحيدًا في غرفته، وحين استلقى على سريره، كاد قلبه ينفطر أسىً، حين وسوس الشيطان له أنّ المخابرات أنهت حياة ابنه يحيى.

تراكمت الأوجاع على كاهله منذ افتراقه عن ابنه يحيى قبل أكثر من أحد عشر شهرًا، وباتت صور شباب الثورة، الذين تركهم في معتقل الجرائم لدى فرع المخابرات العسكريّة، وهم يتعرّضون للموت والتعذيب على شكل مسحاء زمنهم المصلوبين.

الفاحشة في كباركم، والعلم في أراذلكم، والملكُ في صغاركم

(الرسول العربيّ)

أخذ يحيى غفوة وهو في حضن أبيه، الذي حاول ألّا يتحرّك؛ حتّى لا يوقظه، ولم تغفل فطنته عن نظرات المعتقلين المفعمة بالشفقة على ابنه، الذي بات أيامًا من دون نوم، مما جعلهم يتسامحون معهما في عدم إدراج اسميهما في جدول الجلوس أو الوقوف ضمن الحيّز القليل؛ الذي اختصّا به في مهجع الأمن العسكريّ، كان أحمد يشعر بسعادة؛ حينما يبثّ جسد ابنه يحيى دفئًا طفوليًّا في نقاط تماسه مع جسده، كان يتأمّله ويحمد الله على بقائه في الوجود إلى جانبه، ولم يعرف كم من الوقت أخذه حلم يقظته حين سمع السجّان ينادي اسمه بأعلى صوته:

- أحمد فخري، فردّ بصوت مرتفع:
- حاضر، أنا هنا..
- جهّز نفسك، وارتدِ ملابسك، معك خمس دقائق...

- حاضر.

استيقظ يحيى في أثناء حركة أحمد بعد وصول السجّان، لكنّه ظلّ خارج وعيّه، لم يدرك ما الذي كان يجري حوله، فطلب أحمد من أحد المعتقلين، أن يحلّ محلّه، فوضع رأس يحيى على صدر المعتقل، ثمّ هيّأ نفسه، وظنّ مع المعتقلين أنهم سيطلقون سبيله، فهمسوا في أذنه؛ ليخبر أهاليهم عن وجودهم أحياء، وحاول أن يحفظ عناوين المعتقلين؛ الذين يقطنون في دمشق ومحيطها، أي المناطق التي يعرفها، ثمّ تنبّه لغياب يحيى عن الوعيّ، فأيقظه على عجل، عانقه مودّعًا، من دون أن يعي يحيى ما يحصل حوله.. كان النوم قد غيّبه، ثمّ أدرك أنّ أباه سيُطْلَقُ سراحه في اللحظات الأخيرة التي وصل فيها السجّان، عانق الأب ابنه وأوصاه أن ينتبه لنفسه، وطمأنه أنهما سيلتقيان قريبًا خارج السجن، وصل السجّان، واقتاد أحمد خارج مهجع الموت.

هناك.. سألوه بضعة أسئلة، وأسمعوه أنين المعتقلين وصيحاتهم؛ الذين يقومون بتعذيبهم، ثمّ دفعوه إلى غرفة باردة معتمة، فاصطدم بجثامين مرميّة على الأرض، وارتمى على حائط الغرفة، ثمّ جلس القرفصاء، واضعًا رأسه بين يديه مفكّرًا في حجم الآلام؛ التي يعانيها مع شعبه، ولكنّه لم يشعر بمذلّة أو خوف، بل شعر بحالة من الفخر لقيام الثورة السورية؛ التي ستغيّر أحوال البلاد المتماوتة.

بعد فترة، أحسّها أحمد دهرًا، جاء السجّان، وفتح باب الغرفة، وطلب منه الخروج، وقال له:

- وضعوك – خطأ – هنا، أنت مقامك عالٍ يا أستاذ أحمد، والسجّان الذي وضعك يتعرّض لأشدّ عقوبة.

- .... لم يرد أحمد، فأكمل السجّان:

- من حقك ألّا ترد يا أستاذ.. على كلّ تفضل.

أدخله غرفة مؤثثة مكتبيًّا بشكل كامل، وأجلسه على كنبة، وخرج، ليدخل عليه من باب خلفيّ ضابط التحقيق، صافح أحمد، وقاده إلى قاعة داخليّة أثاثها على درجة عاليّة من الفخامة، وفي صدرها طقم كنبات فخم، وفوجئ أحمد بوجود الذيب، ومعه شخص آخر جالسين على كنبتين. صافحه الضابط ودعاه إلى الجلوس معهم معرّفًا:

- الأستاذ أحمد، مدير مركز دراسات، فردّ الشخص:

- تشرفنا، أنت أشهر من علم على سارية، أستاذ أحمد.

- ....

اختار أحمد مكانًا مواجهًا لكنبة الذيب، الذي رحّب بأحمد ضاحكًا:

- والله.. الدم لا يصير ماء يا أستاذ أحمد، شيخ أم الإبر وكلّ شبابها يريدون أن تخرج مع ابنك يحيى، الله يحميه، ليفيد أهله والوطن كله بعلمه الغزير.

- .... لم يجب أحمد، واستمرّ يحدّق في وجوههم، فأكمل الذيب:
- لا تُجب يا أستاذ أحمد عن كلّ الحكي، لكن فكّر فيه جيّدًا.

أخبره الذيب متناوبًا الكلام مع الضابط، أنّهم يريدون منه أن يظهر على تلفزيون القناة الفضائية السورية، ويتحدث عن الفتنة؛ التي تحاك، وأن يذكر معاداته لأمريكا مشعلة الفتنة، وأن يذكر صلات سالم أبو فرج الله مع السفارة الأمريكية، ووعده الضابط:

- إن شاء الله تشغل كرسي في الوزارة الجديدة، ما رأيك يا أستاذ؟
- .... استمرّ أحمد بالصمت، وتابع الذيب:
- من الآن أقول لك، لا يوجد أنسب منك يا أستاذ أحمد لمنصب الوزارة، هكذا قال شيخ أمّ الإبر، إذا كنت موافقًا أخبرني؛ من أجل أن أبدأ بترتيب الأمر، لباسك الرسميّ جاهز؛ حتّى تظهر على شاشة التلفزيون، وترجع غانمًا إلى بيتكم مع ابنك يحيى وفقه الله وحفظه.
- .... لم يجب أحمد بأيّ حرف، وكان يزداد تحديقه في وجه الذيب؛ كلما تقدّم في حديثه، إلى أن قال له الذيب:
- ما هو رأيك يا أستاذ أحمد، أتعطينا إجابة أو ردًّا الآن، أم تأخذ مهلة، ما رأيك؟
- .... من دون أن ينبس كلمة، تفرّس في جه الذيب، وتحرّك نحوه، ثمّ فاجأه ببصقة كان يقوم بتجميعها داخل فمه منذ اللحظة التي وقع نظره عليه، أصابت البصقة مركز وجه الذيب، الذي وقف مذعورًا.. ذهل ورفع يده ومسح بها آثار البصقة، واقترب من أحمد، وتوقّف عن الانقضاض عليه؛ بعدما لاحظ أنّ ضابط التحقيق يضحك قائلًا:
- ما الذي فعلته يا عكروت بابن حارتك، والله لأجعل من جلدك طبلًا، فردّ أحمد واقفًا:
- بعد 17 سنة اعتقال يريد منّي أن أشتغل مخبرًا! والله الموت أرحم يا سيادة الضابط...

خطا الذيب نحو أحمد خطوات يريد أن يصفعه، فأوقفه الضابط، وقدّم له مناديل ورقيّة قائلًا:

- اذهب إلى الحمام نظّف وجهك.

أعادوا أحمد إلى زنزانة منفردة، وبقي فيها أيّامًا، أمّا الذيب، فقد كلّفه رئيس الفرع بالذهاب إلى شـيخ أم الإبر، ليجد معه طريقة للتأثير على أحمد؛ حتّى يستجيب لأوامرهم.

***

اجتمع الذيب مع الشـيخ، وأخبره بأمر رئيس فرع المخابرات؛ ليثني أحمد عن عناده، وطبعًا لم يخبره عن البصقة في وجهه، ولكنّ الشيخ شعر بازدياد الكراهية؛ التي يضمرها الذيب لأحمد؛ لذلك قال له:

- يا دكتور، كأنّك على غير عادتك، عهدي بك أنك حنون على أهل أم الإبر، أمّا الآن.. فالأمر بخلاف ذلك، ما القصة؟

- اتركها – يا شيخ – بالقلب تجرح ولا تخرج وتفضح، ردّ الذيب مبديًّا قدرًا أكبر من الحقد والكراهيّة.

- على كلٍّ، اليوم نزور الدار الكبيرة، ونحثّ أهله للتأثير عليه، أصاب العمى قلبه، ما الذي يريده أكثر من مقابلات تلفزيونية ووزارة، وهم – الآن – جديّون بوعودهم، لأنّ البلد بورطة كبيرة.

- لا.. يا شـيخي، هم يعدونه بالوزارة؛ حتى يأخذوا منه كلّ شـيء، ثمّ يرموه مثل كيس القمامة، قال الذيب، وطلب من الشيخ عدم إفشاء السرّ، فردّ الشيخ:

- لا تستهن بأحمد يا دكتور، فهو مثقف، ويرضي الناس من حوله، لا تستبعد أن يعينوه وزيرًا.

في نفس المساء، دخل الشيخ والذيب من بوابة الدار الكبيرة، واستقبلهم عمر بالعباءة المقصّبة والعمامة، التي اعتاد كبار العائلة ارتداءها، أدخلهم القاعة الكبيرة، وقدّم لهما القهوة المرّة، فتناولها الشيخ، ولم يشربها بل وضعها أمامه، أمّا الذيب فقد شربها وطلبها ثانيّة، قال عمر للشيخ:

- كأن قهوتنا لا تروق لك يا شيخ!

- الله يرحم سلفك، هذه الدار مفخرة لكلّ أهل أم الإبر، مقامها ومقام أهلها دائمًا بالأعالي، وإن شاء الله سيكون واحدًا من أبناء الدار وزيرًا.

- يا شيخ، اشرب قهوتك، نحن راضون بما نحن عليه، فكّ الله أسر أحمد وابنه، ولا نريد وزارة أو أي منصب، فردّ الذيب:

- يا عمر نحن مكلّفون من قِبَل رئيس فرع الأمن العسـكري، أن نقابلكم، لتطلبوا من أحمد أن يليّن موقفه؛ حتى يفرجوا سبيله مع ابنه، حياة السجن بشعة يا عمر.

- أنا لا أعرف أين أحمد، أو أين ابنه! أخذوهما ولا ندري متى، وكيف، وأين؟ وتريد يا شيخ أن أصدّق وعودهم! كيف؟ بالله عليكم دلّوني، والله لم أعد أفهم، ما الذي يحدث، فقطب الذيب حاجبيه وقال:

- نحن سنوصلك إلى أخيك، مطلوب منك أن تعدنا بإقناعه بأمر بسيط، وهو أن يَظْهرَ على شاشة التلفاز، ويشتم الولايات المتحدة وإسرائيل، زاد الشيخ:

- والوعد تعيينه وزيرًا في الوزارة الجديدة، فلا تستهن بالأمر، عقّب الذيب:

- ليس وعدًا مؤكّدًا؛ حتّى ينفّذ ما يتفقون معه عليه.

- يا سيدي، أنا مستعد للذهاب معكم إلى أي مكان، لأقابل أحمد.

- أي.. شرط أن تقنعه بإدانة المؤامرة على البلد، قال الذيب.

- يا سيدي سأقنعه بكل ما تريدونه، المهم أخبروني متى أستطيع مقابلته، فردّ الشيخ:

- الآن صارت قهوتك مشروبة، وأنت على رأسنا أستاذ عمر.

شرب الشيخ القهوة وطلب مزيدًا منها، وهو يترحّم على السلف الصالح.

لم تكن سلمى في الدار، ولم يخبرها أحدٌ بزيارة الشيخ والذيب، ثمّ عرفت من جدّتها أمّ سليمان؛ بعدما سألتها عن سبب اهتمام عمر بهندامه قائلة:

- عقد العزم عمر على مرافقة الذيب؛ لمقابلة رئيس فرع المخابرات العسكريةّ، من أجل إخراج أبيك من السجن، لم تصدّق سلمى ما سمعت، جنّ جنونها، وصرخت بعمر:

- أنت يا عمر، أنت الذي يرضى الذلّ، أنت الذي علمتني كيف أُبقي رأسي مرفوعة، أنت من يرافق الذيب، ماذا سيقول أبي عنك؛ حينما يعرف؟ بالله عليك قل لي، يا عمّي، ثمّ غصّت بشهقة، فركض نحوها عمر أسندها على ذراعه، وقال لها:

- سلامة قلبك يا سلمى، تسلمي لي، بكل حالاتك، حزنك وغضبك وفرحك.. يا قلبي.. فأجابته بعد أن تمالكت نفسها:

- والله لا أعرف ماذا أقول لك؟ والله غير مصدّقة ما سمعت أذني... قاطعها عمر:

- الله يلعن كلّ خوّان، أنا لا أخون يا سلمى، أنا أريد أن أطمئن على حياة أخي أحمد وابن أخي يحيى، أريد أن يخرجا من السجن، إذا كانا على قيد الحياة، الذيب وجماعته أقذر ما أنتجه التاريخ، اتركيني وشأني يا سلمى، لعلّني أستطيع فعل شيءٍ... وقبل أن يكمل تفجّرت ينابيع الدمع من مآقيه، وارتمى على الأريكة وغطّى وجهه، فصرخت سلمى:

- أتبكي يا عمر؟ والله لا أصدق، أنت من علمت الجميع معنى الرجولة، أتبكي؟

مسح عمر دموعه، ثمّ غسل وجهه، وأخبرها بكل ثقة أمام أمّه:

- يا سلمى أنا مطلوب إلى فرع الأمن العسكريّ، سيذهب معي الذيب، لأقنع أحمد أن يعمل معهم، إذا تأخّرت عندهم، ولم أخبرك أكون معتقلًا، لا تخبري أحدًا؛ حتّى مساء اليوم التالي من غيابي، فأجابته أمّه:

- الله معك يا عمر، على الرغم من أنّ قلبي غير مطمئن لمشوارك.

- لا يهمّك يا أمي، لا يصحّ سوى ما كتبه الله لنا، المهم أن تنتبهي لنفسك وللدار وأهل الدار، وأنت يا سلمى لا تقلقي، أنا لست خوّانًا... فقاطعته سلمى:

- إياك أن تتنازل لهم، دائمًا فكّر بأبي كيف تصرّف في المواقف، التي تعرض لها، واستمرّ بطلًا.

- لا يهمّك يا عيوني، ثقي بي...

عانق عمر أمّه' ثمّ سلمى، وخرج نحو مقرّ جمعية التراث الثقافيّة؛ ليذهب مع الذيب إلى الفرع.

بعد اجتماعه مع رئيس فرع المخابرات، ومعرفته بشروطه لإخراج أحمد وابنه يحيى، أخرجوا عمر من المكتب، وأودعوه في غرفة بها كرسيّان قديمان وطاولة مهترأة، انتظر أكثر من ثلاث ساعات، وهو يسمع أصوات التعذيب ومناجاة المعتقلين لله، كان يتعجّب: "أين الله؟ أمعقول أنّه يسمح بهذا الظلم؟ أين انتقامه؟ إلى أن حضر سجّان، وأدار وجه عمر نحو الحائط بخشونة متعمّدة، ثمّ شرع يمسّد على رقبته، كما لو أنّه يستعدّ لصفعه، وبعد دقائق، دخل آخر، ومن دون أن يسمح له بالالتفات، ذكّره بما طلبه منه رئيس الفرع، ثمّ أجلسه على كرسيّ مُهترئ، وخرج.

وصل أحمد، وعانق عمر:

- طَمني عن الجميع، ما هي أخبارهم، أعرفتم شيئًا عن يحيى، تركته منذ أسبوع، ولا أعرف عنه شيئًا.
- لا والله، لا نعرف عن يحيى شيئًا من يوم اعتقاله، طمّني أنت عنك، وكيف تركت يحيى؟
- صار لي عدة ليال بالزنزانة، بانتظار أمرٍ أجهله، قد يكون إعدامًا، بعد أن بصقت في وجه الذيب؛ حينما طلب مني أن أصرح بالتلفزيون بأن أحداث الثورة بفعل من الأمريكان، وأنّ سالم أبو فرج الله والأستاذ منذر زارا السفارة الأمريكية سرًّا.
- وبمَ أجبتهم؟
- استطعت توجيه بصقة لوجه الذيب، وطبعًا رفضت، أبعدَ هذا العمر أصير لقلوقًا وواطيًّا يا عمر؟!
- قالوا لي: إنّهم اتفقوا معك لتصبح وزيرًا في الوزارة الجديدة!
- عمر! كيف وصلت إلى هنا يا عمر؟ من الذي توسّط لك؟ احك من الآخر، إذا كان عندك شيء، لا تلف وتدور، اِحكِ أنا لا ينقصني سخافات وأكل خرى...
- اصبر أبا يحيى، لا تعصّب، بصراحة أنا جئت لأقول لك: إنّهم جادّون في وعودهم، والخيار لك، حدّد موقفك، وفكّر بأمك وأخواتك وسلمى، وفكّر – قبل كل شيء – بيحيى، حفظه الله لنا بحقّ رسول الله الحبيب.
- لا أصدّق! أأنت، بمهمة أمنية يا عمر؟ أخي.. الله يستر عليك، اتركني، اتركني وشأني، قل لمن أرسلك، إنّني لن أتراجع عن موقفي؛ مهما فعلوا معي، سلم لي على أمك وأخواتك وانتبه كثيرًا على يحيى وسلمى ورام وأمي، وسلّم على سارة وكوثر وسلمان وشباب المركز كلهم، ووصيهم أن يكمّلوا الدرب الذي سرناه معًا، أنا لا أريد أن أخرج من السجن، أتأمّل من الله أن يفرجوا عن يحيى في القريب العاجل، وأنا نذرت نفسي للموت، ثمّ استدار؛ لينهي الزيارة.
- لكن يا أحمد... ثم سكت لحظة لمح فيض الدموع يفيض مدرارًا من عيني أخيه الذي قال:
- لا تكمّل.. معدتي بدأت تؤلمني، لم أكن أتوقّع منك هذا الموقف يا عمر!

- يا أحمد.. لنكن واقعيين...

- يا أخي.. ابق وحدك واقعيًّا، أنا خياليّ، الله يجبرك، قم وامش قبل أن تسعفني إلى المستشفى.

وقف أحمد واتّجه نحو الباب، ونادى للحارس، وطلب منه أن يأخذه إلى الزنزانة.

لم يردّ عليه الحارس، ثم قال له عمر:

- يا أحمد يا عيوني، دعني أفكر بدلًا منك لمرة واحدة، أنا أخوك الصـــغير،... ولكنّ أحمد كان قد صمت عن الكلام، ولم يعد يسمع، بل أبدى استياءه، أما عمر فاستمرّ بالحكي، من دون أن يتلقى إجابة، ثمّ ســـاد الصـــمت، ســـوى من بعض الجمل؛ التي كان عمر ينطق بها من دون أدنى إجابة أو التفاتة من قبل أحمد.

انتهت الزيارة، وأخذوا أحمد إلى الزنزانة، وعمر إلى مكتب رئيس الفرع، الذي قال لعمر:

- خيي عمر الذي عليك فعلته، اترك البقيّة علينا، ثمّ سُـــمع صـــوت الجرس، وحينما وقف عمر تجرأ، وقال:

- يا سيادة العميد، أعيدوه إلى مهجع ابنه؛ فمن الممكن أن يقنعه د. يحيى بما تطلبونه.

فأشار الضابط للعسكريّ بإخراج عمر، التقى بالذيب في غرفة جانبية، ثمّ أُخرجا من الفرع.

67

لم تعد آلام معدته محمولةً! كيف تهدأ، وصوت التلفزيون يصله من الغرفة المجاورة، ويخترق أذنيه بصوته المرتفع؟! ولم يرغب أحمد إلى خفض الصــوت، حتّى لا يجرح كبرياء الجدّ الذي خفّ سـمعه كثيرًا، والراغب في الاسـتماع لأخبار تختصّ بالسـوريين، وقد رفعوا الصـوت من أجله؛ ليسـمع خبرًا عن قرب حلّ المشـكلة السـورية، بعد ما أكّد كوفي أنان على دعوته لعقد مؤتمر جنيف اسـتعدادًا للشـروع في المرحلة الانتقاليّة، اضطره الأمر للخروج إلى صيدلية مجاورة، وأخذ حقنة مهدّئة، ثمّ رجع إلى البيت، واختار أخبارًا من مصادر متعددة على شبكة الإنترنت، ووسـائط التواصـل الاجتماعيّ؛ التي انتشـر فيها هاتشـاجات وصـور وتغريدات تعلن عن تواطؤ النظام الدوليّ مع سـلطة النظام ضـد الشـعب السـوريّ، وما لفت انتباهه في أخبار وكالات الأنباء العالميّة أنّ وزير خارجية روسـيا أكّد على عدم قبوله معالجة وضـع الأسـد في المؤتمر، في حين هيلاري كلينتون قالت: إنّ أيّام بشّار الأسد أضحت معدودة.

دسّ أحمد يده في جيبه، فوجد الورقة التي التقطها عن أرض غرفته قبل خروجه إلى السـاحة لمشـاركة الموسـيقيين الغناء، فتحها وقرأ محتواها: "الحقني أنا أمامك على سـطح البناء" تسـاءل عن مصـدر الورقة، ثمّ رماها في سـلة المهملات، لأنّه لا يعرف من كتبها.. حيث لم يزره أحد في غرفته منذ أيام عديدة، وبعد قليل لمعت في ذهنه لحظة تخيّله انفتاح باب غرفته قبل ليلة فائتة، حينها التفت، ولم يجد أحدًا: "ربما رماها شخص واختفى"، ورجع إلى سلة المهملات، وأصلح ما خرّبه في الورقة، وتأمّل في كلماته من جديد، متسائلًا: "تُرى من رماها إلى غرفتي ومضى، أمام من حكيت عن صعودي إلى السطح فجرًا،..." تذكّر أنّ أفراد الأسرة الحمصيّة هم من كانوا قلقين عليه مع شباب التنسيقية؛ حينما تغيّب عن غرفته، وظنّ أن أمّ خديجة هي من رمتها بعد محاولتها الفاشـلة الفجور معه قبل ليلتين، ثمّ قرعت خديجة الباب، واسـتأذنت الدخول، وجلسـت أمامه، وسألته:

- أستاذ من أصدق الروس أو الأمريكان؟ الروس يرغبون في بقاء بشار والأمريكان يرغبون عنه.
- لا أعرف، المشكلة ليست عند الروس والأمريكان المشكلة فينا، نحن أعداء أنفسنا، على كلّ ستعرفين على سطح البناء من منهم أصدق يا ديجة.

ذكر أحمد السـطح، لتيقّنه أنّها هي من رمت الورقة ليلًا، وانتظر ردّة فعلها متخيّلًا أعلى فخذيها الذي انكشف له قبل يومين في أثناء نومها.

- ما فهمت أستاذ!

-   كيف لا تفهمين؟ زيارة السطوح يا ديجة ممتعة، ألا تعلمين؟

-   كأنّك تضيّع أستاذ، أنا أسألك سؤالًا واضحًا، وأنت تجيبني كأنك محشّش! انتبه أحمد لنفسه، وتراجع عن شكوكه بخديجة، ونقلها لأمّها، ثم أخذ وضعية المفكّر قائلًا:

-   السياسيون القدامى أعاقوا فاعلية الشباب بقصد أو من دون قصد، ويدعون تمثيل الثورة، والمخابرات السورية نجحت باختراق صفوف الثورة عن طريق بعض المنشقّيْن والتكفيرييْن سرًّا، وحزب الله وكتائب الشيعة علنًا، وجيش السلطة تحوّل إلى أكبر الميليشيات المتقاتلة، والجميع يسعى إلى الاستعانة بقوى خارجية بما فيها إسرائيل وإيران.. إنّ ثورتنا يتيمة، يا ديجة، والثوار لا يعرفون إلّا الحصول على الحرية والكرامة.. وللأسف، لا أحد يريد لبلدنا أن يتحرّر ولا لشعبنا أن ينتصر...

-   يسلم فمك يا أستاذ، الآن ملأت رأسي.

-   أفهمت يا آنسة ديجة؟

-   تقريبًا.. لكن هل اقترب الحلّ برأيك؟ متى سأعود إلى حمص، والله اشتقت لأصدقائي ومدرستي وحارتي!

-   .... صمت أحمد، ثمّ طلب من الطالبة أن تنشئ له بريدًا إلكترونيًّا جديدًا، وأن تفتح له السكاي بي وتتصل بروز، أراد أن يفتح سيرة يحيى معها، أراد أن يسألها إن سمعت أيّ خبر عنه، أراد أن تخرجه من رعبه، الذي كاد يقتله، أراد أن يسمع صوتها.. ثمّ ارتسمت أيام السجن الرهيب مع يحيى في عينيه: "ما الذي حصل ليحيى؛ حينما رجع من حمّام مهجع فرع مخابرات الأمن العسكريّ، وهو دائب التفكير بمصيري؟ كيف كانت أحواله بعدما أخذوني من دون أن يعرف أحد وجهتي؟" استعاد حكايات السجن، وتداعت أفكاره حتى وصل إلى جورج إبراهيم؛ بعدما خرج من سوريا إثر اعتقاله، الذي لم يتأخّر بالظهور إلى جانب حليفه الذيب ابن شطمة.. لاحظت الطالبة خديجة شروده، فقالت له:

-   ما بك أستاذ، ارمِ الماضي من وراء ظهرك، الدنيا تبدأ من الآن، فرفش وافرح وبكرة ستجد يحيى أمام عينيك بعون الله.

-   الله يسمع منك، يا أمورة، أنت يا ديجة مؤنستي في هذا الليل الطويل، حماك الله يا ديجة من كلّ مكروه، وأبعد عنك أولاد الحرام.

لا شيء سوى صرخات الموت

(نازك الملائكة)

ازداد قلق يحيى منذ اليوم الثاني لتغيّب أبيه أحمد، ثمّ ظهر عليه الضنك والتعب، لا سيما عندما رجع من الحمام، ولم يجد مكانه فارغًا؛ إذ شغله نزلاء (معتقلين) جدد في مهجع الذلّ والموت، صار يحيى يجوب

المهجع الواسع والكبير جيئة وذهابًا؛ لإيجاد بقعة صغيرة من دون جدوى، وكان يقف قرب جورج إبراهيم، الذي شغل زاوية مع جاويش المهجع وبضعة كهول، مستعرضين فذلكاتهم السياسيّة، وكان يحيى يتألّم كلما نظر نحوهم؛ إذ يستشعر نظرات جورج المقيتة له من دون سبب، وازداد مقتًا له؛ حين عارضه يحيى، وهو يشيد بالنظم الديمقراطية الغربيّة؛ التي تحترم شعبها، مقارنًا بينها وبين تاريخ القهر الإسلاميّ؛ إذ ذكّره يحيى – وسمعه جميع من حوله – أنّ التاريخ الإنسانيّ برمته تاريخ قهر، وتحدّث عن محاكم التفتيش وجرائم المهاجرين البيض بحقّ الأصلانيّين الهنود الحمر في أمريكا الشماليّة، وعن جرائمهم بحقّ العرب منذ القرن التاسع عشر ونكبة فلسطين ونكسة 67م وتمكين الغرب أنظمة الفساد والذلّ والأقليات الفرعيّة في استلام سلطة الدّولة المتواطئة والهيمنة على جيشها، بظل رعاية بؤر الفساد العالميّ وإسرائيل؛ لقمع شعوبها وتفتيت الأوطان ومحو هوياتها، ذكّر يحيى الرفيق جورج بملايين الضحايا في فلسطين ولبنان وسوريا والعراق والجزائر والسودان وليبيا واليمن والصومال وأفغانستان ويوغسلافيا السابقة، وحطّ من شأن حضارة لا تحترم حقّ الإنسان بالحياة، وقبل أن يتمّ كلامه، وصل سجّان إليه من دون أن ينتبه له، وخلفه كان الجاويش، أمّا جورج إبراهيم فتوسّط الاثنين مقتربًا من يحيى، صارخًا في وجهه:

- أنت تريد أن تعطينا درسًا في الفكر، نحن أعرف منك ومن أبيك الفوضوي والمتطرّف؛ الذي لم يجد مكانًا له بين التقدميين، فسقط في أحضان الرجعيين، ثمّ لكزه بوجهه، وطرده من أمامه، فتلقّفه السجّان ووجّه له صفعات عدّة، ودفعه خارج المهجع، ولم يعد يحيى؛ إلّا بعد أن عاقبوه بتعليق جسده عاريًّا على حائط على طريقة (الشبح)؛ التي يعرفها ممن اعتقل زمن سلطة الموت الشموليّة، وبعد تلك الليلة الشبحيّة، أودعوه زنزانة مع شابين ينتظران حكم إعدامهما، وظنّ أنّه محكوم بالإعدام معهما؛ فتهامس معهم عن محنتهم سويّة، ورضوا بقدرهم، وكان يحيى يصمت أمام جلال موقفهما، وفهم أنّ الناس تتساوى مع بعضها في الموت، على الرغم من تعدد أسبابه.

جاءهم سجّانان ليلًا، أحدهما همس بأذني المحكومين بالإعدام تباعًا، أن يشهد كلّ واحد منهما على روحه، أخذوهما، وتركوا يحيى وحيدًا، حتّى ظهيرة اليوم التالي، أعادوه إلى المهجع، ليبدأ مشوار بحثه المضنيّ عن مكان، يمكّنه أن يركن جنبه فيه.

***

أعادوا أحمد إلى مهجع السجن الرهيب، فوجد يحيى في حالة قلق وحيرة، ولم يكن يعرف إن كان أبوه قد خرج، أو نقلوه إلى سجن آخر، أدرك أحمد انّ ابنه ليس على ما يرام، فالإرهاق بادٍ على هيئته، والحزن يقطر من عينيه كلتيهما.. عانقه، واحتضنه من جديد في بقعة تنازل لهما عنها شباب دمشق، لا تتسع إلّا لجلوسهما متعانقين، بعد أن تأثّروا بمشهد عناق يحيى لأبيه؛ حين انسكبت دموعهما.

لم يكد يحيى أن جلس؛ حتّى استغرق في نومةٍ دامت ساعات، ولم يكن أحمد صاحيًّا، فقد جاراه في النّوم أيضًا، ثمّ وعيا لبعضهما، شربا ماءً، وهنّأ يحيى أباه بالسلامة.

أخبره أحمد، وهو كليم الروح والفؤاد، بما جرى معه وعن لقائه بعمّه عمر، المذعن لطلبات المخابرات، وشكّك بنواياه، احمرّت عيناه، وكاد أن ينفجر، ثمّ فوجئ بابتسامة يحيى وامتداحه عمّه عمر:

- لقد تصرّف بشكل صحيح عمّي عمر، فهو جاء ليطمئن علينا، ولم يأت لإقناعك كما تتصوّر حضرتك.
- أمعقول يا بروفسور عصرك؟! لا.. فهو طلب منّي القبول بطلباتهم يا يحيى!
- بابا عمر بطل، وذكي، أفسحت له فرصة للاطمئنان عنك فاستغلّها بشكل جيّد.
- إن كان كلامك صحيحًا، فكم أنا غبيٌّ!

ثمّ ضحك يحيى كثيرًا؛ حينما أخبره بالبصقة؛ التي استقرّت في وجه الذيب ابن شطمة.

على أحرّ من الجمر، كان يحيى ينتظر لقاء أبيه، وإن لم يكن يتوقّع ملاقاته بالسجن، بل في رحاب حريتهما؛ راغبًا إلى إتمام حكايته التي تقلقه كثيرًا، كان يسابق حدثًا جللًا ينتظره، شرع في استكمال سردها، ولكنّه لم يقدر على الإفصاح عن مكنونات نفسه؛ كان يتأتئ، ويعجز على إيصال فكرته؛ إذ داهمه النعاس، فنام واضعًا رأسه على صدر أبيه من جديد.

في أثناء نومه الذي دام ليلة وبضع ساعات من النهار التالي، تصلّب ظهرُ أحمد، وآثر أن يقلّل حركته قدر الإمكان؛ حتّى يتسنى لابنه أن يأخذ قسطًا من الراحة بعد معاناته في مهجع الموت، ثمّ اقترب منه شاب دمشقيّ، واساه على آلامه، وقال له:

- عمو، ظلّ د. يحيى الأيام كلّها؛ التي غبتها عنه من دون أكل ولا نوم، تعرّف إلى سجين خرج قبل عودتك بيوم، هو يعرفك، ولكنّه لم يقدّم أية معونة ليحيى أو لغيره، بل أساء له، وسبّب له عقوبة، كان ينام بمساحة واسعة إلى جانب شاويش المهجع، يأكل كما يشتهي، ويتشاجر مع الجميع من أجل الطعام.
- ما اسمه؟
- جورج... كان يجلس في تلك الزاوية التي أورثها لقريب له.
- وما اسم عائلته؟ وما هي تهمته؟
- لا أعرف، ولكن الجميع عرف أنّه جشع وكريه في علاقاته مع المعتقلين.

نظر أحمد إلى قريبه، كان سبعينيًّا، لم يعرفه، ولم يقترب منه، ولكنّه شكر الشاب، قائلًا:

- انتبه علينا يا ابني إذا أخذت غفوة.
- تكرم عمو أحمد.

هدّ أحمد التعب والأرق، فأخذته سـنة من نوم، وزارته ماري سـمعان، طافت فوق رأسـه، ولامسـت وجهه، فابتسم لها، وغابت.. رفع يديه نحو الأعلى، وصرخ:

- ماري ماري، توقّفي يا ماري، ماري...

استيقظ من نومه مذعورًا، فتحلّق حوله بضعة شباب، منهم من دمعت عيناه ومنهم من شرع بمواساته... أمّا يحيى فتحرّك قليلًا من دون أن يقدر على الاستيقاظ.

خمسينيٌّ يبكي أمام شباب صغار جلّهم دون العشرين من عمرهم، بكى على فقده ماري روحًا كانت قد منحته الحياة، وعلى ثريّا التي علمته معنى الحياة ذبحًا، وأخاه إبراهيم الذي مات من أجله قتلًا، وجدته نعيمة التي ماتت كمدًا عليه، وخديجة انتحارًا، وسليمان اغتيالًا، وفقده أخته هيام وزوجها مروان سفرًا، وفقده ناديا قطري جهلًا بمصيرها، وعبد الحكيم جنونًا، وابنه محمد تطرفًا، وسالم ورفاقه الذين بلغوا عشرات الألوف من شهداء الغوطة الشرقية وداريا والقابون وقدسيا ومعضمية الشام وجوبر و...، الذين كانوا يتساقطون يوميًّا برصاص شبيحة السلطة وميليشياته، أضحت سوريا مسلخًا لشرذمات يشتغلون لدى بؤر الفساد العالميّ، يدمّرونها ويقتلون أهلها ويشردونهم ويعتقلونهم ويغتالون مستقبلها.. ينظر إلى يحيى، وهو مستغرق في النوم، ويتساءل هل سيفقده أيضًا؟ وماذا لو فقده؟ ما الذي يبقى له من هذه الدّنيا؟ تذكّر أمّه وعمر وسلمى ورام، وتساءل عن مصيرهم وسط الدمار، ولم يخرجه من اضطرابه سوى أصوات من فقد عقله في ذاك المهجع الرهيب، حيث يعيده إلى واقعيته، ثمّ تخطفه ذكريات معتقلين؛ أعدموا في سجن تدمر، وآخرين يموتون يوميًّا،... بدأ شباب المهجع في مواساته، كفكفوا دموعه، وتأمّل في وجوه المحيطين به، التي تحمل سمات مشتركة، توحّد بين صلابة الرسول الأعظم الحيّ في ضمائرهم، ورقّة عيسى المسيح؛ التي استحالت أمام أعين قاتليه أشكالًا عدّة، حتّى استمرّ حيًّا، وماتوا:

- أنا أبكي يا شباب على المسيح الذي تخلّى عنه أهله؛ الذين أحضروه مكبّلًا، كانت دماؤه تسيل من جسده، فأنكره حواريوه، ثمّ قتله شعبه في القدس، كان الشعب ملتفًا حول الحبر قيافا، مناديًّا خلف هتافاته: "الموت للمسيح، الموت للمسيح،..." أدخلوه إلى قصر بيلاطس، ملك الروم المحتلّين، كانت هيئة المسيح تدلّ على حجم إجرامهم، قادوه مكبّلًا، والدماء تتدفّق من جروحه، ثيابه ممزقة، قلة منهم من استطاع رؤيته، ومنهم زوجة بيلاطس التي انبهرت بضياء انبعثت من وجهه؛ لأنّه يمثّل الحبّ الخالص، فطلبت من زوجها عدم قتله قائلة له: "إياك وذلك البار.. لأنّني تألمت اليوم كثيرًا في حلم من أجله"

حاول بيلاطس أن يحثّ جموع شعب قيافا، حبر اليهود، على التنازل عن مطلبهم بصلبه، ولكنهم رفضوا شفاعته مرات عدّة، وعندما هدّدهم بإطلاق باراباس ممثل الشرّ الكامل، إذا هم أصرّوا على إعدام السيد

المســـيح ممثل الخير المطلق؛ هتفوا بصـــوت واحد خلف الحبر قيافا: "يحيا باراباس.. يحيا باراباس.. يحيا باراباس.. الموت للمسيح..."

صــلبوه، أو شـبّه لهم – يا شـباب – ولكن المؤكّد أنّهم أذاقوه أكثر شـرور عذاباتهم المقيتة؛ لأن حياتهم وسـلوكهم وعقولهم لا تتوافق مع المحبة والخير، الذي مثّله المسـيح عيسـى.. تصـوروا – يا شـباب – أنّهم ارتضوا باعتداءات باراباس اليومية على كراماتهم وحرياتهم وممتلكاتهم، بل استمرائها، كما يحصل مع باراباس سـوريا – الآن – وشـبيحته الإمعات، تُرى أليس حقّ علينا أن نكون مع عيسـى المسـيح؛ الذي اسـتنسـخه السـوريون عشـرات ألوف المسـحاء من شـبابهم في ثورتهم العظيمة؟ ألا ترون قيافا ومسـتنسـخيه في سـوريا وإسـرائيل وأمريكا وإيران، لا يزالون يهتفون: "الموت للمسـيح، والحياة لباراباس،..." كان أحمد يحكي، مرتجفًا من شـدّة الوجد؛ حتّى دمعت عيناه من جديد، لحظة تذكّر قامة سـالم، هتّاف مدينة دوما، الذي حضـر لحظة اسـتشـهاده، ثمّ لمح رأس ثريّا مرميًّا، فترنح وغرق في دموعه، وأبكى جميع من كان ينظر إليه؛ أو يسـمعه.. كفكف الشباب له دموعه مجددًا، وسقوه ماء.. فاشتدّت عزيمته وأكمل:

- يا شـباب لم يصـلب المسـيح، لأنّ الخير لا يموت، الحبّ الذي جبل منه صـانه، وتحوّل نحوكم، إنّ الشرور هي التي تموت، ثمّ تنهّد، واستنشق هواء، قائلًا:

- لم يبق مع المسـيح في محنته سـوى النســاء اللواتي آمنَّ به، وأولهن مريم المجدلية وبقية المريمات وسالومة ومرثا، لهنّ الفضل بانتشار المسيحية في ثلث المعمورة، واستكمال أقل من ثلثها الآخر بالإسلام منذ عهد الرسول الأكرم؛ الذي لاقى الويلات من قومه أيضًا، إلى أنّ قدّر الله له الانتصار على شرورهم – وأيضًا – كانت النسـاء الأكثر إيمانًا بالرسـول ونبوته، ألا تعرفون أفعال خديجة وعائشـة وما يذكرونه عن زوجاته.. عن أسـماء ابنة بكر وغيرها؟ وعن شـباب التفوا حوله يقاتلون الشـياطين والأشـباح، والآن: ألا تلاحظون دور نساء سوريا العظيم في إذكاء روح ثورتكم؟

اسـتأنس أحمد بنسـمة مرّت في ليله المدلهم؛ إذ اسـتنشـق من أنفاس الشـباب التي اعتلت سـماء المهجع بسحاب رقيق يمطر حبًا، وتحرّك قليلًا، متخلّصـًا من يباس ظهره، وابتسم ليحيى المأخوذ بنومة، وتأسّف لما يسبّبه له من تعب في نومه.

حلّ المسـاء، وأحضـر السـجّانون العشـاء، قسّموا المعتقلين؛ إلى مجموعات تتناوب تناول طعام العشـاء، فالمجموعة الأولى تأكل، وينتظر الآخرون وقوفًا، ثم يتناوبون الجلوس والوقوف، أربع مجموعات متتالية، سوى زاوية المعارضـة المدللة – كما رغب شابٌّ دمشقيّ في تسميتها – فهي لا تخضـع للمناوبات، منذ زارها الرفيق جورج إبراهيم لفترة مقدّسة، وأخليّ سبيله، ليلتحق بمسار السياسة المعارضـة خارجيًّا.

أكل يحيى، وشــرب ماءً، وحاول أن يطعم أباه، وأن يكســر امتناعه عن الطعام، فرفض، وبعد أن انتهى السـجناء من العشـاء، حشـر أحمد جسـده في زاوية، وأوكأ رأس يحيى على صـدره؛ ليتابع ما كان قد بدأه قبل أيام، وبصوت أقرب للهمس، قال يحيى:

- كنت قد حكيت لك عن خروجي من بلدتي بيت قوفا يا بابا، قبل أن يأخذوك.
- أي يا عيوني، ولكن ألا تستطيع نسيان قصة التقمّص هذه؟
- ....

لم يرغب يحيى إلى سماع سؤال أبيه، واستأنف الكلام، كأنّه يسابق زمن المآسي من جديد.

***

وصـل ضـائع إلى تخوم حاضـرة، لم يرها من قبل، طابعها العمرانيّ يختلف عن طابع عمران قريته، جلس من جديد على قارعة درب تحت شــجرة مشــمش وارفة، وأخرج زوّادته، وحاول أن يتناول شــيئًا من الطعام، ولكنه لم يستطع ابتلاع لقمة واحدة، تابع مسيره بين بساتين تتوسطها منازل صـغيرة، إضـافة إلى بيوت كبيرة فخمة قليلة ومنعزلة عن بيوت مهلهلة ومتناثرة؛ إلى أن حلّت الظهيرة.

صـادف جامعًا، تذكر حلمه مع الحمامة، فدخل إليه، توضّـأ، وصـلّى في محراب مسجده في خشوع، وبعد أن انتهى توجّه نحو شـيخ، واسـتأذنه في النوم داخل الجامع، فسـأله الشـيخ عن مرامه، فلم يجب، بل أطرق وبكى ألمًا، سالت دموع عينيه على خديّه، تراجع الشيخ إلى زاويته، بعد أن سمح له بالنوم في حجرة قريبة من مقام جامع سيّد النّاس.

وضـع ضـائع رأسـه على أغراضـه، فغفا على الفور من شدّة تعبه، ولكنه تململ واستيقظ صـارخًا؛ إثر حلمٍ رآه، ركض الشـيخ الذي كان لا يزال متسـائلًا عن سـرّ الصـبيّ، وسـأله عن أحواله، جلس ضـائع، وحكى أنّه رأى في حلمه حمامة ترفرف فوق رأسـه، تحاول أن تقول شيئًا، ولكن غرابًا كبيرًا منعها، ونزل عليه ناعقًا فوق رأسه، قائلًا له:

- اخرج اخرج، أنت لست إلّا مسخًا من شيطان.

أما الحمامة، فصمتت وتوارت خلف أوراق غصنٍ، اندسّت؛ حتّى غفل عنها الغراب، وطار بعيدًا، فهبطت نحوه من جديد، وطمأنته، ومنحته سنابل قمح وقالت له: "ازرعها يا عربي، واجعل الأرض في سنبلة".

قال له الشيخ:

- اسمك – إذن – عربي، استعذ بالشيطان يا بني وسمّ بالله وعد إلى النوم.

لفت الصبيّ انتباه شيخ الجامع، وحين حلول فجر اليوم التالي صلّى إمامًا، وبعد الانتهاء من الصلاة انفرد الشيخ بالفتى، وسأله عمن يكون؟ وما وجهته؟ فنطق باسمه الذي أطلقه عليه رسول الربّ والحمامة:

- أنا عربي، تهت عن أهلي، ولا أعرف كيف أعود إليهم، وصـــــلت إلى هنا، ولا أعرف أحدًا في هذه البلاد.

لم يرغب شـــيخ الجامع أن يثقل على عربي، لما أحسّ بفيوض لطفه الحبّي، وبرهافة مشـــاعره، فاكتفى بالصمت أولًا، ثمّ بادره:

- إذا أردت أيّ شـــيء أخبرني، أنا خادم الجامع، تجدني – غالبًا – في غرفتي قرب الباب الخارجي، شكره ضائع، واتكأ من جديد قرب مقام سيّد الناس.

في الليلة التالية نام في الجامع، ثمّ تابع المنامة لليالٍ متتالية، وكان يتناول طعامًا قليلًا مع شيخ الجامع؛ إلى أن قاده الشيخ، إلى ذاك الحمّام المتوسّد فرعًا من فروع نهر بردى على شكل قناة عند انعطافه، ليشكّل فرعًا له باسم القنوات، هناك أودعه عند صاحب الحمّام، وأوصاه بألّا يثقل عليه بأسئلة عن أهله وأوضاعه، فكان يســـاعده نهارًا في تنظيف المكان الذي يجلس فيه، ويأكل عنده، ثم ينام في زاوية من زوايا الحمام، أدهشت عربي مياه النهر الصافيةً، وعذوبتها، وكان يحلو له أن يشرب الماء بعد أن يغرفه بيديه كلتيهما، ثمّ اكتشـــف أن مياه القنوات تتفرع إلى فروع كثيرة، وتدخل في البيوت؛ لتروي قطّانها، وذلك بإملاء فســـقيّة أو خزان ماء يقال له باللهجة الشامية (البحرة) التي تتوسط أرض الدار، ثمّ تحويل المياه إلى الدار التالية، وهكذا حتى يرتوي أهل حيّ قنوات من مياه بردى، ولاحظ حسن الجيرة مع شيوع المحبة والمودّة فيما بينهم، وتمنّى أن يكون أحد القطّان.

بعد أســابيع من إقامته اطمأنّ صــاحب الحمّام لأمانته، فسلّمه إلى رجلٍ؛ ليقوم بمســاعدته، ويتعلّم منه أصول مصلحة تنظيف المقصورة الوسطانية، وبعد أيام اكتشف ضائع، الذي بدأ يعتاد تغيير اسمه لعربي، أن الرجل القيّم على عمله ليس سوى لصّ صغير، يعمل لصالح رجل آخر يخفي حسابات الحمام عن صاحبه الحقيقي، وكان يريد منه أن يكون آلة بيده، فطلب منه أن يســـرق، أو يأكل أكلًا ليس له، أو يكذب، فكان عربي يمتنع، وبعد محاولات عدّة فشل في إفساده، فتركه من دون أكل بضعة أيام متواصلة، فهزل، وبان الضعف عليه، فسأله صاحب الحمام عن حاله، فحكى للقيّم معاناته مع ذاك الرجل، فأطعمه، وطرد اللصّ من الحمّام، وخوفًا على عربي من الانتقاك، أبعده وقدّمه لقصـــر الأفندي نور الدين العظم، وهناك بدأ في التنظيف والمشــاركة في إعداد الطعام مع طباخةٍ اسـمها زهرة، كان يحلو لها أن تهزأ من طيبته ودروشـته، وكان عربي لا يردّ عليها سوى:

- سامحك الله يا سيدتي، على إهانتي،...

وبعد أيام قدّمته لســيدها الأفندي نور الدين في القصـــر، وهناك طلب منه أن يخدمه ليلًا؛ حينما تنعقد طاولة القمار وشرب الخمور، وبعد أن حاول الأفندي وسيدة المطبخ إدخاله في عالم الرذيلة، تمكّن في ليلة

قمراء من ترك القصر، والدخول إلى قرية سأل فيها عن كيفية وصوله إلى جادة الحمزاوي، إلى أن وصل حيّ مأذنة الشحم في المدينة، وهناك تخفّى في جامع من جديد، وهو يتوق للوحدة؛ بعيدًا عن شرور البشر، كان يقتات القليل من الطعام، الذي يقدّمه جيران المسجد للاجئين إليه، مرّ عليه بضعة أسابيع، وهو على هذه الحال، وبات يمتدحه كلّ من يسمعه مرتلًا القرآن.

في شهر رمضان لاحظ ازدياد الناس في المسجد، وفي إحدى لياليه كان يشارك في صلاة التراويح، اقترب منه رجل ملتحٍ وعلامات الإيمان باديّة على محياه، لباسه فضفاضٌ على جسده، وسبحته طويلةٌ، اقترب منه، وسأله عن اسمه، ثم دعاه إلى منزله، ليعرّفه إلى بقية أفراد أسرته، لبّى عربي الدعوة، وهناك شاهد ما لم يكن قد توقّعه، فقد تحوّطه رجال قساة الملامح، كانوا يتحادثون عن الحمام والصيدات، ثمّ بدأ بعضهم يغمز من عربيّ؛ مخاطبًا الملتحي، الذي وصل برفقته:

- ما هذه الصيدة أبو دياب؟ من أين جلبته؟ كيف أرسله الله لك؟
- حين كنت في الجامع شعرت أنّه خُلق من أجلي،...

ثم خاطب عربي:

- تعال لعندي يا روح قلبي، لم يعد عندي طاقة على فراقك.

حضر إلى ذاكرة عربي ابن عمه فريد ورفاقه في قريته بيت قوفا، وأدرك أن موقف اغتصابه، يتكرر مع غلاظ القلوب هؤلاء، فصمت قليلًا، وتدبّر حيلة خروجه إلى جانب الدار لقضاء حاجته.. تحرّر منهم، وتسلل مغافلًا، فتح باب الدار الخارجيّ، وركض هاربًا، وحين اكتشفوا تأخّره وغيابه، كان قد توارى عن أنظارهم؛ مبتعدًا عن ذلك المكان، ولكن مروّعًا، لاهثًا لا يعرف له وجهة، إلى أن دخل في حارة ضيقة، وهو في حالة من الهلع الشديد، فالتقاه رجل، اقترب منه، وسأله ممن هو هارب، ولماذا هو على هذه الحالة، فامتنع عربي عن الجواب، ثمّ انهمرت دموعه من عينيه، حاول الرجل تهدئته، ودعاه إلى بيته، ولكن عربي رفض، وانزوى مرتابًا من الرجل خائفًا.. لم يتركه الرجل، حاول مساعدته واقتياده من جديد، ولكنّه أبى أن يتحرك من مكانه، إلى أن وصل بعض الرجال، ووقفوا إلى جانبهما استطلاعًا للأمر، وشرعوا في التخمينات عن حال الصبيّ، وفي غمرة اهتمامهم، وصل الشيخ الذي التقاه في جامع سيّد الناس منذ أشهر، فألقى التحية، ثم سأل عن سبب تجمهرهم، ونظر نحو الصبي القابع صامتًا، فعرفه:

- عربي؟! أما عرفتني عمو؟ يا عربي حدّق في وجهي، أنا شيخ جامع سيّد النّاس، حدّق عربي بوجهه، وعرفه، ارتمى عليه، وهو يشهق باكيًّا.
- هل اعتدى أحدٌ عليك؟ أخبرني؟ يا ابني؟ والله في كلّ حياتي لم ألتق صبيًّا طاهرًا مثل طهارتك يا غالي، احك أأصابك مكروه؟ لماذا تبكي يا عربي؟ أخبرني يا ابني!

أمام صـــمت الآخرين، وأنين عربي، طلب الشــيخ من رجل يعرفه اصــطحابه إلى بيته القريب، ولم يهدأ عربي، إلّا لحظة وضع شيخ جامع سيد النّاس يده على كتفه، ورافقه إلى بيت الرجل.

هناك.. بعد أن اغتسـل بمياه باردة، بدأت الروح ترتد إليه، جلس بين الشـيخ والرجل، وحكى لهما مشـاكله بدءًا من الحمام، وهروبه من بســـتان الأفندي، ثمّ حكى لهما عن الرجل الملتحي، الذي قاده إلى مكان آثم، وكيف أسـفر عن نواياه الرديئة مع آخرين معه، وأخبرهم عن كيفية هروبه ووصــوله إليهم، شـكروا الله على نجاته من أياديهم، وهنّؤوه على سـلامته، وسـألوه من جديد عن قومه وموطنه الذي جاء منه، ولكنه صـمت بداية، ثمّ لم يتمكّن من الإجابة صراحة:

- تهت عن أهلي، ولا أعرف لهم موطنًا، ثم طلب منه الشيخ أن يبقى متذكّرًا ملامح الرجال؛ الذين هرب منهم؛ حتى ينالوا عقابًا شديدًا.

أحضـرت زوجة الرجل طعامًا من حواضـر البيت، مع إبريق من الشـاي السـاخن، ودعوه للطعام، رفض بداية، على الرغم من شـعوره بالجوع، ثم تقدّم وشـاركهم الطعام، وتناول كوبًا من الشـاي، انتحى بعد أن حمد الله على نعمه، وعندما أخذ الرجلان بأطراف الحديث، كان عربي يسـتمع إليهما بإنصـات، وعرف أن الرجل يعمل تاجرًا، وهو محروم من الأبناء، ويعيش مع زوجته، وبعد أن طلب الشيخ من الرجل المضيف استضافة عربي، اغرورقت عيناه بالدموع، فتنبّها له، وحاولا تهدئته، ثم قال له شيخ جامع سيّد الناس:

- لا تبكي يا ابني، الله لا ينسى أحدًا من فضله، ثمّ امتدح الرجل المضيف الطيب، وقال:

- ما رأيك يا عربي، هذا الرجل من أتقياء الله الصالحين وزوجته من فضليات نساء دمشق؟ ما رأيك أن تسكن معهما، ريثما يفرّج الله عليك، وتجد أهلك.

استمرّ عربي في البكاء من دون أن يجيب، ولكن علائم القبول بدت على محياه، بعد ذلك نادى المضيف زوجته، وأخبرها بأمر الفتى بعد أن جالستهم، واستأذنها أن يساكنهم، لم تعترض السيّدة، بل رحّبت:

- أنت ابني منذ هذه اللحظة، لا تبكي يا ابني، توكّل على الله، وأهلًا وسهلًا بك.

كان عربي ينشج، ثم تمالك نفسه، وقال لها:

- الله يقدّرني على أن أكون ابنك المطيع، يا خالة.

أجابته والدموع تغمر مُحيَّاها:

- أنا لست خالتك يا ابني، أنا أمك يا عيوني.

عاد للبكاء من جديد، هدّأه الشيخ والرجل المضيف، ثمّ دعاه؛ ليأخذ قسطًا من الراحة، حينها كانت السيدة قد هيأت له غرفة جانبيّة، وطلبت من زوجها أن يقوده إلى الحمام؛ ليستحم، ويبدّل ملابسه بأخرى أحضـرتها له من ملابس زوجها، وبعد أن استحمّ كان التعب قد هدّه، ذهب إلى سريره، ونام حتى ظهر اليوم التالي.

***

بعد أيامٍ، تناول عربي مع الأســـرة إفطاره، وتهيّأ الرجل للخروج إلى محلّه، فطلبت منه زوجته مرافقته مع عربي، الذي تمنّى أن يأخذه الرجل للعمل، ولكنّ زوجته أخذته إلى الســـوق، وتســـوّقت له حاجياته اللازمة، مناشف وملابسو...، ثمّ قالت له:

- لماذا لا تضع عمامة على رأسك تقيك شرّ البرد والحرّ؟
- لا أعرف.

رغب عربي في شراء عمامة بيضاء، لمحها معروضةً في واجهة محلّ، فوقف أمامها برهة، أمسكت السيّدة الدمشـــقيّة بيده، وقادته إلى داخل المحلّ، اختار العمامة البيضــــاء، واختارت له قمبازًا أزرق، فطلب منها أن يكون غامقًا، ثمّ انتقلت معه إلى محلّ عباءات، واختارت عباءة تناســـب جســـده ولفحتها على كتفيه، كانت جميلة على مقاســـــه، وكان يهتمّ بنظافتها، وظلّ يرتدي هذا الزيّ من الملابس طوال حياته، ثمّ اشـــــترت له مصـــحفًا وحاملًا خشـــبيًّا له؛ ليريح جلســـته في أثناء القراءة، كما مرّت على محلّ زوجها، دعته لتناول طعام الغداء في مطعم باب البريد قرب الجامع الأموي، اعتذر إليها، فاقتادت عربي، وتناولا لحمًا مشـــويًّا وكبابًا لم يأكل مثيلًا لهما طوال حياته، ثمّ أخذت إلى البيت حصّـــة زوجها، واشـــترت بعض الحلويات الشـــامية فأكل عربي قطعة، وسأل السيدة عن أسماء الحلوى، فكانت تجيبه، وكان صاحب المحلّ، يقدّم لعربي قطعة من كلّ نوع يسأل عن اسمه، فتبتسم السيّدة الدمشقيّة، التي اشترت مزيدًا من الحلوى، ثمّ عادت به إلى البيت، وهي تهدّئ من روعه رويدًا رويدًا.

بعد أيام لاحظت المرأة أخلاق عربي الحميدة وجماله وطيبته؛ فأحبّته من قلبها، وتمنّت بســـرّها أن يبقى معهم إلى أبد الآبدين، كانت تدَلّله، وكان عربي خجولًا، لا يتوازن نفسيًّا إلّا حينما يقرأ في القرآن الكريم.

تنبّه زوجها، أبو إبراهيم البكري، لســـرعة بديهة عربي وطاقته على الحفظ وتوقه لتعلّم الكتابة، فقاده إلى كتّاب قريب من بيتهم، وهناك شـــرع في تعلّم القراءة والكتابة والحســـاب وإتقانها، ورويدًا رويدًا كان يتقدّم في دروسه، وأصبح يعتاد الحياة مع أسرته الجديدة؛ حتّى بات ابنًا للدّار.

اســـتقرّ في غرفته الواقعة في الزاوية الشـــمالية لأرض الديار المحتويّة على شـــجرة نارنج وشـــجيرات من الليمون والبرتقـال، التي ترتوي بقنـاة من نهر قنوات المتفرّع عن نهر بردى، بعـد أن يُجمع مـاؤها في بحرة مشغولة من الموزائيك الدمشقي.

شـارك عربي تلك الأسـرة طعامها وشـرابها وهمومها، متعرّفًا إلى أركان المنزل بمسـاعدة الزوجة التقيّة، أم إبراهيم، التي كانت تحنو عليه بصـــفته ابنًا لها، ترعاه كما ترعى عينيها، كما كان يحلو لزوجها أن يصـــف اهتمامها به.

وبات كلّما حلّ المسـاء، وعاد أبو إبراهيم من سـوق المناخلية، يخرج عربي من غرفته بعد أن يكون قد أتمّ واجبه؛ الذي كلّفه به شـيخ الكتّاب، يتناول طعام العشـاء معهما، ثمّ يتحادث مع أبي إبراهيم قليلًا قبل توجّهه للنوم.

كانا يخرجان – معًا – كلّ يوم، عربي يتجه نحو الكتّاب وأبو إبراهيم نحو محله، وحدّثت الزوجة زوجها عن اللطف الحبّي الذي يتمتع به الفتى، وطلبت منه أن يحافظ عليه كابن لهما، وافق أبو إبراهيم، وللتوّ، بدأت تعامله كابن لها، تحضر معهما جلساتهما، كأمّ حقيقية، وكانت تستمع – أحيانًا – لترتيل القرآن بصوته الشجيّ النقيّ؛ الذي يأخذ سامعه إلى لحظات الوجد والتأسّي على كلّ ما ارتكبه من معصيات، وحينما يحين موعد النوم، كان يلجأ إلى غرفته، ولا يغمض عينيه، إلّا بعد أن تتغمرا بالدموع السـخيّة، وهو يتذكّر أهله، وبلدته.

***

كان يحيى يحكي لأبيه، ولم ينتبه له حين غاب في نومة عميقة، إلّا حين أصـدر شـخيرًا دالًّا على غيابه في كهف أحلامه، ناداه يحيى، ولكنّه لم يتلق إجابة منه.. تأكّد من جريان الهواء في جهاز تنفّسـه، ومال بجسده نحو جسد أبيه، وشاركه النّوم من دون استئذان شباب المعتقل الرهيب.

68

كان أحمد يضع اللمسات الأخيرة على تقريرٍ عن الذيب ابن شطمة، ليذيعه في مؤتمر القاهرة الذي اقترب موعده كثيرًا، ثمّ سمع أصوات متظاهرين، فأطلّ من شرفة شقّته؛ فوجد جمهور من النّاس، يتحلّقون حول ماهر الذي جاء زائرًا إلى عرسال، وكان قد لاحظ تغطية إعلاميّة كبيرة لزيارته الاطّلاعيّة على مشكلات اللاجئين السوريين، فوُصِف بممثل شباب ثورة الحرية في سوريا، وحامي حمى شبابها... ارتدى ملابسه، وخرج قاصدًا موكبه المحاط بمئات الشباب والنساء والرجال، لبنانيون وسوريون، كانوا يهتفون باسمه، وبإسقاط النظام، وكان ماهر يرفع علامة النصر.

بحث أحمد عمّن يعرفه من الحشد، ولم يجد أحدًا، وقبل أن يصل لمواجهته لاحظ كثرة المسلّحين في محيط الساحة، وعلى أسطح الأبنية المطلّة عليها، فهلع من المشهد، ونكص عائدًا إلى غرفته، اتصل بثلاثة شباب من لجنة التنسيقية، فجاءه الرد: "خارج نطاق التغطية" فكّر أن يتّصل بباقي شبابها، ولكنّه تراجع في اللحظات الأخيرة، مفضّلًا أن يغلق موبايله، وباب غرفته جيّدًا، ثمّ أرخى ستائر النافذة العلوية الوحيدة، وجلس وراء مكتبه؛ يكمل تقريره عن ماهر، الذي سيلتقيه في مؤتمر المعارضة السورية بالقاهرة.

شرع ينقّب في صفحات اليوتيوب عن فيديوهات السنة الفائتة، وبعد أن بحث عن اسم ماهر، لم يجد أيّ فيديو يؤكّد تشبيحه وقمعه للمظاهرات، وقدّر أنّ هناك من استطاع محوها من صفحات اليوتيوب والفيسبوك، بل وجد عشرات الفيديوهات؛ التي تظهره بطلًا من أبطال الثورة.

رجع لذاكرته، ولمحتويات حقيبته، التي حملها معه قبل خروجه من سوريا، فبداية وقع بين يديه بحثًا كتبه د. سلمان في مركز الدراسات الثقافيّة في بداية الثورة، ويبدو أنّه لم يتجرأ على نشره، تناول فيه العلاقات المشبوهة لعصبة سلطة نظام الحكم مع بؤر الفساد العالميّ، وتناغم توجّهاتهم مع رغبات تجار النفط والسلاح والمخدرات والدعارة وتجارة أعضاء البشر، وعدّ فيه أنّ قوة نظام السلطة وأجهزته الأمنية، وقدرته على قمع أبناء شعب سوريا؛ مستمدّتان من دعم مؤسسات الفساد العالميّة له، وبالنتيجة ما هو إلّا تساوق مع خطط إسرائيل من أجل تفتيت المنطقة؛ التي اتّبعت سياسة الاستعمار الغربيّ في تمكين الأقليات الحاقدة لمواجهة أهل الوطن.

وقد أورد في بحثه شواهد على ما ذكره، ومنها سلوك جمعية التراث الثقافية، والذيب ابن شطمة، ثمّ ذكر عن عصابة التشبيح التي يتزعمها ماهر.

لم يكن أحمد بخير في تلك الليلة؛ التي وصل فيها ماهر إلى عرسال، وحين كان يذكر لشباب التنسيقيّة ما عرفه عن الذيب وماهر، كانوا يبدون دهشتهم، ويؤكّدون أنّ ماهر غيّر موقفه، وهو مساند للثورة بإمكانياته كلّها، كانوا يذكرون المبالغ المالية السخيّة، التي وزّعها على المجالس المحليّة، ولكنّ ذلك زاده أسى حين لاحظ إهمالهم في معرفة مصادرها، وعدم سعيهم للاستفسار عن أهدافه المبيتة وبمن يتربط...

قلْ أعوذُ بربّ الفلق من شرّ ما خلق

(قرآن كريم)

التقى أحمد مع شباب الثورة في بعض بلدات ريف دمشق ومدنه، الذين أفرج عنهم من معتقل فرع الأمن السياسيّ، وفي تلك الآونة من عمر الثورة، الذي لم يزد عن خمسة أسابيع، كان شباب الثورة يذكرون ماهر بصفته شبيحًا، بل رئيس شبيحة أمّ الإبر الذين انضووا في صفوف المقاومة الشعبيّة، وبات يُذكر بصفته مجرمًا قاتلًا.

وكان ماهر قد اقترب من سن الثالثة والثلاثين؛ حينما اندلعت الثورة السورية، وكلّف بمهام قمع الطلبة الجامعيين، وكان معروفًا بإيذائهم اللئيم في الأسابيع الأولى، ونجح أيما نجاح بمنع المظاهرات من التشكّل، وذلك بعد أن كان يهاجمها مع عصبته؛ التي أسسها له فرع المخابرات العسكرية قبل سنين في أمّ الإبر فعاثت فسادًا واعتدى أعضاؤها على أبناء أمّ الإبر وبناتها.

عُيّن ماهر رئيسًا لقطيع الشبيحة في أم الإبر بعد قيام الثورة، ولم يكن يتوانى عن ملاحقة الثوار، وأصبح يحقق معهم قبل تسليمهم للجهات الأمنيّة المسؤولة، ثمّ كلّف ضابط أمن برئاسة الشبيحة، واعتقلوا ماهر بحجّة تجاوزه على التعليمات المعطاة له، والصحيح أنّ اعتقاله نتج عن مسؤوليته في تفجيرات أم الإبر في ساحتيها ووسطها؛ اتفاقًا مع ضابط أمن مسعور، التي آلت إلى موت أكثر من مئتي مواطن وجرح المئات وتدمير محيطات التفجيرات، وبعد أن أشيع إعدام ماهر، أخرجه أبوه من سجنه، وغاب معه عن المشهد، ولم يعد يظهر في أمّ الإبر، ثمّ أصبح يتغيّب أيامًا عديدة عن بيت أبيه.

بعد انقضاء بضعة أسابيع من انطلاقة الثورة تحوّل ماهر فجأة؛ إذ راقت له المظاهرات في المناطق المشتعلة، وراق للبعض من أحزاب السياسة تفسير تحوّله بانسجامه مع الخلل الجينيّ المصاب به والمسبب لتلذّذه بالفوضى، وأصبح يتسلل إلى الأحياء المشتعلة والبلدات الثائرة يخالط شبابها، وينازعهم الهتافات، مما دفع أبوه للقلق على مستقبله، فأخبر عنه المخابرات، فاعتُقل ثلاث مرات متتالية في غضون شهر لدى فرع أمن الدولة وفرع القوى الجويّة والأمن العسكريّ، ويبدو أنّ أجهزة الأمن كانوا يوظّفون نزوع نفسه للفوضى، ويدرّبونه خفية عن الأعين؛ للولوج في تنظيمات المعارضة، ثمّ تعرّف إلى شادي بوساطة حمود، وصار أحد وجوه المعارضة في المناطق، التي شرعت بالتحرّر من قبضة سلطة النظام.

***

زار ماهر أباه في حيّ تشرين الدمشقيّ، وركن سيارته قرب حديقة عامة بعيدًا عن شقّة أبيه، ووصل إليه خفيّة، وسّوغ لأبيه، أنّه ملاحق من قِبل المخابرات، كونه أضحى مؤيّدًا للثورة، فقال له أبوه:

- ألا تخجل من نفسك يا ماهر؟ أين النخوة التي كانت في رأسك؟ أما تعرف مصيرنا إذا انتصر أعداؤنا علينا، والله.. حتى مغاور الجبال التي أقام أجدادنا فيها تضيق بنا!
- لا تكثر من الكلام أيّها الكهل، احك خيرًا أو اسكت، قال ماهر متهكّمًا.
- لا بالله لن أسكت، منذ بدء الخليقة ونحن نُقتل، أنسيت مذبحة كربلاء ومقتل الحسين؟ أتنسى مذابح ابن تيمية والجيش المملوكي في أواخر القرن الثامن الهجري؟
- يبدو أنك صرت ثرثارًا، أقول لك أنا مع الثورة الحاليّة، التي تكنس الماضي.. أنا ذاهب.
- إلى أين يا ماهر؟ ابق لنتفاهم.

ومن دون استئذان همّ في الخروج، وغادر، ولكنّ الأب لم يتركه، بل رافقه إلى موقع السيارة، وقبل وصوله، نظر إلى ساعته، ثمّ تباطأ عند محلٍ لبيع الحلويات القريب من مكان السيّارة، واشترى له ولأبيه صحنا كنافة، وقبل أن يبدأا بالتهامه سمعا صوت انفجار قريب وضخم، فتوجّها نحو مصدر الصوت؛ فكانت سيّارة ماهر هي المستهدفة، وعشرات القتلى والجرحى ينزفون في محيطها، همس ماهر في أذن أبيه من جديد، أنّه مستهدف من قبل المخابرات، وهذه محاولة اغتيال له، وتوارى عن ناظره.

غادر ماهر دمشق إلى إحدى قرى الجنوب في درعا المسيطر عليها من قبل المعارضة، ومن هناك انتشر – عن طريق وسائط الاتصال والإعلام – نبأ محاولة اغتياله، ثمّ هُرّب تهريبًا مدروسًا عبر الحدود الأردنيّة، وبثّت وسائل الإعلام العالمية نبأ وصوله إلى عمّان؛ إذ كان صيته البطوليّ قد سبقه؛ فتسابق الإعلاميون وقادة الأحزاب والفصائل إلى اللقاء معه، ثمّ وصلت إليه المعونات الماليّة من مصادر مجهولة، فوزّع معظمها على اللاجئين في المخيمات البائسة في الأردن.

69

وقفت خديجة مذعورة لحظة سمعت صوت أمّها:

- يا خديجة، أين غبت؟ قصف الله عمرك يا وقحة، إلى أين خرجت؟
- أنا هنا يا ماما، أنا عند الأستاذ أحمد... اندفع الباب، ودخلت الأم قائلة:
- أتظنين أن الأستاذ متفرّغ لسماجتك وثقل دمك، يا قليلة الأدب، والله لولا أنّه ملاك، لما تحمّل وقاحتك! فردّ عليها أحمد:
- هذه آخر مرة أسمعك تشتمين الآنسة ديجة، هي ليست قليلة أدب وليست وقحة، ومسموح لها أن تدخل إلى غرفتي متى شاءت، أحذّرك أيتها المرأة من توجيه أية إساءة لخديجة.
- يعني أنا التي لا تنفع الآن يا أستاذ، والله العظيم لم أغلط بحقّك أي غلط، دخلتْ وجلست على جانب السرير، فخرجت خديجة مسرعة، فقال لها أحمد:
- أنا أحكي جادًّا، إياكِ أن تسيئي لها، فهي عاقلة ومتّزنة ولها مستقبل عظيم.. ثمّ خطرت على باله الورقة التي وجدها، وقال لنفسه: "لم يبق غيرها.. هي من رمت الورقة؛ بعدما فشلت في تحقيق فجورها معي في ليلة سابقة، ولكنّه لم يسألها مباشرة، بل قال لها:
- ألا تلاحظين أن السطح مثقوب، وهو يسرّب مياهًا وأشياء أخرى لشقتنا؟
- أي سطح، وأي تسرّب، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هل مسّك شيطان يا أستاذ؟ ما علاقة ذلك بخديجة؟ فوجئ بقولها، وعدّ نفسه أنّه ارتكب خطأ آخر بالشكّ أنّها من كتب الورقة، ثمّ تخلّص من موقفه الحرج، بأن طلب منها كأسًا من الليمون، لأنّ الصداع نهب رأسه.
- سلامة رأسك يا أستاذ، ثم جلبت له كأس ليمون، فوجدته قد وضع رأسه على طاولة المكتب متناومًا، أيقظته، فطلب منها المغادرة لينام.

تمنّى أحمد لو يغفو، حتّى لو كان مصدره ذبابة التسي تسي الإستوائيّة، وبالفعل وصل إلى حالة بين اليقظة والنوم، حاول أن يغفو، ولكنّه غاص في حلم يقظته، الذي أخذه إلى حيث كان مسحورًا بمهجع الموت في المخابرات العسكرية في اعتقاله الأخير.. حينها كانت روحه تغتسل بضياء ابنه يحيى.

بات أحمد متماهيًّا مع ابنه ومع شباب جيل الألفيّة، الجيل الذي صنع الثورة، غاص في حلم الانصهار مع فعلهم مسحورًا، وشرع يحسّ بالأشياء مثلهم، يحاور مثلهم، ويتشاجر؛ مثلما يتشاجرون على أشياء بسيطة، واستطاع أن يستمرّ مشاركًا بفعالياتهم، حتّى غادر حالة العدم، وأصبح لوجوده معاني جديدة.

في عرسال، لم يبق لأحمد سوى التأمّل والأمنيات والأحلام، أصبح النوم يجافيه، ويهرب من عينيه، فيناجي نفسه: "كم رويتَ نفسك العطشى من فيض معارف يحيى وعواطفه، ليس فيوض يحيى وأبناء جيله فحسب، بل طاقات حبّ تغلغلت بين ضلوعك، التي تحطّمت كثيرًا على أمداء العمر، فأعادت قبلًا ماري سمعان بنت جيل الألفيّة لملمة نثارك، ورحلت" ثمّ تساءل عن ثريّا: "أما خنتَها وعدمتَ جنينها، وتركتها للريح تعبث فيها، فذبحها شرّ الطائفية؟! ألست من ابتعد عن يحيى حين كان بحاجتك، فلم تتنبّه لوجوده العظيم، إلّا في السجن حين تجسدت روحه في لوحة احتضانك له، وخاط بين جسديكما أنفاسه الحميمية، فتناوبت أمامك ألوان فضاءات الكون.." ثمّ تساءل: "أأنا ويحيى نعيش حلمًا مشتركًا، أم الحلم صاغ وجودنا؟"

في بلدة عرسال، لم يفارق أحمد كوابيس يقظته مسائلًا نفسه، أمّارة السوء: "لا أزال أغوص في داخل كابوس، وأخوض في شعاب الموت، منذ انتزعوا يحيى من حضني، كيف لا، ويحيى هو من شيّد آمالًا في زاوية مفعمة بأريج النور داخل فسحة من حياة أخرى، وهو من منحني فضاء جديدًا، تاركًا لي حجرة في زاوية اتسعت لأوهامي أيضًا" كان أحمد يعيش حلمًا تحت بيارق النصر المضيئة الآتية من درب الحرية؛ وهاهم القتلة اغتالوا حلمه بتغييب ابنه يحيى، الذي لا خبر عنه منذ انتزعوه من حضنه وساقوه على دروب سجونهم.. "أين أنت يا يحيى؟ يا من كنت البلسم الشافي لجراحي النازفة من روحي على مدى عمري الشقي، أين وضعوك أولئك الأشرار؟".

اختلط المكان عليه، وظنّ أنّه لا يزال محتضنًا ابنه في سجنه، خاف عليه، واعتصره بين ذراعيه، ثمّ غابت الأشياء أمام ناظريه، وتلاطمت الأصوات داخل أذنيه، إلى أن استقرّت أمامه أصوات قريبة منه ومن يحيى، التفت فلم يستبنْ شيئًا، ثمّ شاهد اشتباكًا بالأيدي؛ فتوجّه نحو مصدر الجلبة؛ ليهدّئ النفوس، ولم يستطع الفصل بين الحلم والواقع، إلّا حين أطلّ من الشرفة، ليصحو على أصوات مشاجرة بين المهجّرين السوريين؛ كانوا يتضاربون بالعصي والأيادي والحجارة، وحين تأكّد أنّه موجود في عرسال، فكّر أن يتدخّل للصلح، ولكنّه تراجع لحظة تذكّره نتائج تدخّله في مشاجرة في السجن، فعاد إلى فراشه تدثّر بالبطانيّة، وأخفى رأسه تحتها، وسمع صوته – قبل نحو سنة في مهجع الموت بفرع المخابرات العسكرية – وهو يخاطب متشاجري السجن بصوت عالٍ: "اصبروا يا شباب،... اصبروا...

في السجنِ، يتساوى الموتُ والحياة، بل يصبحُ الموتُ أمنيّةً

(مصطفى خليفة)

لم يسمع أحمد أية استجابة من السجناء المتشاجرين في مهجع الموت بفرع المخابرات العسكريّة، سوى من رجل ضخم ملتحٍ، هيئته رثّة، مال تّجاهه مستغيثًا، فأفقده توازنه، وكاد ينهار؛ لولا وقوفه بين الشباب المتراصين، الذين تمسكّوا به.. وسرعان ما عرف أنّ الرجل الضخم سبب المشاجرة، كان لا يتوقّف عن

الحركة ذهابًا وإيابًا في طول المهجع وعرضه؛ بحثًا عن مكان من دون طائل، مما أفقده عقله، وصار يدوس على السجناء، يميل عليهم بجسده الثقيل ويؤذيهم، فأصبحوا يدفعونه عنهم، من دون أن يتخلّصوا من أذيته؛ وحينما اعتدى عليه أحدهم بالشتم والضرب، دافع عنه الآخرون، وحصلت مشادّة بينهم، استطاع أحمد أن يحمي الرجل الضخم من لكمة وجهها شابّ لوجهه، وبصوت قويّ قال: "اصمتوا يا شباب، اهدأوا، رجاء.. اصبروا اصبروا.. ألا تكفينا محنتنا، والله.. من العيب علينا أن نؤذي أنفسنا بأنفسنا، ألا يكفينا سجانونا، بدلًا من أن نتحد لنقوى ببعضنا، نختلف ونتصارع! كفانا يا شباب، ضروريٌّ أن نكون يدًا واحدة،..."

وفي غمرة انفعاله، سكت الجميع، ولكن ليس بناءً على طلبه، بل كان قد وصل السجّانون والأكبال الرباعيّة في أياديهم، وانهالوا بالضرب على المساجين؛ الذين تماوجوا فوق بعضهم بعضًا، ثمّ سحبوا أحمد خارج المهجع، وحُقّق معه، وأودع غرفة صغيرة مساحتها لا تتعدّى الثمانية أمتار، فيها بضعة كهول مرضى، وطفلان؛ الأول: محمد زين من بيت سحم والآخر: محمد وهبي من داريا، لا يتعدّى عمر كلّ منهما الـ 13 عامًا، ومما لفت انتباهه رجل قصير القامة لا يتعدى طوله مترًا وربع، كان بيّاع غزل البنات في شوارع المدينة بعد دوامه في وزارة الماليّة، وعرف أحمد أنّه معفى من الخدمة الإلزاميّة، وأنّهم يحاكمونه بصفته راميًّا لقاذف آر بي جي الصاروخي، ولعلها مفارقة مضحكة لمن يعرف تلك القذيفة، فهي أثقل منه حتمًا؛ وربما أطول، بما لا يمكنه أن يرفعها على كتفه، وقال له: أنّهم جلبوه تشابهًا للأسماء، وينتظر خروجه منذ أكثر من شهر.

وصل مجموعة شباب جلبوهم من مظاهرات عدة، وأدخلوا إلى الغرفة الضيقة بضعة منهم، فازدادت ازدحامًا، وحينما سمع منهم أخبار الخارج، عرف أنهم يشتهون الدخول إلى السجن؛ ليحافظوا على حياتهم من القصف العشوائيّ والقتل المبرمج الذي تتبعه ميليشيات السلطة وجيشها، وذكروا كيف أضحت مدن الريف الدمشقي، معضمية الشام، داريا، الشيفونية، جوبر وغيرها أمكنة لاستقبال الموت.

وكان من بين المعتقلين شاب من المليحة، شاركه أحمد بالحصول على أكياس دم قبل دخوله المعتقل، وكانت حنين هي من دفعت قيمتها لوسيط، تذكر أحمد الواقعة وسأل الشاب:

- كيف شباب المليحة ومظاهراتها، ألا تزل حنين ورفاقها من حي أم الإبر يشاركون معكم في التظاهر، ويساعدون في الحصول على أكياس دم للجرحى؟

- .... نكس الشاب رأسه ولم يجب، فقدّر أحمد أنّها انقطعت صلتها بهم، لأنّها كانت تشارك في مظاهرات سابقة غضبًا عن زوجها حمود، وكرر السؤال:

- كأنّ حنين وشباب أم الإبر متقاعسين هذه الأيام! لماذا سكت يا صديقي؟ أخبرني.

- حنين استشهدت في مظاهرة ساحة الحرية، وهي مرفوعة على الأكتاف، ولم يخفِ ذلك

الشــاب عن أحمد تأكّد تنســيقية المليحة من أنّ زوجها حمود، القائد في حزب الجبهة الشــيوعيّ، هو من صوّب مسدسه نحوها على بعد مترين من الخلف؛ حينما داهم الشبيحة وعناصر المخابرات المظاهرة، وشتّتوا المتظاهرين، فأصـابتها رصـاصـة مسـدسـه في رأسـها، وسـقطت شـهيدة مع بضـعة شباب سـقطوا جرحى أو شهداء، وسأله أحمد:

- وهل من إثبات ماديّ على أنّ حمود هو من أطلق عليها؟
- لا أعرف يا أستاذ، لكن شباب التنسيقية أكّدوا الواقعة، وربّما صور الحادثة موجودة لديهم.

بكى أحمد على حنين، التي كانت توّاقة للخروج في مظاهرات الحريّة، وعلى ما يجري في ســـاحات التظاهر، وبعد أن واسوه الشباب، صمت، وهرب نحو النّوم، واستيقظ بعد ساعات عدّة، وسأل من حوله:

- أين نحن؟ فردّ عليه الشاب ضاحكًا:
- في شيراتون دمشق.

سـقوه ماء، وتحرّك قليلًا، ثمّ فتح حوارًا مع الشـباب الواصـلين حديثًا، وعرف منهم أنّ الثورة ماضـية؛ حتّى إسـقاط نظام الفسـاد والموت والطائفيّة. وعندما اعترض على كلام شـاب متحمّس؛ شـتم العلويين والأقليات، فأنّبه قائلًا:

- مشـكلتنا يا أخي هو النظام، ليس بصـفته الأقلويّة فحسـب، بل اسـتبداده وفسـاده...، لم يدعه الشـاب يكمل، إذ سرعان ما أجابه:

- يا أستاذ.. يبدو أنّك جاهل بالذي يحدث في حمص وإدلب وريف دمشق ودرعا وبانياس وغيرها، يبدو أنّك مغيّب في السجن.

ثم شـعر بخطورة الموقف، حينما شـتمه أحد الشـباب، وحاول ضـربه؛ لولا أن وقف الآخرون حاجزًا بينهما؛ ولكنّه ظلّ أحمد منبوذًا حتّى اليوم التالي، إلى أن فتح الســـجّان الباب، وأعاده إلى المهجع؛ لتبدأ معاناته مع المعتقلين من أجل أن يحصـــــل على بقعة يجالس عليها ابنه يحيى، الذي كان نائمًا بين تدافع الأرجل من حوله، ولكنّه غير مدرك، لما يحصل له، تمكّن من الالتصاق بابنه بمساعدة الشباب، وناداه:

- يحيى.. يحيى، ثمّ لكزه بكتفه، ولم يســتجب؛ فخاف عليه كثيرًا، إلى أن قرّب ناظريه وأنفه من وجهه؛ فاطمئن أنّه يتنفس، بعد برهة استيقظ يحيى:

- الحمد لله عَلى سلامتك يا بابا، طمّني ما الذي حدث لك عندهم؟ حكى أحمد عن مجريات ما حصل معه في أثناء سـاعات انقضـت، ولكنّ يحيى، كان يسـتعجله؛ ليسـتأنف الحديث عن حياته السـابقة ومتعلقاتها مع الشيخ عربي.

***

في يوم من الأيام دخل عربي إلى القاعة الواقعة على يمين الليوان، كانت جدرانها ناصـــعة البياض، يتوسطها لوحات مشغولة من الفسيفساء المطعّم بصدفات صغيرة، سقفها مرفوع على خشب وضع عرضيًّا، والكلّ محمول على جســر حديديّ، يتدلّى منه ثُريّا كبيرة تتلألأ أحجار الكريســتال الكثيفة من جوانبها، وفي صــدر القاعة مكتبة داخل الحائط، تحتوي على تحف أثرية وأطباق فضــيّة مصـفوفة بإتقان، في جانب منها مجموعة كتب تراثيّة رصفت إلى جانب بعضها بعضًا خلّف بلّور معشّق بالألوان الصريحة في زواياه، اقترب عربي، ومدّ يده وفتح ضلفة المكتبة وبدأ يتصفّح الكتب، كانت نماذج من مصاحف وتفاسير للقرآن وبعض دواوين الشعر العربي القديم، ثمّ لاحظ وجودَ صندوق مصدّف وجميلٍ في ركن مخفيّ، فبدأ يخمّن ما فيه من محتويات، ويتساءل عن سرّه البديع من دون أن يتجرأ على وضع يده عليه، ثم سأل أم إبراهيم:

- يا خالة أيمكن أن أقرأ هذه الكتب؟

- .... لم تجبه، ولكنها رجته أن يمتنع عن مناداتها بـــــــ: يا خالة، وأن يناديها أمي، ثم حضنته فرحة:

- أضحى هذا البيت ملكًا لك يا عيوني، تستطيع أن تفعل فيه ما تشاء، وترغب.

فقال أحمد لابنه:

- أرح نفسك من هذه القصّة يا يحيى، فأنت تعيش داخلها، تحدّث في موضوع آخر يا قلبي!

- أرجوك يا بابا أن تسمعني، قد لا أستطيع أن أخبرك بالقصّة كاملة، ولكن أن أخرج من الحكاية هو ما أرجوه، أرجوك اسمعني حتى النهاية.

- كما تريد! وبماذا أجاب ضائع أو عربي أمّه الجديدة؟

- قبّل رأسها بكلّ أدب، ثم سألها عن الصندوق المركون في الزاوية المخفيّة، فقالت له:

- يا عيون أمك كيف نبشت هذا الصندوق؟ على كلّ الأحوال البيت كلّه مباح لك.

ثمّ جلبت مفتاح الصـــندوق وفتحته له، كان فيه أغراضٌ كثيرة عتيقة ومن جملتها مخطوطات على شــكل كتبٍ، تذكّرت أم إبراهيم أنّ تلك الكتب السريّة، لا يخرجها زوجها إلّا لقليل من الناس الذين يزورونه من جبل لبنان أو جبل العرب أو أم الإبر ، فخافت، وغلقته، ووضعت القفل عليه: "حينما يعود أبوك استشره، وخذ ما تريده".

اجتمعوا مساء، وسأل عربي عن المخطوطات القديمة، وطلب من أبي إبراهيم أن يطلعه عليها، أرجأ أبو إبراهيم الحديث في الموضوع، ثمّ منحه بعض دواوين شعريّة؛ ليقرأ فيها بداية.

أصبح عربي يتقدّم بسرعة في تعلّمه الحساب والقراءة والكتابة لدى شيخ الكتّاب، وكان نهمًا في قراءاته، إلى أن نسي أبو إبراهيم مخطوطًا في القاعة، ووقع بين يدي عربي، كان معنونًا بـــ "شرح ميثاق ولي الزمان"

وحينما شـرع في قراءته، اسـتهجن ما يتضـمنه من تأليه لشـخص اسـمه الحاكم بأمر الله، إلى أن سـأل أبا إبراهيم، فأخبره: "خليفة فاطميّ، وما قرأته ولّى زمانه، ولا أحد يأخذ به من أهل هذا العصـر" ونصـحه بقراءة كتب مغايرة، ثم عنّف زوجته؛ التي استهانت بكتبه، وتركتها معروضة، فاعتذرت الزوجة، وقالت لعربي:

- كيف حصلت على الكتاب يا عربي؟ فردّ عليها:

- وجدته في القاعة على الطاولة المصـدّفة؛ فتذكّر أبو إبراهيم أنّه أخرجه في يوم سـابق، وقرأ فيه مع شيخ يعرفه من جبل العرب، ونسي أن يعيده إلى الصندوق، ثمّ وجهه إلى قراءة الجزء المتعلق بالجوارح السبع وكيفية استخدامها بما أمر الله، وقال لزوجته:

- احفظي الكتب جيدًا يا أم إبراهيم، لا نريد فضائح.

قرأ عربي الجزء المتعلق بالنواحي الخلقية والتربوية في شرح الميثاق، وأعجب بها أيما إعجاب، وقال لأمّه، أم إبراهيم:

- هذا كتاب يعلّم الأخلاق الحميدة، علينا أن نتعلّمه ونفيد منه.

- طبعًا يا عيوني، كاتب هذا الشرح هو الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي، قدس الله سره.

- ما قصة الأمير السيد يا ماما؟

فتجرأت، وحكت له حكايته مع أهله في جبل لبنان وهجرانه لهم 12 سـنة نتيجة خلافه معهم حول بعض معتقداتهم؛ التي تخرجهم من دائرة الإسـلام الحقّ، وأنّه أقام في دمشـق، وأصـبح إمام الجامع الأمويّ، ففرح عربي؛ لأنّه كان قد رافق أباه في أيام الجمع إلى ذاك الجامع العظيم.

بعد فترة، أبدى رغبته بالعمل، حتى لا يكون عالة على أهله الجدد، وكان يفكّر بأن انشـغاله بالعمل يمنع عنه ذكرى اعتداء ابن عمّه فريد وأقرانه عليه؛ التي كانت تؤرقه، وتمنعه من النوم، وتجعله يبكي على شـناعتهم، وكان لا يبعده عن تلك الذكريات الأليمة إلّا قراءة القرآن الكريم، وكتب أبي إبراهيم، لاسـيّما شـرح الأمير السيد.

اعتاد شيخ الكتّاب أن يغلق مكتبه عن استقبال التلامذة شهرين من فصل الصيف، وكان عربي قد طلب من أبي ابراهيم أن يؤمّن له عملًا؛ ريثما يعود للكتّاب، فاعترض – بداية – أبو إبراهيم، ثم توسّـل أمّه، فامتنعت عن التدخل، ثم وافقت نتيجة إصراره على العمل.

أخرجه أبو إبراهيم إلى محلّه في السـوق، وبدأ يعلّمه التجارة، وبعد بضـعة أيّام أدرك عدم صـلاحيته للبيع والشراء، كان عربي يتسامح كثيرًا مع الزبائن، ويخجل من نفسه حينما يربح، ولا يعرف كيف يجمع ما يكسبه، وكان يعطي من يطلب منه مبلغًا من دون تدقيق، أو ضـمان اسـتعادة المبلغ، ثمّ تيقّن أنّ الحرفة هي ما

تناسب عربي، وليس التجارة، فقاده إلى أبي محمد المسلّاتي، ووضعه عنده ليتعلّم صناعة السلال، وهناك برع في عمله كثيرًا.

***

على الرغم من محاولته الانزواء والابتعاد عن الناس، فقد كان أقرانه يلاحقونه؛ للتعرّف إليه ومرافقته، لما يتمتع به من طيبة ورقة في التعامل وحسن أخلاق، ثمّ تعرّف في أجواء الورشات على أصدقاء جدد، وسمع منهم عن فرقة المرسح – كما كانوا يطلقون على المسرح – فتقصّى عنها وعرف أنّ اسمها فرقة أبي خليل القباني، كانت تعرض في حي الجمرك القريب من موقع عمله، وفي المساء سأل أبا إبراهيم عنها وعن القباني، فأجابه بما يعرفه، ثمّ اصطحبه في اليوم التالي، وأدخله المسرح في حيّ الجمرك، وقدّمه إلى أبي خليل، وصار يحضر كلما رافقه أحدٌ، وبعد فترة راقت له الفرقة، وطلب من أبي إبراهيم أن يطلب من القباني ضمّه للفرقة.

بعد أيام من آخر عرض تمثيليّ، انضم عربي إلى الجوق، وبدأ يتدرّب على التمثيل، فأبدع، كما قال القباني، ثمّ استشعر بطاقاته في العزف على العود، وبدأ يعلّمه العزف والغناء؛ لما في صوته من عذوبة ورقّة، فأظهر عربي مقدرة فذّة في التمثيل والعزف والغناء، ثمّ أدّى دورًا أنثويًّا على خشبة مرسح جوق القباني في حي الجمرك، فأعجب أبو خليل بأدائه، وأصبح يدرّبه على الغناء والتمثيل بعد عمله عند أبي محمد المسلاتي، ولم يتمكّن أن يكون أحد أفراد الفرقة؛ لصغر سنّه حينذاك، ولكنّ القباني توقّع له مستقبلًا حافلًا في مهنة الغناء والتمثيل والموسيقا، إذا استمرّ بالتدرّب المتواصل.

رافق عربي الفرقة إلى كازينو الطليان في سوق مدحت باشا، وحضر مع أبي خليل وفرقته التمثيلية، وكان قد اجتمع مع الفرقة رجل مسرح فرنسيّ، يحكي العربية بشكل ضعيف، ومعه من يترجم.. قدّم الفرنسي درسًا عن بناء المسرح وطريقة الاشتغال عليه، وذكر عناصره، وتاريخ تطوره، وانبهر عربي بمعلوماته وطريقة أدائه.. ثمّ انشغل عنه؛ إذ كان يتذكّر وجه أحد الحاضرين، وهو يجلس قرب الرجل الفرنسي، كان مخفيًا عن الناس مكشوفًا فقط للرجل الفرنسي، وحينما لمحه عربي اقترب منه، وعرفه من وجهه المقيت، هو الرجل الملتحي، الذي كاد يفعل به ما فعله به ابن عمه فريد، وحينما لمحه ذاك الرجل، وقف وناداه:" عربي، حبيبي تعال إلى هنا يا جميل" فابتعد عنه، ولكن صورة وجه الرجل الواقف جانب الرجل الفرنسي ظلّتّ عالقة في ذاكرته، فحرّكت حنينًا داخليًّا في نفس عربي، يتعلّق بميوله الأنثوية ورغباته الجنسية المثليّة، فتنحّى جانبًا مضطربًا، إلى أن انتهت الجلسة، وغادر إلى حي الحمزازي وحيدًا.

لم يدم له التدرّب في المسرح، إذ بعد بضعة أسابيع انقلبت الأوضاع على أبي خليل القباني، فنُقل الوالي مدحت باشا الذي كان يشجعه، وعيّن والٍ رجعيّ، استغلّ وجوده الشيخ سعيد الغبرا، وألبّه على القباني، ثمّ

رفع مع بعض مشـايخ دمشـق مظبطة إلى الباب العالي، وتمكّنوا من إيقاف مسـرحه، وكانت آخر مرّة شـاهد عربي أبا خليل القباني، وهو يركض أمام أولاد يلاحقونه ساخرين منه، وفيما بعد أحرق شيوخ دمشق الرجعيين مسرحه أو مرسح القباني بخان الجمرك مع آلاته، وكان عربي مع بعض شـباب الحي والقريبين من المكان، ممن حاولوا إطفاء النيران، ولكنّهم عجزوا عن إنقاذه، وحينما أخبر عربي أباه عما حدث، وطلب منه الذهاب إلى بيت القباني لمساندته لم يرتضِ الأب قائلًا له:

- نحن يا عربي جناحنا مكسور في هذه البلاد، ليس باستطاعتنا مخالفة شيوخ دمشق وعلمائها، والشيخ سـعيد الغبرا حرّم المرسـح ومشـاهدته، بعد أن عاد من إسـتانبول حاملًا كتاب إغلاق جوق القباني، مطالبًا بالقصاص منه ومن أتباعه، لما تقترفه أياديهم بحق ديننا، وما علينا إلّا الالتزام بما يقرّه شيوخ الشام الشريف.

- ولكن يا أبي أنت الذي سمح لي بالتعرف إلى الشيخ أبي خليل، لأنك تعرفه، وتعرف أخلاقه، وتعرف كم هو تقيّ وداعية للخير والمحبة.

- صحيح يا عربي لكننا لا نستطيع إلا الالتزام برأي شيوخ دمشق.

انصـاع عربي لأمر أبيه، واستمرّ بصـنع السـلال، ثمّ سمع أن القباني فرّ من دمشـق تجاه حمص، حاكته نفسـه أن يلحق به، ولكنّه لم يكن يعرف عصـيان أمر والديه.. وكثيرًا ما كان يذهب إلى حيّ الجمرك للمرور أمام أطلال المسـرح المحروق.. يتوقّف أمامه، يشـيّعه بعينيه الدامعتين، متذكّرًا أيامًا قضـاها داخله مع أبي خليل؛ وهو يؤدّي أدوارًا رقيقة تمثّل أنوثة دمشـق، توقّف المسـرح بدمشـق، ولم يعد أحد يذكره؛ إلّا ويلعن القبّاني، ومن يقبل عليه ممسرحًا أو مشاهدًا.

فكّر عربي أن يلتحق بكازينو الطليان؛ ليقابل ذاك الرجل الخبير بالمسرح وشؤونه، ولكنّه بمجرد أن يتذكّر رجل الوجه القبيح، كان يتراجع عن رأيه، إلى أن سـمع عن جريمة قتل للفرنسـي الموسـيقيّ، نفّذها أبو جاسـم الحميماتي بعد أن كان يلوطه سـرًّا؛ فانكشـف أمره أمام أهل زوجته، وذهب ليلًا إلى بيت الرجل الفرنسـيّ المثليّ، وبعد أن اسـتجاب له وخلع ملابسـه، انبطح؛ ليمتطيه، كعادتهما، وفي غفلة من الفرنسـيّ طعن أبو جاسـم بخنجره الرجل الفرنسـيّ المثليّ من دون رحمة؛ حتّى أجهز عليه، ثمّ سـرق ما أمكنه حمله، وغادر متخفيًّا.

توقّف عربي عن حلم المسرح منذ تلك اللحظة؛ التي سمع بها عن جريمة قتل الرجل الفرنسيّ، ومن جديد كتم سـرًّا آخرًا من حياته، وهو تجربته مع القباني عن أهل أمّ الإبر؛ إذ صـار أحد أبنائها بعد زواجه، ولكنّ القباني وقصته لم تغب عن ذاكرته طوال حياته السابقة باسمه عربي واللاحقة باسمه يحيى.

***

في أيام سـجنهما في مهجع الأمن العسـكريّ، كان أحمد يسـتند إلى الحائط جالسًـا؛ من غير تمكّنه من الاسـتلقاء؛ لعدم وجود مكان، وكان يحيى ملتصـقًا به، يشـرئب نحو أذن أبيه؛ حينما يكون مسـتيقظًا، يحادثه من دون توقّف؛ إلى أن يغفو وينام في حضن أبيه، الذي لم يغادره الحزن على مخاوف يجهل مصادرها، كان يخفي دموعه عن شباب المهجع خلف رأس يحيى، إلى أن يوقظه لحظة شروعهم في الطعام، فيشرب يحيى ماء، ويأكل بضـع لقيمات، ويحمد الله على نعمه، ويتراجع إلى مكانه، رافضًـا توسـلات أبيه ورفاقه لأكل المزيد.

70

اعتاد أحمد الاستيقاظ فجرًا على صوت ديك أحد جيرانه، ولكنّه بقي نائمًا هذا الصباح، إلى أن سمع ضربات على باب غرفته، استيقظ متكاسلًا، وردّ على الطارق، طمأنه أنّه لا يزال حيًّا، وأنّه خارج من غرفته؛ حالما ينتهي من ترتيب وضعه.. حاول أن ينام من جديد من دون طائل، إلى أن ارتفع صوت المؤذّن، الذي ظنّه بدايةً أنّه أذان الفجر، استقام، وأخذ حمّامًا، وارتدى ملابسه، وخرج إلى غرفة جيرانه الخارجيّة، جالسهم.. وأوّل ما سألهم عنه هو صياح الديك:

- كأنّني لم أسمع صياحه اليوم؟ فردّت عليه المرأة:
- ولهذا غرقت في بحر أحلامك، حتّى جاء من أيقظك!
- أخشى أن يكون صاحبه قد ذبحه، لم يجبه أحدٌ عن الديك، ثمّ قدّمت له طالبة الثانويّ خديجة كأسًا من عصير البرتقال الطازج، قائلة:
- منذ أمس، وأنا محتفظة لك بكيلو برتقال، تفضّل واشرب يا أستاذ وادع لي.
- سلمت يداك يا بطلة، لكن أريد أن أشرب القهوة أولًا.
- للأسف خلصت القهوة من عندنا منذ البارحة.
- صحيح؟! انزلي واشترِ، لأنني لن أصحو قبل أن أشرب القهوة.
- تكرم يا أستاذ، ولكن...
- ولكن ماذا؟!
- أفلسنا يا أستاذ، لا أحد يمتلك مليمًا واحدًا، إذا أردت قهوة ضع يدك في جيبك، واجعل ربّك يحبّك.
- صحيح؟! ولماذا لم تخبروني، والله عيب عليكم، أين أمّك؟
- تنشر الغسيل على السطح.
- لعن الله السطح، قالها في نفسه، وهو يضحك منها على شكوكه بعد أن وجد الورقة التي تدعوه الصعود إلى السطح في يوم سابق.

دخلت الأم، عاتبها أحمد لأنها لم تخبره بأحوالهم المادية، ثمّ دخل إلى غرفته، وجلب مبلغًا، مما أرسله له أخوه عمر، وأعطاها للأم، فقالت طالبة الثانويّ الحمصيّة:

- الآن، زمّر بنيك يا أستاذ، حالًا تشرب القهوة، ضعي ركوة القهوة على النار مام.. ثم استدارت، وذهبت لشراء القهوة، وتذكرت أمها أنّ الخبز نفذ أيضًا، فخرجت إلى الشرفة، وطلبت منها أن تجلب ربطتين من الخبز.

بعد فترة، أطلّ أحمد من الشرفة، وشعر أنّ صيف عرسال حارٌ، وينبئ بالنضوج الآيل إلى السقوط، انتبه لصوت يناديه من الساحة، ووضح له أنّهم مهجّرون سوريون وصلوا حديثًا:

- ألا يوجد لديكم بيتًا للإيجار يا أخ؟

كان صوت امرأة تحمل رضيعًا، وبجانبها طفلان ورجل كبير السنّ وشابٌّ ينوء بحمل كيسٍ يشبه أكياس البحّارة.

- لا والله يا سيدتي، ولكن تفضّلوا؛ لترتاحوا قليلًا لدينا.

- شكرًا يا أخ، قالت المرأة، وكرّر وراءها الشيخ نفس العبارة.

كانت طالبة الثانوي عائدة إلى الشقة، وهي تحمل الخبز والقهوة، حينما سمعت دعوة أحمد للأسرة، فقالت له ممازحة، وهي تضحك، قاصدة أن تُسمع الضيوف الجدد:

- يا أستاذ.. أعطيتنا ثمن قهوة، شكرا لك، وأكثر الله من خيرك، ولكن أمضطرٌ أنت لدعوة السوريين القابعين في عرسال كلهم على ربع كيلو قهوة؟!

ولم يردّ عليها أحدٌ، لحظة توجّهها نحو المرأة، حملت طفلها عنها، قائلة للأسرة:

- اتبعوني...

عرف الجميع أنّ الأسرة السورية قادمة من حمص، وحكوا عن الحصار والجوع والموت وعن ويلات البراميل المتفجّرة؛ التي ترميها حوّامات الجيش السوريّ على المنازل والمدارس والجوامع بشكل عشوائيّ.

ولفت انتباه أحمد صمت الشابّ، الذي يشبه يحيى كثيرًا، وفق ما تراءى له، وسأله عن رأيه عما يجري من أحداث، فأجابه الشاب بثقة:

- الثورة منتصرة يا أستاذ، لو حرثوا سوريا حراثة، إرادة الشباب قويّة...

- وأنت ماذا تريد أن تعمل في عرسال؟

- أنا راجع؛ حالما أمّنت لأهلي سكنًا، لن أترك حمص، ولن أسمح للمجرمين الطائفيين بدخولها؛ إلّا على جثّتي.

قبل أن تسيل دموعه، دخل أحمد إلى غرفته، أغلق بابها، ثم أسنده بظهره، وانفجرت دموع عينيه.. إلى أن شطف وجهه بالماء البارد، وجلس خلف مكتبه، وفتح أوراق أخيه عمر، ليقرأ فيها عمّا حصل لمركز الدراسات الثقافيّة في أثناء وجوده مع يحيى في السجن.. كتب عمر عن شحنات الغضب، التي لازمته من حصار

شبيحة أمّ الإبر بإشراف دورية مخابرات، وبوجود الذيب وشبيحته لبناء المركز؛ حيث عاثوا به تخريبًا، وسرقوا محتوياته، كان أحمد يقرأ نفسه في صفحات أخيه عمر مستعيدًا زمن الوجع.

إنّ الشجا يبعث الشجا... دعني، فهذا كلّه قبر مالك

(متمم بن نُويرة)

كسروا باب مركز الدراسات الثقافيّة الخارجيّ، واقتحموه عنوة، وفتّشوا الخزائن والدروج كلّها، وكسّروا أثاث غرفه، وسرقوا أجهزة الكمبيوتر؛ وكلّ ما استطاعوا حمله، ثمّ عبثوا بالكتب المرصوصة على رفوف المكتبة، وبعثروها مع كلّ ما وقعت عليه أياديهم على أرض قاعة الإدارة، ثمّ نقلوا المسروقات بسيارة المخابرات، وظلّ الذيب ابن شطمة يتقدّم أكثر من عشرين شبيحًا يلوحون ببنادقهم الآلية، ويتبارون بإطلاق الرصاص في الهواء، ومن لم يكن حاملًا بندقيّة منهم كان يلوّح بعصا إلى جانب صور رئيسهم وعلم حزب السلطة، ساروا بمظاهرة مؤيّدة للنظام، يتقدّمهم الذيب مع موفق، وهتفوا لحياة القائد، وشتموا السعوديّة وقطر وتركيا وإسرائيل،... التحموا مع رفاق حزب الجبهة الشيوعيّة، يتقدّمهم نبيه منزوعيا وحمود؛ وحينما اقتربوا من مبنى المجلس المحلّي، لاقاهم أعضاء المجلس المحلّي ورئيسه، ومهندسو المكتب الفنّي، وموظفو البلدية والمالية والمحكمة بالدبكات والأهازيج الجبليّة، ثمّ توجّهوا – جميعًا – إلى ساحة أمّ الإبر.. أقاموا فيها مهرجانًا خطابيًّا؛ تناوبوا على إلقاء الكلمات على منصّة خشبيّة تبرّع بها نجّار على عجل؛ بتكليف من المهندس موفق، الذي ارتجل كلمة؛ كانت الأكثر حماسة بين كلمات المسؤولين؛ إذ طالب المتظاهرين الفوضويين بالعودة إلى بيوتهم، وأن يكفّوا عن تآمرهم مع الأعداء الخارجيين، وانتصر للأمان والأمن؛ الذي يعيشه السوريون برعاية الرئيس المفدى والحزب القائد، وهاجم إسرائيل وقوى العدوان الغاشم.

غادر الجميع الساحة، ومنهم الذيب الذي طلب من سائقه التوجّه به نحو مفرزة المخابرات الجويّة، حيث مسروقات مركز الدراسات مودعة فيها، كان الذيب يفكّر بأن يأخذ أحد أجهزة الكمبيوتر من المسروقات، التي أشرف على سرقتها.

دخل إلى المفرزة، من دون أن يوقفه أحدٌ، لأنّه معروف للجميع، واستقبله الضابط المسؤول في مكتبه، طلب له قهوة سكرها زيادة بناء على طلبه، وبعد أن ارتشف قهوته مظهرًا صوتًا كريهًا من بين شفتيه، انزعج الضابط منه، ونبهّه مرّات عدّة لإخفاء الصوت.. إلى أن أفصح الذيب عن مراد زيارته:

- إن شاء الله تكون أجهزة الكمبيوتر تعمل جيّدًا سيادة الضابط؟ فردّ الضابط:
- نعم شغّالة وجديدة، أتريد واحدًا؟
- أي والله أريد اثنين منهم، إذا سمحت، أجاب الذيب واثقًا، فردّ عليه الضابط مستهزئًا:
- نحن لسنا بحاجتهم، ما رأيك أن تأخذ الغنائم كلها دكتور؟

- والله، تكون قد فضـلت على شـواربي، نعطي الشـيخ واحدًا، والدكتور نبيه منزوعيا، والبقية نجد لها طريقًا.

- تكرم دكتور، والله شطمة ما قصّرت فيك؛ حينما رمتك على باب المقبرة يا نغل؛ ثم قرع جرسًا، ودخل من الباب عسكريًّا فأمره:

- جهّز سطل ماء باردة، وأرسل لي أبو حيدرة وعلي.

في ثوان دخلا، وألقيا تحيّة مبالغ بقوتها، فأمرهما الضابط:

- أوصـلوه إلى بيته، كأن الدكتور مريض، وقبل أن تأخذوه رشـوا على قفاه سـطل الماء الموجود خلف باب المفرزة، لعلّه يصحو من غفلته.

- لا يا سيدي، أنا لا أحب أن أزعجك، قال الذيب.

اقتلعه عليّ من مكانه، وأخرجه أمامه، حاول النطق، ولكنّه عجز، فسـكت حتى وصـوله إلى بيته، ولم يصدّق أنّه نجا من مفرزة المخابرات من دون أن يُضرَب.

رجع شبيحة اللجان الوطنيّة مساء ذلك اليوم من جوبر، بعد أن أنهوا مهمتهم العسكريّة في قمع مظاهرات أهلها، كانوا يتباهون بقدرتهم على إصـابة بضـعة شـباب من المتظاهرين.. توجّهوا إلى سـاحة أمّ الإبر، وفي مكتب أم الإبر العقاريّ، تلقوا أخبار أحداث اقتحام مركز الدراسـات الثقافيّة، وشـعروا أنّهم أهملوا، وفاتتهم الغنائم والمهرجان الخطابيّ، وكانت ردّة فعلهم إطلاق الرصـاص من بنادقهم الآلية بشـكلٍ جنونيّ في سـماء حيّ الإبر، ثم هاج غضبًا مدرّب التربية العسكرية في ثانوية أمّ الإبر، وزميله مدرّس التوجيه المعنويّ، وماجا وسط الساحة، وأثارا صخبًا وشغبًا، وشرعا يشتمان كلّ من يطالب بالحريّة: "من يريد حريّة؛ ليجلب لي أخته أو أمّه لأعلمه كيف تكون الحرية" هذا ما قاله مدرب التربيّة العسـكرية، وتناوب معه قلة الشـرف والسـفاهة مدرس التوجيه المعنويّ غاضبًا والزبد يرغي من فمه: "أنا سأضاجع أي أخو شرموطة لا يحبّ السيد الرئيس، هنا في الساحة العامة، من منكم يزعم أنّه يعادي سيادة الرئيس؛ فليأتِ هنا حتّى أعلّمه كيف يكره ربّه، سيادة الرئيس هو الله، هو ربكم الأعلى، من منكم لا يسـمع؛ فليسـمع..." وكلما فرغوا من هيجانهم كان رئيس الشبيحة يأمر بإطلاق الرصاص في سماء أمّ الإبر، قائلًا بصوت عالٍ: "من ليس معنا، فهو ضدنا، السامع يخبّر الغائب، الذي لا يعجبه حكمنا، فليرحل عن طيزنا"، وتبارى كلٌّ من مدرب العسـكرية ومدرس التوجيه وأمين الفرقة الحزبيّة وقائد اللجان الشـعبيّة السـفاهات تلو السـفاهات وسـط انبهار بضـعة مراهقين وطلاب، وكهول يتباهون ببنادق سـلّمت لهم؛ ثمّ دعا ضـابط مخابرات الجميع إلى اجتماع في مبنى المجلس المحلّيّ، وهناك اسـتطاع تجنيد بضـعة شـبيحة جدد، جلبوا من مناطق الأقليّات، وجلّهم من المراهقين، مقابل رواتب شهريّة سخيّة.

كانوا يخضعون أولئك المراهقين لدورات تدريبية على حمل السلاح بإشراف مدرب التربيّة العسكريّة لأيّام معدودات، ويشرعون في إرسالهم؛ لقمع مظاهرات السوريين في محيط أمّ الإبر من بلدان الغوطة الشرقيّة.

***

لم يمضِ أسبوعٌ؛ حتّى أعادوا مراهقًا من أولئك المجنّدين المدنيين الجدد محمولًا، كان طالبًا في الثانوية العامة فقيرًا، فأقام الشبيحة الدّنيا ولم يقعدوها، وهم يطلقون النّار، وسط زغردة أمّه وأخواته بحسبانه شهيدًا، على الرغم من الكلمة؛ التي ألقاها خاله في أثناء تشييع جثمانه؛ التي قال فيها:

"يا جماعة، هناك من يقول: إنّ أهل الغوطة هم من قتلوا ابن أختي، يقولون: إنّ غريمنا أهل الغوطة الشرقيّة، إذا كان هذا الكلام صحيحًا، فنحن أهل الشهيد مسامحين، رحمة الله عليه، عاش يتيمًا، ومات غدرًا، عاش فقيرًا ومات فقيرًا، رحمه الله، أهل أمّ الإبر الطيبون كلّهم يطالبون بوقف شلّال الدم في سوريا، نحن وأهل الغوطة الشرقيّة، نعلن أن لا غريم لنا سوى الذي يشجع على الفتنة الطائفيّة، يا جماعة: أوقفوا الحرب؛ التي تهدد الوطن والشعب،..."

لم يستطع خال المراهق أن يكمل؛ فقد انفجر بكاءً، وأبكى معظم من سمعه، إلى أن اقترب منه أشخاص، سحبوه وأبعدوه عن المنصّة؛ ليتقدّم الذيب ابن شطمة، مقسمًا بصوته الجهوريّ، أن دم ذاك الشاب لن يذهب هدرًا، وأن الانتقام ممن قتله قادمٌ، وكرّر – مرارًا – أنّه قُتل على أرض جوبر بعد تصديه للعصابات الإرهابيّة،...

وبعد دفن الشابّ، سمّوا مدرسة وشارعًا باسمه، ووعدوا أهله بتعويضهم ماليًّا.

بعد أيام من دفن الفتى المقتول، جاء مجموعة من الشباب من الغوطة الشرقيّة، قدّموا التعازي لأسرته وأمّه، وهمس أحدهم بأذن أخيه: "إنّ قاتل أخيكم دورية من المخابرات! وتنسيقيتنا محتفظة بصور التقطها أحد شباب جوبر بكاميرا موبايله، تثبت هذا الكلام، أبلغ أمّك، وخبّرني إن لم يكن لديها مانع من بثّها على الفضائيات.

فوجئ الأخ الأصغر للمغدور، وانزوى مع أمّه وأخبرها ما سمعه، فطلبت منه الإتيان بالشاب الذي أبلغه؛ بكت الأم واحتضنت الشاب، وقالت له:

- نحن نعرف غريمنا يا ابني، وجاء من أخبرني أن ضابطًا من مخابرات القوى الجويّة، من أطلق عليه النّار، ليوقعوا الفتنة بين أهلنا وأهل جوبر والغوطة الشرقيّة، وشاهدت الصور بأمّ عينيّ، ولكن أرجوكم أوقفوا نشر الصور، حتّى لا يحدث ضرر على إخوته من بعده، الله كبير يا ابني، ما يجري في سوريا أكبر من قبر ابني.

- كما تريدين يا خالة، رحمة الله عليه، وجعله من الشهداء.

- الله يرحمه، ويحميكم، أنا وأخواته بحاجة إلى التعويض الماليّ؛ الذي وعدونا به يا ابني، فأولادي أيتام وبحاجة إلى المعونة الماليّة، قالت الأمّ، وهي تبكي ألمًا، ثم طلبت من الشاب أن يتوقّف مع رفاقه عن زيارتهم في حي أم الإبر.

71

أعدّت جارته غداء للقاطنين في الشقّة؛ الذين تزايدت أعدادهم، ثمّ طرقت عليه باب غرفته، وناولته صينيّة عليها طبق مجدرة وآخر سلطة، فطلب منها أحمد تركه لديها؛ لأنّه راغبٌ في مشاركتهم الجلوس على صفرة واحدة.

أعدوّا الصفرة، وأطلّ من الباب، وراعه مشهد الازدحام حول الصفرة؛ التي أعدّت؛ ليتناولوا الطعام بالتناوب، ضحك، وقال لهم:

- والله ذكرتموني بأيام السجن، حينما كنا نتناول الطعام بالتناوب.
- اصطفيناك لتأكل وحدك، ورفضت، ذنبك على جنبك يا أستاذ.
- والله تراجعت يا ستي، أعطني صحني، ودعوني أتناول طعامي في غرفتي.

بعد الغداء تناولوا الشايّ، وأبلغته الجارة أن الأسرة الجديدة ستقطن على السطوح، فقد باع صاحب غرفة السطوح الديك والدجاجات التي كانوا فيها، وهو يعدّها للسكن، واتفقوا معه على استئجارها.

ساءه ما يحصل للسوريين من أوجاع ومآسٍ.. في المهجر يأكلون بالتناوب، ولا يقدرون على النوم سوى في مكان زرائب الدجاج وعلى الأرصفة، وفي الداخل يُقتلون وتُدمّر بيوتهم، ويُعتقلون ويتناولون طعامهم وينامون بالتناوب في معتقلات السلطة أيضًا.

دخل إلى غرفته، وفتح ملفّات يحيى.. انتخب منها ما دوّنه عن عصر النهضة العربيّة، ولعلّه حار بأمر معالجته قضايا تتعلق بمشكلات القرن التاسع عشر؛ إذ يظهر نفسه كأنّه عاشها، تذكّر ما رواه له في السجن عن حياته السابقة، التي شهد حينها على وقائع وأحداث، كما لو كان فاعلًا فيها؛ عندما كان الشيخ عربي، ثمّ هدّه غيابه حاضرًا، فتكاسل عن المتابعة، ثمّ شحذ همّته من الطاقة الإيجابيّة؛ التي خزّنها عندما كان يحتضن ابنه يحيى، وتابع ما اشتغل عليه في بحوث؛ بصفتها عتبات لمعالجة مشكلات الواقع المتعثّر حلّها على مدى قرنين مضيا؛ إذ إنّ يحيى حاول أن يتساوق مع طموحه للسير على درب مقاومة ثقافية ترتكز على العقل العلميّ؛ الذي أفضى إلى زمن الثورات العلميّة المتواترة، مع انفتاح عينيه وحواسه على تاريخ أمته وتراثها الثريّ، ولعلّ مشاركة روز الدمشقية في البحث والعمل أثرى تجربته وبلور أفكاره، فروز ليست خبيرة في الوثائق فحسب، بل تحمل في داخلها مدينة الشام الشريف، وما يكتنفها من أنثوية تراكمت في مدنيتها عبر تاريخها المديد.. بات أحمد يمزج بين قامة يحيى وفكره وسلوكه وفاعليته في أحداث الثورة، مسائلًا نفسه:

"أتماثل روز روح ماري ســمعان التي حملت أنثوية دمشــق؟" رفرف طيفها لمحة، وأخبرته: "روحي هائمة في فضاء الكون بانتظارك، هناك في أم الدنيا"

اتّصــل بروز على رقم الموبايل، ولكنّها لم ترد عليه، كّرر الاتصـــال.. وقلق عليها؛ حينما أجيب أنّ الرقم الذي يتصل به خارج نطاق الخدمة.

وظلّ في حالة قلق إلى أن فتح خط الســكاي بي، فوجد رســالة من روز، تحذّره من الاتصـــال بها على الموبايل، وحدّدت له ساعة مسائية للمحادثة على حساب جديد.

قضبان السجن تنقلب أوتار قيثارة، لمن ينفث في الجماد حياة

(مي زيادة)

بعد انتهاء وجبة العشــاء في مهجع الموت في المخابرات العســكرية، ورجوع جميع المعتقلين إلى مواقعهم، فمنهم من ينام على جنبه، ومنهم من يقعد على مؤخرّته، والأكثرية يتعثّرون في وقوفهم، أو يقطعون عرض المهجع وطوله تجوالًا وبحثًا عن مكان، يسمح لهم بالجلوس فيه، ليحصلوا على قلّة من النوم.

وسط الصــراخ وســباب المعتقلين بعضــهم بعضًــا، وازدياد حركات من فقدوا عقولهم وأصـواتهم؛ التي ليس بالإمكان التحكّم بها، وأصوات كابلات السجّانين وشتائمهم، كان يحيى يعود إلى الحديث في الحماس نفسه؛ الذي انتهى إليه، يثبّت فمه قرب أذن أبيه، ويشرع في الحديث عن مسائل لم يكن أحمد على دراية بتفاصيلها، ولم يتوقّع يومًا أن يسمعها:

- والله يا بابا، لا أعرف ســببًا لهذه الرغبة الملحّة لأحكي لك ما له علاقة بحياتي الســابقة؛ حينما كنت الشيخ عربي، إضافة إلى مجريات حياتي الحاضرة.

- احك الذي يخطر على بالك يا قلبي، يا يحيى، وجودي متعلّق بك وبأبناء جيلك والجيل الأصـــغر منكم، أنت من رمّم روحي المحطّمة، وثورتكم من أنارت لي دربًا جديدة لدنياي.

***

بعد أن فتح الشيخ باب بيت الكتّاب من جديد، التحق عربي به، واستأنف تلقيه القراءة والحساب والكتابة، ولكنّه استمرّ في الذهاب لمعاونة المسلّاتي بعد عودته من الكتّاب، مصاحبًا أبيه في طريق العودة مساء.

كان الزقاق الذي يقطنه عربي آمنًا، فهو جزء من حارة مغلقة، ولها بوابتان، وخلف كلٍّ منهما حارسٌ يفتح بابه بعد صلاة الفجر، ويغلقها بعد إتمام طقوس صلاة العشاء، ولا يُسمح لغريب في الدخول، وتخطّي البوابة؛ إلّا بعد معرفة مقصــده وهويته، وهذا ما توافق مع مصــلحة عربي؛ التي قضــت إلى ضــرورة تواريه عن أعين أهله، الذين لا بدّ من أنّهم يبحثون عنه، فمنذ حلّ في بيت أبي إبراهيم؛ كان عدم خروجه من الحارة مواتيًّا له، وأصــبح له صــداقات، يقضــي معهم أوقاتًا في رحاب الكتّاب أو حول دكان المســلاتي أو في باحة المســجد،

وهكذا عاش عربي حياة مختلفة عن حياة فلاحي بيت قوفا في حارته الجديدة، واعتاد تجربته الجديدة المغايرة لسني طفولته التي انتهت إلى فضيحة، حتّى نسي اسم ضائع، واعتاد اسمه الجديد عربي، وصار معروفًا باسمه الجديد.

ومع تقدّم الأيام، داوم على حضور خطبة الجمعة، وغالبًا ما كان يتوجّه إلى مسجد الحارة باكرًا، فيستذكر أهله في محراب المسجد، ويبكيهم، لا سيما أبوه الذي حفّظه بضع سور من القرآن، ثمّ أصبح يشرع في تلاوة القرآن بصوته الشجيّ في محراب الجامع، وكان صوته محفّزًا لازدياد أعداد المصلّين على وقع صوته الحزين، وبات الجميع ينصتون في خشوع، وقلّما كنت ترى سامعًا لتراتيل عربي من دون أن تدمع عيناه؛ لما في صوته من حزن وندم وشجن.

قارب عمره الخامسة عشر، وبدأ أبوه يطلب منه مرافقته إلى المناسبات العامة كالأعراس والجنازات، وكان عربي يستجيب لطلب أبيه بحضور بعضها مكرهًا، من دون أن يعلن عن عدم رغبته مخالطة الناس، أمّا أبوه فكان يقدّمه للناس ابنًا له، ويفاخر بمسلكه ومعرفته وتقاه وقدرته الفذّة على ترتيل القرآن وحفظ الأشعار.

وفي ذات يوم رافق أباه إلى أقارب له في أمّ الأبر، وهناك كانوا يحدّثون عن جريمة قام بها رجل في بلدة بيت قوفا، وعرف عربي من سياق الحديث أن الرجل المعني بالجريمة هو أبو هاني، أبوه، وأن المقتول هو عمّه وابنه فريد، تحدّثوا عن اكتشاف الرجل أن ابن أخيه يعتدي على ابنه الصغير، وحينما استجوبه أبو الصبي المعتدى عليه أمام أبيه، اعترف الصبيّ، فصفعه على وجهه، وبصق عليه، فلم يقبل أبو الصبيّ المُعتدي لفظاظته المعهودة في طبعه، وقال لأخيه الستينيّ:

- ابنك هو الذي يجب أن يُضرب، يا حاج، لأنه كان من تحت، وابني من فوق، ويجب أن تعرف أنّ ابني فريد، ليس وحده الذي كان يعتليه، بل نصف شباب بيت قوفا اعتلوه. .

- ....، صمت أبو هاني برهةً، ثمّ سأل أخاه إن كان يعرف حكاية ابنه سابقًا، فأجاب الصبي فريد بوقاحة:

- كل أهل البلد تعرف، أن ابنك ضائع مثل النساء، يعني حريمة، وليس رجلًا...

لم يمهل أبو هاني ابن أخيه إكمال حكيه، مدّ يده وجذبه نحوه ثمّ لوى عنقه، وضغط ضغطة قوية أسفل رأسه، فأصدرت رقبته أصوات طقطقة شديدة، ومات فورًا، وحينما التفت إلى أخيه، كان الأخير قد أحضر ساطورًا، ووجه ضربة له، أصابته بجانب بطنه، فتمكّن من جذبه نحوه، وأنشب يديه القويتين في عنقه، حتى توقّف تنفسه لدقائق، ثمّ تركه جثّة هامدة فوق جثّة ابنه.

لم يتدخّل عربي بالحديث، ولكنّه كان يستمع للمتحدثين بجوارحه كلّها، وعرف أنّ أباه، أبو هاني أسعف إلى الدار الفرنسيّة للإسعاف في المدينة، وبعد أن حقّقوا معه، لم يكن يجيب، كان يبكي – فقط – بحرقة على

ابنه الذي ضـــاع منه.. ظلّ أبو هاني يتذكّر ابنه الطيب، ابنه الذي لم يعرف إيذاء نملة، وبات يبكي – من دون توقّف – وهو يلوم نفســه على تأخّره في معرفة قصّـته؛ التي حيّرته طوال خمس سـنوات مضـت، وبقي على هذه الحالة، حتّى توفيّ بعد أسابيع كمدًا على ابنه ضائع.

ثمّ تحادث الموجودون في القاعة أمام عربي في أمّ الإبر، أن الأطباء الفرنســيين قاموا بتشــريح زند أبي هاني، بعد أن تمكّن من قتل شخص بضغطة على كاهله، وآخر بعد أن أصيب بضربة مميتة، ليعرفوا سرّ عضلاته وأعصابه.

عرف عربي أن أباه قضـى بسـببه، وأنّه تأخّر حتى عرف مشكلته، حاول إخفاء حزنه، ولكنّه لم يسـتطع، فطلب من أبي إبراهيم العودة إلى البيت، فاعترض أبوه الجديد بداية، ولكنّ إصـــرار عربي جعله يعتذر للمضيفين، ويغادر مع ابنه عربي إلى بيته في حيّ قنوات بدمشق.

في طريق العودة حاول أبو إبراهيم أن يعرف سرّ عربي وحزنه، ولكنّه بقي صامتًا طوال الطريق، وكان لا يقطع صمته إلّا غصّات كادت تخنقه.. صمت الأب، وفكّر عربي أنّ الغضب إذا تقادم؛ يتحوّل إلى أحزان تتحول بدورها إلى غصّات وآهات، فبدأ يتخلّص من أعباء ماضيه الحزين، حتّى وصلا إلى البيت، فطلب من أبيه تركه وحيدًا في غرفته.

***

أصبح عربي يقرأ في شرح ميثاق ولي الزمان، ووصل إلى درجة التماهي مع شخصية جمال الدين عبد الله التنوخي، الذي لم يتوان عن ترك أهله؛ لحظة أدرك مســارهم الدينيّ والاجتماعيّ الخاطئ، كما كان معجبًا بشروط عودته إليهم، المتعلقة بإجبارهم على تجديد دينهم، ودخولهم دين الإسـلام، كما ألزمهم ببناء المساجد وإقامة الشـعائر الإســلاميّة وحفظ القرآن، بعد أن كانوا يؤلّهون شــخص الحاكم بأمر الله، ويردّدون خزعبلات ربيبه الفارسيّ أنوشتكين الدرزي وصهره حمزة وتُرهاتهما.

حزن عربي كثيرًا على موت أبيه، ولكنّ ذلك زاده إصرارًا على أن يبقى بعيدًا عن بلدته بيت قوفا، ولم يكن أمامه سـوى أن يقرأ كل ما تقع يداه عليه هروبًا نحو النسـيان، عرف أن والده، أبا إبراهيم قريب عائلة في أمّ الإبر، وعرف أنّ معظم أبنائها يدينون لمذهب التوحيد، ويقدّسون الأمير السيّد التنوخي، فشغله الأمر، وقرّر أن يزورهم، أخبر أباه، فلبّى له طلبه، وصـــار يرافقه بزيارات متواترة، وظنّ أن يكون أبوه درزيًّا، وحين تجرأ وسأله، أنكر أبوه، وطلب منه أن يتوقّف عن مثل تلك الأسئلة.

في إحدى زياراته مع أبيه لأسرة فلاحيّة، ربّها اسمه الشيخ وهبة ويكنّى بالبيك في المدينة، ويتسم بالرجولة والطيبة، وكان قد شغل منصب قواص قنصل لدى قنصلية بريطانيا في دمشق، ثمّ فكّر بالاستقالة بعد زيارة الأمير شكيب أرسلان لأمّ الإبر؛ إذ سمع وهبة بيك من الأمير شكيب أرسلان بأن مهنته تتعارض مع وطنيّة

أهله، أما الشـيخ عربي فقد كان زائرًا مع أبيه، وشـارك في الحديث، مجادلًا الأمير شـكيب أرسـلان بقضـايا فقهية؛ فطبطب الأمير على كتفه، وتوقّع له مسـتقبلًا عظيمًا، وقال أمام الجميع: "أؤكّد جازمًا أنّ هذا الفتى سـيكون بمرتبة أمّة في رجل" كما أبدى وهبة بيك إعجابه به أمام ابنته ذات السـتة عشـر ربيعًا، التي لمعت عيناها لحظة وقع نظر عربي عليها.

بعد فترة، عرف عربي من أبيه أنّ وهبة بيك اسـتقال من منصـبه بصـفته قواص قنصـل، بناء على طلب الأمير شـكيب، ولكن أبا إبراهيم لم يخبره أنّ وهبة بيك أسـرّ له أنّ ابنته ثلجة مناسـبة زوجة له، بل أخبر زوجته؛ التي أبدت قبولًا سريعًا.

بعد أيّام فاتحه أبوه بأمر خطوبته، فأبدى عربي رفضـه الزواج نهائيًّا، ولكنّه وافق على زيارة بيت وهبة بيك؛ من دون أن يطرق معه موضوع الزواج، وحين حلّ موعد الزيارة لاحظت أم إبراهيم أنّه حمل معه سلالًا من صنع يديه، وقدّمها هدية للشيخ وهبة في أمّ الإبر، فأخبرت أباه ترجيحها؛ رغبة عربي في التقرّب من بيت وهبه بيك.

بعد إلحاح أمّه، وتدخّل أصدقائه، ورغبة أبيه في زواجه رضـي عربيّ بخطوبة ثلجة، ثمّ استعان أبوه بوفد جليل وكبير من وجوه دمشـق وتجّاره، رافقوه إلى أمّ الإبر، وطلبوا يد كريمة الشـيخ وهبة، ثلجة على عربي.. أتمّوا خطوبتهما، وبعد أسابيع أقاموا لهما عرسًا جليلًا في أم الإبر، دعوا إلى حفل زفافه كثيرًا من أكابر مدينة دمشق وشيوخها، وزفّت ثلجة إلى عربي.

اشترى عربي أرضًا في أم الإبر، وأشاد فيها منزلًا، وجعل في جانب منها مشغلًا للسلال، وعاش مع زوجته ثلجة من بيع السـلال؛ التي كان يصـنعها بيديه، كما كان أبو إبراهيم يمتلك أرضًـا واسـعة، سـجّلها باسمه.

مضـى على وجود الشـيخ عربي في أمّ الإبر أكثر من 15 عامًا؛ ظلّ حريصًـا – في أثنائها – على ألّا يعرف أحدٌ سرّه، ثمّ بات يشـجّع الفلاحين على شـراء الأراضـي من الإقطاعيين، ويزيد مساحة أملاكه بشـراء أراض جديدة من الإقطاعيين؛ الذين كانوا يبيعون من عقاراتهم للفلاحين؛ تحسـبًّا لمصـير بائس ينتظرهم؛ إذ بدؤوا يشـتغلون بالسـياسـة مع نهاية القرن التاسـع عشـر؛ اسـتعدادًا للثورة العربيّة الكبرى، التي قادها الشـريف حسين، التي آلت – فيما بعد – إلى قيام المملكة السورية العربيّة قبيل الاحتلال الفرنسيّ لسوريا عام 1920م.

كان يحمل السـلال، التي يقوم بتصـنيعها إلى مدينة دمشـق مرتين أسـبوعيًّا يبيعها، ويكمل يومه لدى بيت أبي ابراهيم، منغمسًا في المخطوطات التي أضـحت مباحة له بكاملها، ويسـتطيع أن يحمل منها إلى بيته في أم الأبر أيضًـا، ثمّ كان يؤّم في جامع أمّ الإبر إلى أن هدمته المدفعيّة الفرنسيّة، وسوّته على الأرض، وأقاموا ثكنة لجنودهم على أطلاله.

***

- بابا، أتسمعني جيدًا؟
- نعم كلّي آذان صاغية، فاستأنف يحيى كلامه:
- لكنّ الشيخ عربيّ – الذي كنته في حياتي السابقة – مع رجال أمّ الإبر تمكّنوا من تشييد مسجد جديد، وســـمّوه بيت الدين، كما عُيّن أميرًا للحج، وظلّ يحثّ أهله الجدد طوال حياته على قراءة القرآن الكريم، ثمّ شيّدوا حمّام أمّ الإبر على نفس طراز حمّامات دمشق، حيث قادهم الشيخ عربي إلى حمام الخياطين، الذي اشتغل فيه بصغره، وقام معماريّ فنّان برسمه، وتعاونوا على بنائه، هل زرته يا بابا؟ فأجابه أحمد ضاحكًا من قصص حمّام السوق:

"ســأريحك من الحكي قليلًا يا يحيى، فأنت ذكّرتني بجدّتي نعيمة، رحمها الله، كانت تحكي لي عن ذهابها منذ صــباها إلى حمّام الســوق في أمّ الإبر دوريًّا، مع نســاء أهل الدّار الكبيرة، وكم كنت أشــتهي أن أكون حاضـرًا معهن، لأكتب ذاك المشـهد، وهن يتمازحن متحلقات حول فسقية (بحرة) الحمام البرّاني، كنّ يجلسـن على مصــاطب مكسـوّة بمخدات ومســاند مطرّزة، يرتشـفن الشــايّ والزهورات واليانسـون، وهنّ مخدّرات بعد انغمارهن بالماء الســـاخن وبخاره، وبعد خروجهن ســـالمات من بين يديّ المدلّكة، كنّ يردّدن خلف مهيبة المغنيّة:

"كلّ البلا من النسوان ..... وهنّي أصـل البليّة

عملو بجهنم دكـــان ..... وساوو فيها جمعيّة"

ثمّ يتناولن الموالح الشـــاميّة من اللوز والفســتق الحلبيّ والبندق، والحلويات الدمشــقيّة من برازق وبقلاوة وكرابيج، وأنا قادر يا يحيى أن أتصور المشهد، لأنّ أمّي أخذتني آخر مرّة على الحمام بعد بلوغي الرابعة من عمري، وأتذكّر بشكل ضبابيّ المشـهد، ولعلّه ترسّخ في ذاكرتي بعدما منعتني خادمة الحمّام من الدخول بعد ذلك، وأجلستني في الصالة الخارجيّة من دون أمّي التي دخلت واستحمّت.

كانت جدتي نعيمة تحكي لي عن المدلّكة، التي تكشـط تراكم الأوسـاخ، وتزيله عن جسـد الفتيات، لتجعل جلودهنّ ناعمةً هفهافةً، وقد حدّثتني كيف تخضّــب خدّاها بحمرة الدم خجلًا من نفسـها، وكم كانت تحكي لي عن بعض حركاتها الجنسيةّ، التي تشعرها بالحياء والخجل من نفسها! وكيف كانت تفخر بقدّها الجميل، الذي جعلها قادرة على الاستحواذ على رجل جعلته شيخ أمّ الإبر، على الرغم من غلظته.

كانت تستمتع، وهي تحكي عن حكايات الحمّام، عن تلصّص النساء على أجساد بعضهن، لاسيّما النساء الباحثات عن زوجات لأبنائهن أو أخوتهن.. حمّام الشـيخ عربي يا يحيى، الذي أمسـى محطّ عرض لأجسـاد الصــبايا الجميلة المقموعة بقيم الحيونة الأبوية السـائدة لدى الذكور، تلك الأجسـاد المنتظرة إعجاب النســاء

اللائي تبحثن عن الجميلات منهن، واللواتي لا تقبلن سوى بالبيضاء الممتلئة صاحبة الفم الصغير، والعينين المتسعتين، كانت العزباوات تدعو إلى الله أن تكون إجابات القيّمة على شؤون الحمَّام في صالحهن؛ حينما تُسأل عن سمعة الصبية وأصلها وفصلها وغِنى أهلها، وكم كانت النحيفة بائسة لحظة إدراكها؛ أنّ واحدة من النساء لم تسأل عنها، أمّا المسنّات؛ فكنّ يتأسّفن على تشوّه أجسادهن نتيجة الشغل الشاق في بساتين أمّ الإبر، ووضعهن المواليد دوريًّا، وانعدام العناية بأجسادهن خارج حمّام السوق.

ثمّ ضحكا همسًا كثيرًا؛ حينما نقل أحمد لابنه ما روته له جدّته نعيمة، عن مشاجرة وقعت في الحمام بين نساء تصايحن نتيجة غيرة إحداهن من أخرى أكثر فتوّة منها، فخلعن القباقيب وبدأن يتضاربن، كنّ يتزحلقن على أرضية الحمام المبتلّة والمختلطة برغوة الصابون، وذكر له كيف كانت تختلط أصوات الشجار مع نداءات الاستغاثة؛ لتنتهي المعركة بحالة هياج من الضحك الهستيريّ بين النساء، كان أحمد يحكي عن لسان جدّته، ولكنّ أكثر المواقف كان يؤلّفها ليجعل يحيى يخرج من تماهيه مع الشيخ عربي.

ضحك يحيى بالفعل، ولكنّه توقّف – فجأة – عن الضحك، واستمرّ إخبار أبيه جادًّا ومقطبًا بين حاجبيه، كيف عاش الشيخ عربيّ مع زوجته ثلجة، وهما مثالًا للزوجين المحترمين، لم يأكلا من أرزاق أراضيهما، بل من تعب أياديهما، التي صنعت السلال فقط؛ إلى أن توفيت ثلجة من دون أن تنجب.

عرف أهل أم الأبر حينها؛ أنّ الشيخ عربي تزوّجها زواج نظر، وكانت هي خير الأخت والأم والصديقة له، اكتفت بالمتح من عواطفه النبيلة وأخلاقه الحميدة، تحمّلت مطالب جسدها ورغباته العنيفة، وأطفأت نيرانه بالقبل والتأمّل بعينيه الحزينتين والجميلتين، وبرعايتها المحبّة وعقلها الحصيف حوّلته إلى وليّ من أولياء الله الصالحين؛ إذ لا يزال الناس يزورون قبره في دارته؛ التي أوقفها مع كل أراضيه وأملاكه لطائفة مسلمة متكاتفة مقيمة في أمّ الإبر، من دون أن يغادر أبناؤها أوهام شيوخها الأميين وترهات مخطوطاتها وخُرافات أئمتها السابقين، مخالفين توجيهات الشيخ عربي المتماهي مع الأمير السيّد جمال الدّين التنوخي للالتحام مع أهل الإسلام من دون تقية أو استتار بالمألوف.

***

على الرغم من أن أحمد كان على اطّلاع بشأن ابنه يحيى على ما ذكرته له أمّه بعد سفره إلى الولايات المتحدة، فإنّه لم يكن يأبه لكلامها، ويحيل مسألة التقمّص إلى تأويلات فرويد التي يرجعها للعقل الباطن في ساحة اللاوعي عند الفرد، الذي يعتريه الإحساس بالفقد؛ فيعوّض بتقمص شخص آخر، وقد فهم التقمّص بوصفه إشباعًا جنسيًّا؛ نتيجة شعوره بالحرمان، وأحمد مقتنع بمعطيات العلوم المعاصرة وثورة تكنولوجيا المعلومات؛ التي كانت آخذةً في التطور المتسارع، ولأنّ العلم لم يستدلّ على وجود الروح بعدُ، فالتقمص أو تناسخ الأرواح؛ الذي تؤمن به طوائف إسلاميّة وديانات شرقية في الهند والصين مثلًا، لا إثبات علميّ له..

أمّا يحيى فكان يؤكّد لأبيه تقمّصه روح الشيخ عربي.. وكان أحمد يحتضنه بشدّة ويضحك معه محاولًا أن ينسيه قصّة التقمص، ولكن يحيى كان جديًّا بإخباره أن هناك الكثير من الدراسات، التي اعتمدت منهجًا توثيقيًّا؛ لقصص دوّنت لأشخاص؛ ادّعوا تقمّصهم حيوات أشخاص متوفيْن، أمّا أحمد فقد كان يبتعد بتفسيره لما ذكر عن ساحة لا وعيه أو عقله الباطن؛ الذي يكوّن استعارة افتراضيّة عاشها في حياة سابقة تعويضًا عن المعاناة، التي يلاقيها الفرد في حياته الشقيّة، وتذكّر كيف أضمر عتابًا شديدًا لأمّه، التي أدخلت في رأس يحيى تُرّهات التقمّص، منذ كان طفلًا، وعلّمته قصص التقمّص وحلولية الروح عن حياة سابقة.

أشفق أحمد على ابنه، وسأله عن الولايات المتحدة راغبًا في تغيير قصة التقمّص؛ التي كانت تدخل يحيى في فيوض عاطفيّة مرعبة:

- أكثر من تسع سنوات غبت في الولايات المتحدة – يا يحيى – أخبرني عنها؟ ودعنا من قصة تقمّص الشيخ عربي.

***

كم كان أحمد مندهشًا لهذا الفيض الوجدانيّ الذي ينبثق من محيا يحيى! وكم كان يحمد الله، حين يتذكّر قوى خفيّة جعلته يحافظ عليه جنينًا! وها هو – الآن – أمام ناظريه، ولكن أين؟! في السجن.. تُرى ألم يرتكب أحمد خطأً جسيمًا؛ حينما منحه لأمّه، وسلّم نفسه للمخابرات قبل أكثر من عقدين؟

أصبح يعزّي نفسه، وهو في السجن: ها هو ذا تجاوز السابعة والعشرين من عمره، لا تفارقه تلك الهالة القدسية المكلّلة رأسه؛ على الرغم من سجنه الرهيب، فلماذا الندم يا أحمد؟ أليس من واجبك الاطمئنان لوجوده معك؟ ألا تكحّل عينيك بقامته، وتُجلي عقلك بمعارفه؟

كان يحيى يسابق الزمن، وكاد يفرّ خارجه، وأصبح مغالبًا العدم بين يدي أبيه؛ مسرعًا بسرد قصته، وسرعان ما كانت تترقرق الدموع في عينيه حزنًا خفيًّا على ما عانى منه لحظة حضور منيته في حياته السابقة، من دون أن يحقّق ما صبا إليه، وكان أحمد يبادره بأسئلة:

- يا يحيى إذا افترضنا أنّ قصة الحياة السابقة؛ التي عشتها صحيحة، أين موقع العلم منها، أم أنك عدت لأوهام الخُرافات في غيبتك؟

- بابا، ليس هذا وقت المماحكات، أعرف توجّهك العلمانيّ، وأحترم خيارك، ولكن اسمعني جيدًا، قد لا يكون لنا متسعٌ من الوقت؛ لأخبرك بما يجول في خاطري.

- تفضّل يا عيوني، كلّي آذان مصغيّة، احك كلّ شيء عندك، ولكن عدني أنك سترد على بعض الأسئلة؛ التي تدور في رأسي.

- طبعًا سأردّ على تساؤلاتك، ثمّ أكمل يحيى:

- ما أخبرتك عنه هي ذكريات تلحّ عليّ أن أخرجها من رأسي، ولكنّني لحظة عدّت من السفر، كان همّي أن أتابع أبحاثي في الطبّ الجينيّ، ثمّ أدخلوني إلى سجني هذا قبل معرفتي نتيجة معادلة الشهادة، التي حصلت عليها، كما أريد أن أخبرك أنّني سعيت لتطوير تجربة أبي خليل القباني على أضواء ما توصلت إليه الموسيقا الشعبيّة في الدراسات الثقافية المعاصرة المرتكزة على مقتضيات سوبر ما بعد الحداثة المنتشرة في الولايات المتحدة، ودوّنت مشروعًا موسيقيًا شعبيًّا؛ تطويرًا لما بدأه أبو خليل القبانيّ وارتكازًا على كتابي الفارابي: صناعة علم الموسيقى، وكتاب الموسيقى الكبير، ستجد ما أخبرك عنه على اللاب توب، وعلى فلاشة أودعتها لصبية اسمها روز البكري، دمشقية تقطن في البيت نفسه؛ الذي تربيت فيه في القرن الماضي، وهي تشتغل بقسم دار الوثائق في متحف دمشق التاريخيّ قرب حيّ البحصة بمنطقة العمارة.

وشرح له كيفية استخدام برنامج الموسيقا الشعبية المطوّرة، المحفوظه بكلمة سر مكوّنة من أوائل حروف أسماء الفارابيّ والقباني ويحيى يتبعها2011، وكرّر عليه المعلومات، التي يجب ألّا ينساها لعدم وجود قلم أو ورقة في السجن، ثمّ تأوّه أحمد بعمق قائلًا:

- أنا متأكّد أنك ستخرج قبلي يا عيوني، ولكنّي لا أستطيع إلّا أن أذعن لطلباتك؛ منذ كنت جنينًا في أحشاء أمّك، مرورًا بتحقيق رغبتك في السفر للدراسة، وها أنت ذا عدت إلينا طبيبًا وعالمًا وفنانًا، والله يا يحيى، ليس أمامي إلّا أن أكرر ما أسمعه منك مثل طفل يردّد وراء أستاذه إملاءاته، وللعلم هذا شعوري مع شباب الثورة، الذين قادوني على درب التظاهر.

- يا بابا، آمل أن نلتقي، ولكن إذا خرجت قبلي أرجوك التوجّه إلى بيت روز، وأنا حمّلتها رسائل كثيرة ستوصلها إليك، لاسيّما قضايا تتعلق بمخطوطات تراثيّة، أرجوك أن تقطن إلى جانبها بشكل سريّ عن أعين الناس كلّهم.

- أعدك يا يحيى، وأنت إذا خرجت قبلي توارى عن الأنظار؛ حتى أتمكّن من رؤيتك من جديد يا بطل.

أصبح أحمد ينتظر القدر المشؤوم بعد إصرار ابنه على كشف ما يحمله من علوم وفنون واعدة جملة وتفصيلًا، واستطاع إخفاء هواجسه عن الموت، أمّا يحيى فقد أخفى عن أبيه صور الموت التي تراءت له في عيون محقّقيه.

***

لم يكن المساجين يعرفون الفترة الزمنية التي يقضونها، فأضواء المهجع البائسة تجعلهم لا يميّزون ليلهم من نهارهم، حتى يأتي معتقلون جدد يدفعونهم من باب المهجع، فيتحلّق حولهم السجناء، ويسألونهم عن تقديرهم الوقت، وغالبًا ما كان المعتقلون الجدد لا يعرفون؛ لأنّهم منقولون من معتقل آخر، وفي أحيان أخرى

يكون المُعتقَل مأخوذًا من مظاهرة، فإنّه يعرف وقت دخوله على وجه التقريب، فساعته وموبايله وأشياؤه يكون قد أودعها قبل وصوله إلى المهجع، ولن يأخذها إلّا إذا خرج نهائيًّا.

كان يحيى يشدّد على أبيه بوصاياه؛ لدرجة أن أحمد خاف أن يكون قد أصيب بمرض نفسي فصامي، وتنبّه لوصول أربعة شبان، ناداهم أحمد، ووسّع لهم مكانًا؛ ليقفوا متلاصقين، وسألهم عن الوقت همسًا، فقالوا: إنّهم اعتقلوا قبل دخولهم إلى صلاة الفجر في جامع الحسن في الميدان، وقدّروا أن ذلك تمّ قبل ساعتين، ثمّ التفت؛ ليحيى فوجده متوسدًا يديه؛ وقد غرق في نوم عميق، انحنى ووسعوا له مكانًا حتى تمكّن من رفع رأسه، واحتضنه مجدّدًا وحانيًّا بصمت.. كان كل من يقع نظره على المشهد الحزين يبكي عليهما، وقبل أن يفتح أحمد عينيه، ضحك يحيى، فهدهده، وغيّر اتجاه جسده في النوم قليلًا، ثمّ استيقظ يحيى فجأة، وهو يرفع يديه صارخًا:

- لا تذهبي، خذيني معك... لم يسمع أحدٌ الصوت سواه، ثمّ التفت نحو أبيه، وقال له:
- هل تعرف من كان معي في حلمي؟
- لا.. من؟
- ماري، كم كانت رقيقة تلك الفتاة! من دون مقدمات بكى أحمد على ماري سمعان، ولم يستطع أن يكمل حديثه مع يحيى الذي أكمل:
- جاءت ضاحكة لي، دعتني لمرافقتها، وحينما اقتربت منها حلّقت بعيدًا، ناديتها فسمعت ندائي، ورجعت تّجاهي، فاستيقظت قبل أن تأخذني معها.

شرب أحمد ماء من زجاجة، وقدّمها ليحيى، ثمّ قال له:

- الله لا يقدر تروح معها يا يحيى، متذكرًا تفسير الجدة نعيمة لحلم الميت، الذي يرافق حيًّا، فيموت قريبًا.

ابتسم يحيى من جديد، ورجع إلى سكينته، حتّى تشجّع أحمد، وسأله عن حقيقة التقمّص العلميّة، فأجابه يحيى:

- أنا بدأت في بحوث تتعلق بهذا الأمر منذ بداية دراستي في جامعتي، وقد ارتكزت على نتائج عدّة توصل إليها العلم حديثًا.

ثم بدأ يفصّل أفكاره، ويبسّطها لأبيه بصوت خافت، مثلما كان يحدّثه عن حياته السابقة، ومما قاله:

- إنّ ذواكر البشر لا تتبدد بعد الموت، وافترض العلماء ولوجها في بنيّة الوجود، الذي كان سائدًا قبل الانفجار العظيم Big bang، ثمّ كان الخلق المفترض وَفق الأساطير والأديان... كما تحفظ ذواكر البشر في البنية الرباعية الأبعاد للزمن الفضائي space time .. وحكى يحيى لأبيه عن تطبيقات علم الفيزياء

المرتكزة على نظرية الأوتار الفائقة super strings theory التي اقتضت إخضاع تداعيات القوانين الغامضة إلى تجارب الرنين الكوانتي Quantic resonance المكوّنة أشعة الليزر والنسق التشاكهي coherency والتناغمي Harmony إذ تموج الموجات المتشكّلة عنها بفعل الرنين الغامض المنطلق من الفوتونات المختصّ بمويجاتها؛ والتي تسلك، كأنها موجة واحدة بفعل الرنين الغامض الحاصل بين الفوتونات؛ الفوتونات التي تتبادل كميات الطاقة محدثة اهتزازات متوافقة التردّد، متناغمة، كما يحصل في العرض العسكري، فسأله أبوه:

- يا عيوني يا يحيى، أنا كنت معتقدًا أنّني عارف قوانين الطبيعة، لكنّني لم أستطع فهم كلامك، ولعلّني أميٌّ وفق ما تعرفه من علوم.. لكن ما علاقة هذا الكلام بالتقمص؟ فردّ يحيى:

- طالما أن ذواكر البشر لا تندثر؛ فمن الممكن افتراض التقمّص شبيهًا بحالة الرنين الغامض في الفوتونات، وأنّها تحدث بين ذاكرة حي وذاكرة ميت؛ إذ تتبادلان الطاقة تحت الفوتونية المجاوزة للزمكان، فيجب – حينئذٍ – تطابق الشخصية Personal compatibility بين حيّ من البشر ومتوفى؛ فالذواكر تحتفظ بانفعالات وعواطف وتفكير متعلّقة بالمعلومات السمعيّة والبصريّة والإدراكيّة؛ التي يتضمنها العقل البشريّ، ولا بدّ أن تتكاثر تلك الظواهر للأنفس البشريّة المتشابهة بظروف حياتهم؛ إذ لا تفهم النفس البشرية خارج الجينات الوراثية للفرد والتجربة الإنسانية، وجلّ من يتشابهون هم عامة الشعب والبسطاء منهم، لاسيّما الذين يعيشون دومًا على الفطرة، فإنّهم يتعرّضون للرنين؛ بسبب تشابه الأقران على مدى التاريخ البشري المتّسم بالقهر، ولعلّ حوادث التاريخ محفوظة بطريقة ما في هيكل الطبيعة رباعيّ الأبعاد 4 D nature structureفلا يبقى قيمة للموت؛ لأنّ الميت ترك وقائع حياته في السجّل الكونيّ، ومن الممكن استرجاعها، ولكن كيف يتم له ذلك؟ بتقمّصها والتفاعل مع انفعالاتها وأفكارها، بما يطابق الفرد الحيّ الحاليّ، وهو شخصية أخرى.

ثمّ ذكر يحيى لأبيه كيف تمكنت التكنولوجيا الرقميّة المعاصرة من استثمار تقنيات الليزر والرنين والذاكرة في الدخول الى قواعد البيانات الكونية Universal Data Base واعتدّ بفرضية الهولوغرام Hologram التي تفترض الكون هولوغرامًا عملاقًا، وشرح له كيف ابتكروا جهاز الرنين المغناطيسيّ وآلة التحريض الكهربائيّ – في تسعينيات القرن العشرين – اللذين ساعدا في تتبع عمليات التفكير والإحساس، وكيف استطاع العلماء حشر ذكريات اصطناعيّة ضمن الدماغ.

وأكّد أنّ الدّين استشرف مفهوم الذاكرة الكليّة للحياة على كوكب الارض؛ وما فيه من مخلوقات على مرّ الزمن، ابتداءً من زمن أساطير السومريين؛ التي فهمت الهولوغرام على شكل عالم الأموات أو عالم الشياطين والملائكة والبرزخ.

- لكنّني، لم أعرف يا يحيى إلى الآن علاقة ما تقوله بالتقمّص؟ استأنف يحيى:

- بإمكانك أن تستمدّ علاقة العلم بالتقمص، من فهم تكنولوجيا الليزر وثورة الهولوغرام، وتطبيق النتائج العلمية المتواترة فيهما؛ للوصول إلى قواعد بيانات الدماغ البشريّ تعالقًا مع الذواكر الكونيّة الما بعديّة، وكون الأرض هولوغرامًا كبيرًا عن طريق المفهوم اللاهوتي للسموات السبع المتكوّنة من الجسد الأثيري etheric bodyالذي يغلّف الجسد المادي ويحيط به، فالامتدادات الزمكانية للذاكرة، ليست بعالم منفصل، بل هي امتداد رباعيّ الأبعاد للجسد الموصوف بثلاثيّ الأبعاد.

- والله لم أعِ شيئًا مما تقوله، فسّر لي يا غالي، لم أستطع فهم ما هي علاقة الهولوغرام بالتقمّص؟ أنا أميٌّ بامتياز بعلومك المعاصرة يا عيوني.

- يا بابا ركّز معي قليلًا: إنّ مبدأ الهولوغرام يقول: إنّ الجزء يشبه الكل، وبناء على ذلك فمن الممكن الاستنتاج أنّ الروح – في حقيقتها – هي الكيان رباعي الأبعاد لذاكرة الدماغ، والأرضون السبعة ما هي إلّا السجل التاريخي؛ لكلّ الحوادث على كوكب الأرض، والسماوات السبع ما هي إلّا السجل الكلّي لمجريات الكون وأحداثه.

- وضح أكثر يا برفسور يحيى لو سمحت!

- بصياغة أخرى: إن مبدأ الهولوغرام يضفي على الأنساق الثلاثة تشابهًا في شكلها واختلافًا في حجمها، ولذلك فمراكز البحث المتقدّمة – الآن – تتسابق على الاستحواذ على هولوغرام تاريخ الكواكب، حينها تتكشف الحقيقة واضحة من دون تزييف أو تحريف، وستحدث صدمات عنيفة؛ حينما يعرف البشر أن تاريخهم الموروث من أديان وأساطير ومقدسات يكتنفها الكثير من الكذب.

- والتقمص مفهوم دينيّ وأسطوريّ وفيه شيء من الكذب؟

- إنّ التقمّص حالة من حالات المعرفة الحقيقيّة لوقائع يشوّهها أبناؤها بتزييفها وتشويهها...

وقبل أن يكمل يحيى، بدأ عقل أحمد يمزج بين يحيى ووقائع الثورة التي طال انتظارها؛ فاحترقت أحشاؤه من جديد، ثمّ بكى من دون أن يخفي دموعه، لا يعرف إن كان فرحًا أم حزنًا، ثمّ قال ليحيى:

- الآن ارتحت أنّك غير مقتنع بالخزعبلات الدينية يا بابا، أنا – الآن – مرتاح لوطن يقوده شباب من أبناء جيلكم، إن هذه المعرفة التي تمتلكها، وهذا الدمج الإبداعي بين مفاهيم إنسانية سارت على هديها البشرية آلاف السنين، ونتائج الثورات العلمية المعاصرة لم أتمكّن من استيعابه طوال أكثر من عشر سنوات عمل متواصل مع فريق عمل بحثي في مركز الدراسات الثقافية، الآن فتحت لي بابًا ألج به إلى ألفباء المعرفة الحاليّة، إن ما تعرفه ليس من نتاج جهودك – فقط – في الجامعات الأمريكية، بل له علاقة بزمن ثورة الربيع العربي... الله يحميكم يا يحيى، يا عيوني، حماكم الله أنت ورفاقك...

لم يتسن ليحيى إجابة أبيه إذ دخل سجّان، ونادى:

- يحيى أحمد، يحيى أحمد، نادى السجّان، فردّ يحيى مرتبكًا:
- نعم نعم، أنا هنا..
- تعال معي، بسرعة يا حشرة، لبرّا يا ابن الكلب، تحرّك يا حمار، أما زلت بمكانك، يلعن اللي خلقك.

كفكف أحمد دمعه، ثمّ ضمّ ابنه لصدره، وقبّله مودّعًا:

- الله معك يا غالي، ابق مثلما عرفتك بطلًا، أنا بانتظارك يا عيوني...
- والله يا بابا أحس أنّني لن أرجع، قد ينقلونني إلى سجن آخر؟ لا تنس رسالتي لروز، إذا أنت أطلق سبيلك قبلي، لا تنس روز في القنوات، حي الحمراوي، هي تعمل في متحف دمشق التاريخيّ، ولا تنس برامج اللاب كلمة السر عرفتها، لا تنساها، أحبك يا أبي، وأحبّ أهلي، وأحب أصدقائي، أحبّ سلمى، والله ينصر الثورة، قالها يحيى بصوت عالٍ، فسمعه كلّ المحيطين به، ترجّلوا حوله، منهم من يودّعه، ومنهم من يبكي على أحوالهم قهرًا، ومنه من يشجّعه...
- مع السلامة يا قلبي.. غصّ أحمد، وغالب دموعه، ثمّ تفاجأ بشباب المعتقل المجاورين، صامتين حزانى من حولهما، وقبل أن يكمل يحيى كلامه لأبيه، كان السجّان يصرخ شاتمًا:
- لماذا تأخرت يا جحش، يلعن الذي خلقك،..

أسرع يحيى الخطى، وخرج مع السجان، الذي كبّله، وطمّش عينيه، وبدأ يكيل الضربات على جسده بكبل يحمله، ويدفعه أمامه بكلّ وحشيّة!

***

بعد أسبوع من مفارقة ابنه أخرجوا أحمد من المعتقل مع بضعة معتقلين بعد منتصف الليل، استلم بعضًا من أغراضه المودعة، وفقد بعضها، منها حذاؤه الذي أودعه لديهم لحظة وصوله إلى المعتقل، فمشى حافيًا أمام الفرع، كانت ثيابه ممزقة نتيجة التعذيب، الذي تعرّض له، ورائحتها الكريهة جرّاء أوساخها والقمل والبراغيث؛ التي كانت تجول فيها وعلى جسده.

على ناصية الشارع حاول أن يوقف سيارة؛ فامتنعت السيارات عن الوقوف له، ثم اعترض سيارة أجرة؛ وأجبر سائقها على التوقّف، ركب فيها ومشت السيارة، وأجاب السائق السائل عن حالته المزريّة من دون تحفّظ، بأنّه كان معتقلًا، وخرج لتوه من فرع مخابرات الأمن العسكريّ، فأوقف السائق سيارته، وأطفأ محركها، وقال له:

- تعطّلت السيارة، انزل قبل أن أعيدك إلى السجن...
- يا أخي سأعطيك الذي تطلبه لحظة وصولنا إلى أم الإبر.

- انزل بالحسنى أحسن لك، خرّبت البلد أنت وأمثالك، خرى عليك وعلى الحرية التي تطالب بها...

لم يكن يعرف أحمد أن معظم سائقي الليل أضحوا مخبرين، لا سيما الذين يعملون حول الفروع الأمنية، استدرك الأمر؛ حينما دقّق بلهجة السائق الكاشفة انتماؤه الأقلويّ.

سار تّجاه أمّ الإبر مشيًّا حافيّ القدمين، ولم يعد يجرؤ على توقيف سيارة، خاصّة أنّه لا يمتلك مالًا، فالمبلغ الزهيد الذي كان في حوزته قبل اعتقاله، لم يعيدوه له من أمانات فرع المخابرات العسكريّة.

قبل أن يصل تعب، فجلس يرتاح؛ تباطأت سيّارة بالقرب منه، فأومأ لها، توقّفت، صعد إليها، وأخبر سائقها بوضعه، فتعاطف معه، وأوصله، وامتنع عن أخذ الأجرة، وأثنى عليه ورفاقه في أثناء الطريق.

وصل فجرًا إلى حيّه في أم الأبر، وبعد تردّد وحيرة أصابته عن وجهته، توجّه إلى الدار الكبيرة، تاركًا بيوت التنسيقيات؛ التي استأجرت بشكل سريّ لاحتواء الملاحقين من أجهزة المخابرات.

استقبلته أمّه بالبكاء والعويل، احتضنته، قبّل رأسها وطمأنها أنّه بخير، وتناول طعامًا خفيفًا وشرب كميات من الماء، كون معدته شبه فارغة، ثمّ أخذ حمّامًا وغيّر ملابسه، ونام حتّى فجر اليوم التالي.

لم يعلن عمر عن خروج أحمد، انتظر لعودة صحّته إليه، أمّا أحمد فقد لامه، وطلب من سلمى؛ التي لازمته في الدّار الكبيرة، أن تعلن عن خروجه معافى، كما رفض استقبال طبيب هضميّة، فمعدته لم تعد تؤلمه.

72

لن يبقى في لبنان أكثر من يومين، وبعدها يسافر إلى مصر.. تعدّت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وأحمد في حالة أرق، يسائل نفسه إن كان قادرًا على افتضاح سلوك الساسة الذين سيحضرون مؤتمر القاهرة وجرائمهم، أم أنّ أصواتهم ستكون هي المهيمنة على أجوائه.

تذكّر اتصاله بكوثر، وتمنّى أن تكون قد نجحت في التواصل مع منتهى سلطان الأطرش وإقناعها بحضور المؤتمر انتصارًا للثورة على السياسة، لما يحمله اسمها وصوتها وسلوكها من معاني وطنيّة متعلّقة باسم أبيها قائد الثورة السورية التي قاومت الاحتلال الفرنسيّ.

في نفس اللحظات، التي كان يبحث عن طريقة اتصال بها، رنّ جرس الموبايل، وظهر على الشاشة رقمًا فيه كود سوريا، فتحه على الفور، وكان صوت كوثر:

- كيفك يا غوطاني أبو فوز؟ ما هي أخبارك؟ ألا تذكر أنّ لك أحبّة في الشام؟!
- أهلا وسهلًا، والله كنت أبحث عن وسيلة اتصال بك منذ لحظات يا كوثر، القلوب عند بعضها يا غالية.. طمنيني عن أحوالك، كيف أخبار الشباب، هل أطلقوا سراح عبير ورفاقها؟
- لا.. والله يا أبو فوز، عبير لا تزال في السجن، وأنا لولا أخو حنان، ومعرفة أهلي ضباط مخابرات على مستوى عالٍ، لما خرجت.
- حرّر الله الأسرى والمعتقلين، ونصر شباب الثورة، لكن كيف أحوال صحتك؟ وهل التقيت بمنتهى الأطرش؟
- أنا بخير، التقيت مع منتهى الأطرش، وهي تقطن في منزل أبيها في السويداء، وقالت لي أن أبلغك: مسامح بالمؤتمرات والسياسة كلها، هي طلّقتها، ولا تريد أن تعمل إلّا على أرضية الثورة وميادينها في الداخل...
- وهل اتصلت بروز وبأخي عمر؟
- روز لم أستطع أن ألتقي بها، لكن عمر أزوره وسارة في الدار الكبيرة دومًا.
- بقي لي يومان في لبنان، بعد ذلك أسافر إلى مصر لحضور مؤتمر القاهرة، ولا أعرف إن كنت سأعود يا كوثر!
- تريد أن تبقى في مصر؟
- لا أعرف! أغلب الظنّ أنني أبقى هناك، ولا أرجع إلى لبنان.

- هكذا من دون وداع يا أبا فوز يا غوطاني، أنت أينك الآن؟
- أنا في عرسال، ساحتها، قرب جامعها ومشفى الرحمة.
- أغمض عينك وافتحها تجدني بين يديك يا غوطاني، سألت اليوم، ولا يوجد لي اسم على الحدود، أي غير ممنوعة من السفر؟
- لا تنسي أن تقابلي عمر، وخذي منه نقودًا كثيرة.
- أنا يا أبو الفوز لست بحاجة نقود، معي ما يكفيني.
- النقود لي، يا كوثر، تصرّفت بكل ما معي من نقود هنا في عرسال.
- تمامًا.. أغمض عينك، ولا تفتحها حتى أصل...

ارتاح أحمد لمكالمة كوثر، ثمّ ضحك على ردّ منتهى الأطرش، وقال: "معها حقّ، والله ذهابي إلى المؤتمر كمن يذهب إلى جهنم بإرادته.. ولكنني سأغادر إلى الإسكندرية فور انتهاء مهمتي في القاهرة"، ثمّ تذكّر منتهى حينما زارته في الدار الكبيرة، وهنأته بالسلامة، وتحاورا، وأعجب أيما إعجاب بوجهة نظرها؛ التي أغنتها من روح الثورة في أثناء غيابه في السجن، وتساءل: "من غيّب دورها ودور رياض الترك في المعارضة السوريّة، لماذا لم تعد تظهر على وسائل الإعلام؟!" وتذكر كيف أتحفت المحطات الفضائيّة بلقاءات عظيمة في بدايات الثورة، ثمّ أقصيت؛ ليقدّموا إلى صفوف المعارضة إمعات الساسة، ممن سعوا إلى الاستثمار بالمال السياسيّ، تذكّر– وهو بانتظار قدوم كوثر – دعوة منتهى له؛ لمرافقتها إلى الزبداني من أجل تقديم واجب العزاء بشهداء الثورة.

الطفلة وردة التي رسمت أباها الشهيد في الزبداني

(الثورة السورية)

أوّل من زاره بعد خروجه من فرع المخابرات العسكرية منتهى الأطرش، شدّت من عزيمته، ودعته إلى حضور مهرجان الشهداء في الزبداني.

رافقته كوثر في سيّارته التي أقلّ فيها أيضًا منتهى، بعد أن أُخبرت تنسيقية الزبداني بقدومهم، وطُلب من مسؤولها تجميع الأطفال الراغبين في تعلّم الرسم والتلوين لوجود كوثر، المعلّمة الماهرة، ثمّ توجّهوا نحو الزبداني.

قبيل وصولهم اتصل بأبي عمر، فاستقبلهم عند مدخل الزبدانيّ، وقادهم عبر طرق ضيّقة في البلدة القديمة إلى دار عربيّة، يحتضنُها الجبل وسط بساتين الكرز والتفاح العامرة، وصلوا إلى الدار باكرًا، وانتظروا وصول وفود مهرجان شهداء الزبداني القادمين من أحياء دمشق وريفها، حي الأكراد وأم الإبر ومخيم اليرموك وجرمانا...

بعد أن تعارفوا مع أعضاء التنسيقيّة، نساء ورجالًا، قُدّمت لهم أكواب الشاي المنعنع، ريثما يتمّ الانتهاء من تحضير الطعام، ثمّ توجّهت كوثر نحو غرفة أطفال ورشة الرسم، واستمرّ الباقون يحتسون الشاي.. التفتت منتهى إلى صورة القائد العام للثورة السورية الأولى 1925م سلطان الأطرش ضد الاستعمار الفرنسيّ المعلّقة في صدر القاعة، وقالت:

- لن أفاجأ بصورة والدي لدى بيوت أهل الوطن وحماته، والله أقاربي، استبدلوا صور المجرمين آل الأسد بصورته في موطن الثورة الأول، وحتّى في بعض بيوت بلدتنا القريّا في السويداء شبيحةٌ يدافعون عن سلطة الفساد متناسين سلطان الأطرش، ثمّ ذكّرت بشعار ثورة السوريين ضد الفرنسيين عام 1925م:

- شعار "الدين لله والوطن للجميع" ما يزال صالحًا لثورتنا الثانية – حاليًّا – بمواجهة طائفية سلطة آل الأسد وفسادها وإجرامها، وحذّرت منتهى من توجّهات دينيّة للثورة.

ردّ الشيخ عثمان، وهو مهندس عمارة ملتحٍ، ويقود تنسيقية الزبداني؛ مسوّغًا هتافات طائفيّة في بعض مظاهرات الثورة تناقلتها صفحات مؤيّدة:

- إنّ أبناء الثورة يرصدون الشعارات المسيئة للثورة، ويعملون على معاقبة مطلقيها، وقد تقصّد بعض الشبيحة تشويه الثورة بإطلاق هتافات طائفيّة متضمّنة شتائم للأقليات ومطالبة بعسكرة الثورة وتسليحها، إلّا أنّ أهل منطقة الزبداني وقراها أقصوا هؤلاء الخونة، ومن هؤلاء الشبيحة من تعرّض للضرب أو للموت – للأسف – على أيدي أهلهم المقرّبين منهم؛ لتيقّنهم من تنفيذهم ما يؤتمرون به من قبل فروع المخابرات؛ بهدف تشويه الثورة؛ ولخطورة ما يقترفون من إساءات بحقّ أهاليهم، ثمّ ذَكّر بضرورة المحافظة على الطابع الاجتماعيّ للثورة، والابتعاد عن أسلمتها ومحاربة عسكرتها والاستمرار على أساليب الكفاح السلميّ، وردًّا على سؤال أحمد عن الدعوات الجهاديّة، التي بدأ يردّدها بعض الشيوخ، ردّ الشيخ عثمان:

- إنّهم وجدوا ضالّتهم في المتأسلمين؛ الذين اشتغلوا مع أجهزة مخابرات النظام السوري في العراق بعد الغزو الأمريكي وإسقاط نظام صدام هناك، على أرضية تنظيم القاعدة، ومنهم من كان في حزب البعث العراقيّ، والله يجير الثورة من شرورهم، كما شرعوا في توزيع الأسلحة على شباب الثورة من غير أن يعرف أحد مصادرها، وهم الآن، يتجولون حاملين أسلحتهم جهرًا بكامل حريتهم، يعتدون على المتظاهرين، ويطلقون النار على دوريات الجيش السوريّ، ولم يسجّل اعتقال أحد منهم، والله يا أستاذ أحمد لا يُعتقل أو يموت برصاص أهل السلطة والشبيحة سوى شباب الثورة السلميّيْن العامليْن في الإغاثة والإعلام.

ردّت منتهى بمداخلة ذكّرت فيها بتاريخ السلطة وإجرامها واستعدادها لتدمير سوريا، وارتباطها بالأجنبيّ، الإيراني والأمريكيّ وحتّى الإسرائيليّ، وأكّدت ضرورة تفويت الفرصة على جماعة النظام؛ لحرف الثورة عن أهدافها، لأسلمتها وعسكرتها، كان الحضور ينصتون إليها جيّدًا، ثمّ أنهت كلامها، بالطلب من أحمد أن

يحكي لهم عن تجارب شـــباب درعا؛ حينما كانت المخابرات تترك الأســـلحة وذخائرها داخل الجوامع؛ التي تسيطر عليها؛ لتشجّعهم على استخدام السلاح.

حكى أحمد عن أســاليب الســلطة؛ التي لا تختلف عن أســاليب زعران العصـــابات، ثمّ أخبر عن ثبوت محاولات المخابرات تسليح شباب درعا، وحكى عن تجربته في دوما، والميل الشديد عند شبابها نحو سلميّة الثورة ورفضهم الطائفيّة والعسكرة، ثمّ ذكر لهم تجربته في السجن مع ابنه يحيى، مشيدًا ببطولات شباب الثورة، ونقل لهم ما يهمّ شباب الثورة في السجون، ثمّ سألوه عن ابنه وأحواله، فأجاب:

- والله، لا أعرف عنه شيئًا، أرجو من الله أن يفكّ أسره مع شباب الثورة، فقال آخر:
- سمعنا عن علمه الغزير، كلّ من التقاه تعجّب من ثقافته وأخلاقه، أمثاله عونٌ للثورة بإذن الله، فأجاب أبو عمر:
- أنا أعرف د. يحيى عن قرب يا شباب، يحيى ضمير الثورة وعنوان دربها نحو بناء دولة العلم المدنيّة، فكّ الله أسـره مع رفاقه الذين لا يقلّون عنه إرادة ومعرفة، من يجالســهم يدرك أنّهم روح الثورة المنتصــرة بإذن الله...

قدّمت الزبداني حينها عشرات الشهداء مع محيطها، وادي بردى ومضايا وسليمة وغيرها، ولم يمض على قيام الثورة ســوى شـــهور قليلة، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الجميع مقتنعًا بســلميّة الثورة وطهرانيتها؛ التي جمعت الناس حول أهدافها، وطهّرت كثيرين من التهريب والمخدّرات والســـرقة، حيث ازدادت أعدادهم في الزبداني ومحيطها كونها منطقة حدودية متاخمة للبنان وملائمة للتهريب.

ثمّ سأل أحمد عن كمال فياض الذي يميل للقسوة والعنف بتصريحاته الناريّة على الفضائيات فأجاب الشيخ عثمان:

كمال فياض ثرثار، دخل السجن علمانيًّا، إثر مشاركته في إعلان دمشق، ومراهنته على مساعدة علمانيي إسرائيل له بمواجهة السلطة؛ ثمّ أخرجوه مع الإسلاميين، ومنذ اليوم التالي؛ لخروجه من السجن دخل المسجد، وصلّى محاولًا امتطاء الثورة، لكن الشباب لا يكترثون به وبأمثاله، على الرغم من عروضـه لمدّهم بالأموال، كما يحاول توريطهم في التسليح.

***

احتجّت عائشة على عدم ذكر دور النساء الفعّال في الثورة، وشرعت في إخبارهم عن المظاهرات النسائيّة، ولكنّها توقّفت عن الحكي لحظة دخلت كوثر مندفعة بسـرعة ملفتة للأنظار، ثمّ صـمت الجميع، حين اقتربت من أحمد، وهمست في إذنه بضع كلمات، وسرعان ما تعالى صوتها قليلًا من دون وعيٍ منها:

- انظر الى رسمة وردة.. وردة في الصف الثاني، واستأنفت شارحة له ما رسمته.

كان أحمد يحدّق في لوحة الرسم, محاولًا أن يهدّئها مذهولًا وغاضبًا، فتتغيّر سيماء وجهه، كلما تقدّمت كوثر في شرح معاني اللوحة ودلالاتها:

- في وسط الورقة تابوت، في داخله رجل، وحينما سألتُ وردة من هذا الرجل، قالت: إنّه أبوها الشهيد، انظر يا أحمد لقد فتحت فمه قليلًا.. وسألتها:

- لماذا يفتح أبوك فمه؟ أجابت:

- يضحك آنسة.

رسـمته ضـاحكًا، ورسـمت من حوله، أمها وجدّها وجدّتها ورفاقه مندفعين نحو التابوت، وأبقت أباها يضـحك.. كانت وردة تبتسم يا أحمد، كلما حدّقت برسمة أبيها، ثمّ انظر كيف رسـمت في زاوية الورقة علم الاستقلال السوري بحجم تابوت أبيها، وفي النصف الآخر من اللوحة صـوّرت بنتًا صـغيرة بحجم كبير، وجعلت رأسـها جزءًا أعظميًّا من جسـدها، حتّى اتّسـع لعينيها الكبيرتين جدًّا، ورسـمت تحتهما كتلتين مدورتين،...

توقّفت كوثر عن الحكي لحظة وانتابها غُصّة، ثم شهقت باكيّة، انشده الجميع، فاستمرّت؛ وهي تنشجُ:

- أجابتني وردة بكل براءة، بعدما أصـاب عينيها احمرار شـفيف، وسـال الدمع على وجنتيها،...، وردة تعرف كلّ شيء يا أحمد، تعرف ماذا يعني القتل والموت والسلطة، تعرف ما هي الحرية، وتعرف كيف تعبّر عن عواطفها وما يجري حولها أكثر منّا!... وردة في الصـف الثاني الابتدائيّ... عمرها أقلّ من ثماني سنوات!... معقول الذي يحصل يا أستاذ؟

كانت كوثر ترتجف وتهتزّ؛ كمن أصـابه مسّ الشـياطين، تقرّب وجهها من رأس أحمد أكثر وأكثر؛ حتّى يشكّ الناظر إليها، أنها ترتمي في حضنه هلعًا، ثمّ علا صوتها من دون وعيّ:

- سـألت وردة عن الطفلة؛ التي رسـمتها في لوحتها، أجابت: "هذه أنا آنسـة وهؤلاء أهلي، وأبي يضحك،... وأكملت كوثر باكيّة:

- هاتان الكتلتان المدورتان الكبيرتان تحت عينيها هي دموعها يا أحمد، قالت: "أنا أبكي كلّ يوم على أبي، وأبكي على الحرية التي كان يحبّها"، كيانها وعالمها ووجودها بات دمعتين كبيرتين بحجم رأسها.. تخيّل يا أحمد...

وانفجرت كوثر – فجأة – ببكاء المفجوعة، كان عويلًا، وأصبحت تحترق.. خرجت من الصالون بأقصى سرعة، وما لبث أحمد أن شرع في البكاء الصامت الحزين جاهشًا، هو الرجل الخمسينيّ، الذي لم يذرف دمعة على أبيه حين وفاته الطبيعية، المعروف بمعتقلات السـلطة أنّه من أشـجع الرجال، الذين واجهوا جلّاديهم بإرادة لا تلين، أحمد الذي اسـتطاع أن يتجاوز محنة اعتقال ابنه يحيى؛ الذي أضـحى عنوان التضـحية لدى

جيل الثورة، أحمد الذي أسهم في إنقاذ الجرحى من تحت رصاص المخابرات، أحمد – الآن – يجهش، وتسيل على وجنتيه دمعتان كبيرتان، بحجم دمعتي وردة في رسمتها، طفلة الثماني سنوات.

قدّموا له المناديل الورقيّة وكأسًا من الماء، وحاولوا أن يهدّئوه، كان يحاول الكلام، فتأبى الأحرف أن تتشكّل كلمات تامّة في فمه، ثمّ يهمهم أو يجهش أو يتأوّه غاصًّا من أعماق قلبه، كان يحاول أن يحكي عن رسمة وردة، ولكنه عجز، ثمّ صمت، غطّى وجهه بيديه كلتيهما، وأنكس رأسه على طاولة أمامه، وغاص في عالم حزنه ودموع وردة، تخيّل أنّه يسبح في بحار لا نهاية لها تكوّنت من دموعها.

اختلطت مشاعر الحزن عليه، وكاد يختنق في دموع الطفلة؛ بعدما استعاد مشهد انتزاع ابنه يحيى من حضنه في مهجع الموت في فرع المخابرات العسكريّة، وقادوه إلى مجهول جرائمهم؛ التي عرفها في غرغرات موت المحكوميْن بالإعدام في سجن تدمر، وفي دماء ثريّا؛ حينما فصلوا رأسها عن جسدها داخل بانيو حمام الموت، وفي انتحار خديجة واغتيال سليمان وإبراهيم، في اختطاف الموت حبيبته ماري سمعان، عرف جرائمهم في التهجير القسريّ، في عيون معتقلي الثورة اليافعين، الذين صادفهم في سجنه.. عرف أحمد الآن – وهو يضع رأسه فوق الطاولة منفصلًا عن الوجود – درب الموت الذي اختارته السلطة، عرفه بهاتين الدمعتين الكبيرتين؛ اللتين رسمتهما وردة، ظلّ يعاوده البكاء من جديد، ويقول في سرّه:

– أتبكي وردة ابنة الثماني سنوات باستمرار؟ هكذا قالت كوثر، تبكي على أبيها الشهيد، الذي مات برصاص قنّاص مأجور، كان يرصده مِنْ على سطح بناء البلديّة في الحارة الشرقيّة للزبداني، قتلوه وهو يحمل الخبز لأسرته؛ بعدما عرفوا أنّه آدمن صفحة الثورة السورية، لتنسيقية الزبداني ومسؤولها الإعلامي، اعتبروه مصدر أخبار الثورة وإجرام السلطة في منطقته لمواقع اليوتيوب والفيسبوك وتويتر وللمحطات الفضائية، قتلوه الجبناء...

ساد الصمت الرهيب في الصالون، ولم يتمكن أحد من التلفظ كلمة واحدة، إلى أن اقتربت منتهى من أحمد، ورفعت يديه عن وجهه، وقالت له:

- ما رأيك في أن نتحول جميعنا إلى نائحات على شهدائنا يا أستاذ، ونترك اللصوص القتلة يفعلون بنا ما يريدون، ما بك يا أحمد؟ أأنت القدوة لهؤلاء الشباب؟ لا عتب على أحد إذا أنت كنت في هذا الضعف، ثمّ أيّدها الحضور، لاسيّما الشيخ عثمان، الذي قال له ممازحًا:

- صلّ على النبي محمد رسول الله أيّها العلمانيّ، وتوكّل على الله لمرة واحدة في حياتك، اذهب واغسل وجهك يا أستاذ.

أمّا أحمد فقد غاص في حزنه، وانغلقت حواسه على رسمة وردة ودمعتيها وأبيها الشهيد، الذي استحال وجهًا شبيهًا لوجه يحيى، ابنه الذي وصفوه قبل قليل بضمير الثورة، كان أحمد يشهد تبادلًا في أعينهما،

دمعات تفيض من عيون ابنه وتشـــكلان كتلتين، حتّى تحولت الدمعتان إلى بحرين غاص في أعماقهما، وهو يبكي...

دخلت عائشة – المدرّسة في ثانوية الزبداني – إلى الصالون مندفعةً، بدت قلقة جدًا، وأخبرتهم أن كوثر تبكي مع الأطفال في الغرفة، وقد أحكمت قفل بابها من الداخل، ولا تردّ على أحد، نهضوا مرتبكين، وتوجّهوا إلى الغرفة.. حاولوا فتح الباب، وعجزوا، فصرخ أحدهم:

- يا كوثر.. أين أنت يا كوثر؟ هيّا افتحي الباب...
- يا كوثر.. يا وردة.. يا سارة.. افتحوا الباب! ما الذي حصل لكم؟
- وردة.. أأنت بخير يا عيوني؟...

ولكن لا مجيب.. ثم صرخت عائشة بصوتها الجهوريّ، مستعيدة شخصيّة المدرّسة القويّة:

- افتحوا الباب قبل أن نكســــره، هيّا.. ثمّ طرقت الباب طرقات قوية بيديها القويتين، كادت أن تخلع إحدى ضلفتيه.

فُتح الباب أخيرًا.. فتحه الطفل عبد الرحمن الذي شـاركهم الرسـم، دخلوا فوجدوا كوثر تحتضـن وردة بكلّ ما في الكون من حنان وأمومة، تشـاركها البكاء المسـتمر على أبيها الشـهيد، وأربعة أطفال ملتصـقين بها من شـدة الخوف، نكس عبد الرحمن راجعًا، ليلتصـق من جديد بجسـد كوثر، فانبنى تشـكيل متكامل يوحي بحالة رعب من هيمنة غول بشع على المشهد، يتوسّطه احتضان كوثر لوردة، تكوين تشكيليّ يحاكي أسطورة ميديا، ويمثّل خلقَ كيان جسديّ تتصهر فيه خمسة أرواح في جسدٍ يئنّ ألمًا؛ تناغمًا على إيقاع نبضات قلب كوثر، الذي يسـيل أسـىً مع دمعتين يعجز الوجود على احتوائهما.. خلق جديد، لا أحد يسـتطيع فك لحمته، أنفس آدميّة تبكي؛ مثلما تبكي وردة على أبيها دائمًا، يذرفون دموعًا، لعلها تفيض، وتســـتحيل بحرين يمتدّان ويصـــبحان بحجم دمعتي وردة.. كانوا حزانى على انتظارها لأبيها، الذي أردوه جثة هامدة قدّام عينيها، وردة التي كانت تنتظره، ليرفعها عاليًا؛ كما عوّدها دائمًا، لعلّه يصـــحو من جديد، ويضـــعها على كتفيه، فتعود صارخة من جديد في عيد ميلادها:

"أنا أطول واحدة فيكم".. وترجع لعينيها ضحكتها، التي يسرقونها منها في كلّ لحظة..

ما الذي جرى لخمسة أجساد حملت روحًا واحدة، تتكوّم حول بعضـها؛ لتعيد تشكيل الخلق من جديد؟ ما الذي جعل هذه الدموع المنهمرة من عيون شـخصـت نحو رسـمة وردة؛ التي انتظرت أباها أمام باب البيت، فشهدت على طلقات موت قتلت أباها، ليسقط مضرجًا بدمائه!

لم تعِ وردة أن أباها قد رحل، ولن يعود، ركضـت تجاهه لحظة سـقط على الأرض، انحنت نحوه، ونظرت في عينيه، كان يضـحك لها، لوجهها.. أبوها الذي وصـل بعد انتظارها له، عاد، وها هي ذي ترفع يده، تريد

جسـده منتصـبًا؛ ليرافقها إلى البيت، تحاول أن تتلمس وجهه، أن تحمله، انتظرت، حاولت أن تفهم، ما كان يقوله لها، ولكنّها لم تتذكّر سوى ضـحكته لها، وأرغفة الخبز المتناثرة حوله؛ وهي مختلطة بدمائه، كان همّها أن يقف، ويرفعها من جديد إلى الأعلى، ولكنّه خذلها أخيرًا، فأطبق عينيه، تأمّلته وردة لحظات؛ وصـل أشـخاص.. اندفعوا نحوه، ورفعوا جسده عن الأرض فوق رؤوسـهم، أمّا هيّ فلم يغب عن ذاكرتها ضـحكته؛ حتّى بعد أن حملها أحدهم، وأدخلها إلى البيت، وعاد باكيًّا.

لم تتمكّن وردة من وعي حقيقة ما حصـل لأبيها، ولكنّها داومت يوميًّا في انتظاره أمام الباب على أمل أن يعلّمها أشياء وأشياء.. لولاه لما كانت قد تعلّمت كيف ترسم علم الاستقلال، ولما تعلّمت أناشيد قاشوش الثورة، التي كانت تنشدها مع أبيها فرحةً، أمّا الآن.. فلن تجد مع إنشادها إلّا بكاء ودموعًا من عينيها الخضـراوين، وردة الآن.. التحمت مع أقرانها في ضـمير كوثر، دخلت هي ورسـمتها قلوبهم، رسـمت علم الاسـتقلال الذي علّمها أبوها كيف ترسمه، وتخطّ دموعها في كلّ الأوقات شوقًا إلى أبيها، الذي اعتادت أن تناديه أستاذ بابا، وحينما كانت تُسأل لماذا تناديه أستاذ؟ كانت تقول: "لأنّه علّمني أشياء.." الأستاذ بابا مات، ولم يستطع أن يوصـل كلمة واحدة لابنته وردة؛ حين كانت ترنو إليه، وهو ملقىً بين أرغفة الخبز الملطّخة بدمائه، انحنت لإنقاذه، ولكنّه كان يحتضر، الأستاذ بابا الذي لم تتمكن وردة من رفعه؛ من أجل أن يحملها مع أرغفة الخبز المتناثرة حوله، هي في وحدة مع روح كوثر، ومع الأطفال الآخرين، يختبؤون في دواخلهم؛ ليبتعدوا أكثر عن الموت.

اقتربت منهم الآنسـة عائشـة، وحاولت مواسـاتهم بقلب يقطر حزنًا، وينشـحن ثورة، لم تتمكن من إخفاء حزنها، فصمتت مقطبة حاجبيها أمام المشهد الرهيب، ثمّ توجّه الشيخ عثمان إلى الله وصرخ من قلب ينفطر أسىً وغضبًا:

"يا الله.. أيّها المتربّع على عرشك منذ الأزل وحتّى الأبد، أيّها المتعالي بقدرتك، أنت يا رب العالمين، الذي نصـرت عبدك محمد في بدر على الكفّار الظالمين، انظر الى عبيدك المظلومين، امنحهم طاقة الصـبر والتحمّل؛ حتّى يتمكنوا من إعلاء كلمتك على الأرض، أمدّهم بعونك؛ ليرفعوا لواء الحقّ والحرية، أعنهم على أعدائك يا أرحم الراحمين، أعطهم فرصـة الحياة بكرامة؛ لينشـروا عدلك على الأرض، أيّها الربّ الرحيم، نحن الطامعين بتطعيم أرواحنا من روح عظمتك.. نحن الضـعفاء أمام جبروتك، نحن في حاجة إليك؛ لنستمد من لدنك رحمة وطاقة؛ لمواجهة أنظمة الظلم والفسـاد، أيّها الربّ الذي لم نتوان لحظة عن السـعي وراء دربك، ارأف بنا وبأحوالنا.. اسمعنا يا ربنا.. انظر إلى هذه الكتلة البشـرية، أيّها الربّ الذي ليس كمثله شـيء.. ألا تسـتحق وردة رعايتك، وردة الطفلة التي ترسـم لنا درب إرادتك في مواجهة أعدائك يا رب العالمين، يا أرحم الراحمين، يا الله...

واستمر الشيخ بالدعاء والتوسّل إلى الله واصفًا المشهد أمام ناظريه، كان صوته يتعالى أمام مشهد طفولة مغتالة، وكلما كانت الأنفس المتلاحمة تبتهل معه لله، كانت تتخلّص من حالة انصـــهارها وتوحّدها إلى حالة التوحّد مع دعائه؛ حتّى تمكّن – بالفعل – من إضـفاء روح الله على المشـهد، ثمّ علا صـوت منتهى، مؤنّبًا كوثر:

– يا كوثر ليس بالدموع نقاوم الاســتبداد والفســاد، الثورة تحتاج إلى إرادات قوية.. وعزائم أقوى، إنّ هذه السـلطة الطائفية؛ تتلقى التأييد والدعم من كل قوى الفسـاد العالمية، وإسـرائيل أول الراغبين في القضـاء على ثورة شبابنا؛ لأنّنا الأكثر قدرة على الاستمرار من ثورات الربيع العربيّ كلّها؛ التي تُحارَب من قبل بؤر الفساد العالميّ الموظّفة أنظمة حكم عاهرة في بلداننا،...

لم تعِ كوثر ما الذي كان يقال، فقد كانت متماهيّة مع وردة ورســـمتها، على الرغم من تباعد أجســـاد الأطفال؛ الذين تركوا أرواحهم مصـــهورة بروح وردة الباكيّة بدمعات كبيرة على أبيها الشـــهيد الذي قتلوه أمام ناظريها.

تقدّمت منتهى، وأوقفت الطفلة سـارة ومعها عبد الرحمن ونهى, وأخرجتهم، ثمّ سـاد الهدوء، وأبقت وردة في حضن كوثر، ومشت مع الأطفال برفقة عائشة نحو الصالون.

***

لم ينتبه أحدٌ إلى أحمد الذي تركوه وحيدًا في غرفة الصـــالون، حتّى رجعوا، ووجدوه غائبًا عن الوعي، ركضـوا تجاهه، وأحضـروا ماء دلقوه على رأسـه، ثمّ رشّـوا ماء الكولونيا على وجهه، تحرّكت عيناه بصـعوبة، فحملوه مسعفين إلى المشفى الميدانيّ، أخضعوه لفحوصـات عديدة، وخمّنوا وجود احتشـاء في عضـلة القلب، وقد يحتـاج إلى عمل جراحيّ.. كـانـت إلى جـانبـه منتهى الأطرش، وحين اطمـأنّـت أنّـه لا يزال حيًّـا، هنّـأتـه بالسـلامة، وغادرت المسـتشـفى، طالبة من الشـيخ عثمان تأمين واسـطة نقل لها؛ لحضـور مهرجان شـهداء الزبداني، وإلقاء خطبتها، لأنها تريد العودة إلى دمشـــق؛ لارتباطها بمواعيد، أمّا كوثر فغادرت مع أحمد نحو مركز القلب المفتوح، وسـهرت بجانبه، إلى أن قرّر طبيب حديث التخرّج أن مشـكلة أحمد تتعلق باضـطراب شديد في قولونه، وهو ليس بحاجة إلى أيّ جراحة، أو عملية قلب مفتوح.

بقي أحمد في المستشفى وإلى جانبه كوثر، وخرج في اليوم التالي؛ بعد أن أخضـعوه لعلاج ناجع، ثمّ عاد متخفيًّا إلى دمشق.

73

أخبر أحمد جيرانه، وهم على صـــــفرة طعام الإفطار، عن انتظار كوثر لزيارته، ثمّ صـــــعد مع المهجّرة الجديدة، وعاين الغرفة، التي ســـتكون لها ولأبيها وأبنائها مســـكنًا، كانت رائحة الدجاج عابقة في أركانها، وصاحبها يحاول أن ينظّفها مع زوجته بالماء والصابون، ولكنّ أحمد قال له:

- نحن لن نستأجر منك هذه الغرفة، إلّا إذا غيّرت بابها، ووسعّت نافذتها، واستعنت بمن يقوم بعملية طلائها، فأجابه:

- لا أمتلك النقود الكافيّة.. أقدر ان أؤمن علبة دهان، وأنا أدهنها، فقال الشاب الحمصيّ:

- اجلب الدهان والزيت والفراشـــي وأدوات الدهان اللازمة، وأنا أقوم بطلائها من دون مقابل، كما أنّي أعرف أركّب الباب والنافذة، ولكن عليك أن تجلبهم، وتؤمّن لي الأدوات اللازمة.

وعده أحمد بإعطائه أجرة أربعة أشهر مقدّمًا، لشراء ما يحتاجه الشاب لتحسين واقع الغرفة، وسألته المرأة عن إمكانية أن يحلّوا في غرفته بعد رحيله إلى مصر، أجابها:

- أنا وعدت بها طالبة الثانوي الحمصية خديجة، هي من سترثني.

أسلف أحمد الشاب مبلغًا من المال، ليكتب عقد إيجار الغرفة مع صاحبها، وتركهم يجهّزون الغرفة، ونزل عن السطح.

دخل إلى غرفته، ودوّن على هوامش صـــفحات ملفّ من ملفات يحيى، المذكور فيها طموحه لبناء قرية علميّة للفكر والبحوث في أم الإبر على أرض بستان أهله، ثمّ ذيّل أحمد على هامش الهامش، أيام عجزه عن حماية مركز الدراسات الثقافية، الذي سرق محتوياته شبيحة المخابرات؛ بل فقد قدرة الوصول إليه، لأنّ مديرية التربية أغلقته بالشمع الأحمر بناء على أمر من محافظة ريف دمشق، كما دوّن عند سطر طموح يحيى في اســـتثمار بســـتان أهله: "رحم الله بســـاتين أم الإبر يا يحيى، ورحم أشـــجارها وزهورها، لقد تحوّلت أراضـــيها الخصيبة إلى أبنية أسمنتية بشعة، وعقول أصحابها إلى قبور وقلوبهم إلى صحراء جديبة"، لم تطل إقامته خلف الكمبيوتر، تنحنح وعبر الغرفة الخارجيّة من دون أن يلتفت نحو الموجودين، وجلس في شـــرفة الشـــقّة متذكّرًا تواريه عن أعين الشـرّ السـلطويّة، حين وصـل إلى زقاق الحمراوي في حيّ القنوات الدمشـقيّ، الذي قطنه، والتقى مع روز فيه، وشرع في التحرّك منه ليلًا إلى ساحات الثورة.

قد يحطّم المرء، ولكنّه لا يُهزم

(أرنست همنجواي)

بعد أيّام من إطلاق سبيله من فرع المخابرات العسكرية، استمع أحمد لنصيحة شباب تنسيقية أمّ الإبر ضـــرورة تواريه عن الأعين، واختاروا له مكانًا آمنًا في حيّ الشـــاغور الجواني، ثمّ شـــرع يســـأل عن زقاق الحمراوي في حي قنوات؛ الذي وجّهه إليه ابنه يحيى قبل افتراقه عنه في المعتقل، الحيّ الذي احتضـــــنه في حياة سابقة؛ حينما كان الشيخ عربي.

كان يحيى قد حمّل أباه أمانة كبيرة أراده أن ينفّذها له بحذافيرها، ولكنّ قلق الســؤال عن مصـــير يحيى؛ ظلّ ينهب عقل أحمد؛ إذ لم تغب صـــورته عن باله لحظة واحدة.. كان يســـتحضـــره جنينًا رغبت أمّه في إجهاضـــه، ورضـــيعًا جميلًا تتأمّله عيون أهل الدّار الكبيرة متناوبةً النظر إلى ســـيماء وجهه الإلهيّة، وطفلًا صـــديقًا لحشـرات الحديقة وطيورها وقططها، وشـــابًّا جادًّا محبًّا يتحمّل أذية أقرانه، ولا يقابل ســـوءهم بســـوء، ومكافحًا على درب العلم الحديث في نيويورك، عاصـــمة الثورات العلميّة المتتالية.. بات أحمد يحمّل نفســـه مســـؤولية بعده عن ابنه الذي كان بحاجة إليه، ويلومها لعدم تمكّنه من حمايته، والانتقام ممن آذاه من أبناء الشطمات الكثر: منزوعيا وماهر وحمود وأبو العزايم وغيرهم.

بات ابنه يحضـر إليه ملاكًا مرفرفًا حين غفوته.. بات يتأمّله، فتسـيل دماء جروحه؛ لتفيض على المكان، يعوم بحثًّاعن الهواء؛ ملتحفًا الحياة من جديد، ثمّ ينفض جناحيه؛ ليدخل لعبة العدم والحياة، ويتساءل عن سرّ قدرته على اختياره الحياة.. على عكس اســـتفانوس القديس الذي اختار الموت أمام جلّاديه، ولكنّه لحظة مغادرة روحه لجسـده صـاح بأعلى صـوته: "يا ربّ.. لا تحسـب عليهم هذه الخطيئة" وسـار على درب العدم والموت.. سائل أحمد نفسه: "تُرى.. أيكون موت البشر قرارًا للراغبين فيه؟ أيمكن أن يموت الإنسان مستسلمًا؟ كيف يســتطيع القاتل انتزاع الموت من ضـــحاياه؟ لماذا أتذكّرك يا اســتفانوس، أيّها القديس المجيد، وأســـمع صـوتك مرتديًّا روح يحيى، وهو يصرخ مسامحًا جلّاديه...؟! إن أصـابك مكروه يا يحيى، أيكون باستطاعتي التسامح والغفران ممن آذاك في حياتك؟ أتراني جبانًا يا يحيى؟ أقسم بك أنّني لن أسامح قاتليك! أقسم بعلياء مجدك أنّني لن أترك من تعرّض لأذيتك يومًا...!" ثمّ يكذّب نفسه، وينتظر لقاء ابنه، ويقول في سرّه: "لا.. لن يغادرني يحيى، الحياة تســتحقّه شـــابًّا عالمًا فنّانًا حرًّا، أرواح رفاقه في ميادين الثورة وهاماتهم تصـــونه من الموت".

***

التقى أحمد بالأستاذ منذر، وأخبره مرامه وَفْق وصـيّة يحيى؛ موضّـحًا طموحه الثقافيّ بإكمال ما اشـتغل عليه، في زقاق الحمراوي في حي قنوات، وســـرعان ما أمّن له الأســـتاذ غرفتين في الطابق العلويّ في دار

عربيّة مملوكة لأسرة دمشقيّة؛ ومؤجّرة إيجارًا قديمًا لأقرباء له، الذين تناقص عدد القاطنين فيها، ولم يبق سوى زوجين معمّرين في الطابق الأرضيّ، ولعلّ الصدفة هي التي قادته نحوها؛ بعدما ذهب ليطمئن على قريبيه، بعدما اتّصل به ابنهما المسافر إلى الإمارات العربية، وطلب منه زيارتهما، ومن ثمّ انتقل أحمد إلى مسكنه الجديد في باطن دمشق القديمة بزقاق الحمراوي غير البعيد عن متحف دمشق التاريخيّ وعن قصر العظم، محقّقًا بذلك الخطوة الأولى من وصية ابنه يحيى.

كان يتوسط الدار التي قطنها أحمد باحة سماوية، يتوسطها بحرة، أو فسقية، وهي بركة ماء إسمنتية، لا ماء فيها راهنًا، ولكنها تحكي تاريخًا عن مياه نهر بردى الذي يروي دمشق، المياه التي كانت تصل من الطالع القائم المستمدّ من نهر القنوات المتفرّع عن نهر بردى إلى كلّ الدور عبر قنوات موصولة بفسقيات (بحرات ماء).. كانت قناة الماء تملأ الفسقيّة، فيأخذ أهل الدار حاجتهم من المياه، لتفيض وتدخل الدّار التالية، وهكذا حتّى تروي كلّ دور الحيّ الذي سميّ: قنوات.

لم يكتب أحمد عقد إيجار بعد كفالة أستاذ الرياضيات منذر له، وكان حذرًا بتحركاته؛ التي غالبًا ما تحصل ليلًا، وبعد أن اشتدّ حصار المخابرات على الحراك السلميّ، التزم أحمد غرفته، ولم يغادرها.

حوصر بالوحدة في تلك الغرفة الكئيبة المطلّة على شواطئ حزنه على تغييب ابنه يحيى وجهله بمصيره، ومن قاع وحدته المنغلقة على كهوف مظلمة في بيئة مجتمعيّة، كثيرًا ما عانى فيها هو وابنه من ظلم الأهل والمقرّبين وقهرهم، ومن جفاف الروح التي تواءمت مع فسقيّة مجفّفة من مياهها، وشجيرات تشلح ثوبها، وهيّ تتجه نحو الموت، سوى من حلم كان يتسلّل إلى قلبه عبر ثقوب النور في ذاك الأفق البعيد الملوّن بذكرى يحيى؛ بصفته طبيبًا مختصًا في الجينات، وهاويًا للتنقيب عن المخطوطات القديمة وباحثًا في شؤونها، فنانًا مبدعًا وموسيقيًّا بارعًا، أصبح أحمد يهرب من الكوابيس، التي منعت النوم عنه، باستحضار طيف ابنه يحيى؛ الذي تركه عرضة لساديّة سلطة الموت الطائفيّ.

كان طيفُ ملاك يزوره مفعمًا بروح يحيى الطائرة فوق فضاء ملوّن بألوان قوس قزح، جناحاه كبيران، وعيناه واسعتان تحدّقان في عينيّ أبيه، يسائله عن مدى التزامه بتنفيذ وصيته، إلى أن يتراءى له في يقظته، وهو مصلوب يتناول الخلّ، بل السمّ من أيدي أشخاص زعموا صداقته، كان يحيى يشرب؛ فتنفتح جروحه، وتفيض دماءً.

ظلّ أحمد وحيدًا يكتوي بنار الشوق للحظة انتصار مع ابنه، يلتحف سواء ليل دامس، يائس لا يخرجه من حالته السوداويّة؛ إلّا طيف ماري سمعان، وهي تحثّه على الشروع في تدوين ما قصّه عليه ابنه يحيى في سجنه الرهيب.

بعد أيام معدودات، تسلّل من مكمنه في زقاق الحمراوي، واتجّه إلى حي العمارة مارًّا بالحارات الضيّقة، متجنّبًا استخدام مواصلات، كان مقصده متحف دمشق التاريخيّ، الذي أوصاه ابنه يحيى للتعرّف فيه إلى روز الشاميّة في قسم الوثائق التاريخية لمدينة دمشق، دخل إلى المتحف واضعًا على رأسه قبعة، وعلى عينيه نظارات شمسيّة؛ حتّى لا يتعرّف إليه أحدٌ.

بداية لم يتجرأ أن يسأل أحدًا من العاملين عن قسم الوثائق أو عن روز، شرع في التجوال في أنحاء المتحف وحيدًا على طريقة السيّاح، ثمّ وقع نظره على آرمة معلّقة على باب، كتب عليها قسم الوثائق، القسم الذي يروم الوصول إليه.

كان الباب مفتوحًا فولج إلى داخل الغرفة، ونظر إلى الوثائق المخبّأة في صناديق زجاجيّة، متنقلًا بينها ومتلفتًا حوله؛ ليتسنى له مقابلة روز؛ استمرّ في التجوال وقتًا زائدًا عن الاعتياديّ، فسأله أحد العاملين عن مراده، فقال له:

- لا شيء أريد فقط أن أتمعّن في هذه الوثائق؛ فهي تهمّني في دراساتي.
- وأين تشتغل سيادتك؟
- أشتغل مدرسًا بقسم التاريخ في جامعة دمشق.

ثمّ تذكّر مكتبة الأسد، فذكرها للموظّف مشدّدًا على اسمها المشؤوم.. تركه الموظّف وهو غير مصدّق، وتوجّه إلى مكتب، ثمّ عاد برفقة صبية محجّبة، ترتدي جلبابًا يميل لونه إلى الرماديّ الفاتح، ثلاثينية العمر، وقفت أمام أحمد، وسألته عن مرامه في القسم، فأجابها، كما أجاب الموظّف السابق، ثمّ زادت عليه سؤالًا:

- من أين حضرتك؟
- أنا من حي القنوات، حارة الحمراوي.
- أنا من هناك، ولكنّ هيئتك ولهجتك غريبة عن حيّنا.
- .... وأمام صمته، وتخمينها أنّها تعرف وجهه، وظهور تردّده في أمر لا يريد البوح به جزافًا، التفتت الصبية نحو الرجل الآخر، وطلبت منه ضيافة، وسألت أحمد:
- كيف تحبّ قهوتك؟
- من دون سكّر ومغليّة.

أومأت للحاجب لتحضير الضيافة، ولحظة اختفى، دعته إلى غرفتها، جلست الصبيّة خلف مكتبها، ثمّ شخصت بوجه أحمد، وكررت عليه السؤال بتصميم:

- أنت من أين؟
- قلت لكِ من أين!

- هل لك أقارب في حي أم الإبر؟ فاجأه سؤالها، ودهش لمعرفتها أصوله، ولكن لا مجال له من التهرّب فقال لها:

- نعم أهلي من هناك، ولكنّني أعيش الآن في حارة الحمراوي.

دمعت عينا روز فورًا، وسألته:

- أنت شبيه الدكتور يحيى، كأنّكما طبق الأصل، هل تعرفه؟

تأثّر أحمد كثيرًا فور معرفته، أنّها هي التي يبحث عنها، وقفت أرتجت باب غرفتها، واتّجهت صـــوبه، فاقترب منها عانقها بحرارة؛ ليزيل حالة الرعب عنه قليلًا، ثمّ سألته:

- أين يحيى الآن؟ تركني، ولا أعرف إلى أين غادر؟ إلّا منذ بضـــعة أيام؛ حينما أطلقوا ســـراح أبيه، عرفت فقط عن طريق الفيس بوك، هل تعرف مكان اعتقاله؟

- أنا أبوه أحمد يا روز؟

قرع النادل الباب، فأشارت روز بإصبعها لأحمد أن يصمت، تناولت القهوة من يده وصرفته، شربا القهوة، ورافقته، شـارحة عن المخطوطات التي سـأل عنها، ودسّـت بيده ورقة، ليلتقيا عند أسـفل التلّة قرب مقهى أبو رياح القريب من ســكنه تمام الســاعة الســابعة مســاء، ودّعها من دون أن يلفت نظر أحد عن مرامه وعن شخصه، غادر إلى مقهى قريب من المكان اتفاقًا مع قريب لمنتهى الأطرش؛ التي عادت تنسّق معه للمشاركة في محافل تأبين شهداء الثورة في دمشق وريفها.

***

التقى أحمد منتهى الأطرش في أحد بيوت حي البحصة القديمة، وبعد أن سألت عن صحته، وعن أحواله، قالت له:

- والله يا أحمد بيت الأسد خربوا البلد، الطائفية معشعشة في رءوسهم، إذا بقي الشعب مشتتًا، من دون قيادة، لن يسقط هذا النظام المدعوم من أمريكا وإسرائيل وإيران.

- صحيح يا ست منتهى، لكن البركة بأمثالك، تصريحاتك على الـ بي بي سي، كانت في غاية الأهمية، لم يتجرأ أيُّ سياسيّ في الداخل، على أن يصرّح بمثيل لها.

- أنا غير مطمئنة يا أحمد، وأخشـى من الفشـل، شـبابنا ومسـتقبلنا يموتون أمام أعيننا، ونحن عاجزون عن فعل أي شيء.

ثمّ بدأت تلحّ عليه بالأســئلة عن يحيى، فأخبرها عن قصـــته وعن آرائه، وحماســـه منقطع النظير للثورة، وغصّ لحظة تذكّره كيف قادوه قبل خروجه من السجن بأيام، ولا يعرف شيئًا عن مصيره.

- الله يسلمه، أكثر الشباب والصبايا؛ الذين تعرفت إليهم يعرفونه، ويعرفون إمكاناته الاستثنائيّة، منهم من تعلّم من يحيى التصوير وبثّ الصور إلى المحطات الفضائية، ومنهم من أتقن كتابة تقرير صحفيّ، الله يحميه يا رب.

- لم يتمالك أحمد نفسه؛ إذ صدرت منه غصّات متتالية متجنبًا البكاء، وقال لها:

- بقيت معه طوال ثلاثة أسابيع، لم يخبرني بعمله في التنسيقيات فقد كان يحكي – فقط – عن تجربته في التنقيب عن مخطوطات، استعدّ لها في نيويورك، وشرع بإنجاز مشروعه منذ عودته، قبيل الثورة، وحكى لي عن الشيخ عربي الذي عاش في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وعن رؤاه العلميّة تجاه قضايا تراثيّة؛ ولكن بعقل أصوليّ معاصر، يروم يحيى تأصيل المعاصرة، نتيجة انفتاح عينيه على ثقافات الغرب ونتائج الثورات العلميّة راهنًا.

- غريب، والله.. يحيى أكبر من بلاد، غريب عن أي شيء حكى لك؟

- أعطاني مفاتيح شغله، وعلّمني كيف أشتغل عن طريق من تعاون معهم، ابتدأته اليوم بالتعرّف إلى روز الشاميّة.

ثمّ اتفق مع منتهى على الاستمرار في المشاركة الجماعيّة في مهرجانات الشهداء، التي بات الثوار يقيمونها في أحيائهم وبلدانهم، ثمّ حدّدا موعدًا للذهاب إلى مدينة داريا مساء اليوم التالي.

في غضون تلك الفترة، امتنع أحمد عن الذهاب إلى حي أم الإبر، إذ قويت شوكة الشبيحة والمخبرين، بسبب غلبة الأقليات الطائفية؛ التي تقطن أطراف حيّ أم الإبر، وكانوا يقومون بالسرقة والاعتداء على الناس، ويمنعون المظاهرات بالإرهاب، أمام نظر تجار وشيوخ أمّ الإبر وسمعهم.

أصبح أحمد يلتقي بين الفينة والأخرى مع عمر، الذي أضحى يعيش قصة حبّ مع سارة بعيدًا عن السياسة، وبقيت صلاته مع تنسيقيات بلدان غوطة دمشق الجنوبيّة، ولم يعد يلتقي سالم أبو فرج الله، وغالبًا ما كان ينسّق عن طريق كوثر للتنسيق مع أصدقائها وصديقاتها، واتفق معها على كيفية تواصلهما المستمر.

***

أصبحت مدن وبلدات وقرى ريف دمشق؛ محاصرة من قبل ميليشيات السلطة وجيشها ومخابراتها، وكان شبابها مصرّين على التظاهر في ساحاتها، أخرج بعضهم أسلحة كان أهلهم معتادين على اقتنائها، واشتروا من ضباط فاسدين أسلحة آلية وذخائر، بعد أن تبرّعت لهم أمهاتهم وأخواتهم بمدخراتهم وذهبهم، وتحصّنوا في أطراف البساتين يصدّون هجمات الجيش والمخابرات، وكانوا يوقعون في صفوفهم قتلى وجرحى، وكانت ظاهرة الانشقاقات عن الجيش قد بدأت، وصار كثير من المجندين وصفّ الضباط والضباط يلتحقون بصفوف المقاتلين، وكثرت الإعدامات الميدانيّة للفارّين الذين يفشلون بمغادرة معسكراتهم، وازداد عدد المقابر

الجماعيّة، وتضاعفت أعداد التوابيت لأهل الشهداء في المناطق؛ التي تسيطر عليها السلطة، وأضحى كثير من الشباب يعملون في الإغاثات الغذائيّة والطبيّة والخدميّة، بين مناطق السلطة وبلدات استعصت على جيشها، وأكثر ما كانوا يحتاجون إليه هو الدّم، الذي راجت تجارته، وأضحت أسعاره كبيرة، وكان د. نبيه منزوعيا من الذين يؤمّنون أكياس الدّم من بنك الدم الحكوميّ، ويبيعها بأسعار خياليّة، وصار مقصدًا لشباب الغوطة الشرقيّة، وأصبح يحاول إيهامهم أنّه معهم ضد السلطة؛ لكسب أرباحٍ خياليّة.

ضاقت الأحوال بأهالي غوطة دمشق، فأصبحوا يتسلّلون من بين البساتين إلى حيّ أمّ الإبر ويقيمون بين الأقليّات الفرعيّة، ويحتمون في أحيائه المكتظّة بالهاربين من المناطق المنكوبة من كافة أنحاء سوريا.

خرجت مجموعة من شباب زملكا ليلًا؛ لتحمي نساء وأطفالًا وشيوخًا قصدوا أم الإبر؛ هربًا من الحصار والموت، وحينما وصلوا إلى تخوم بساتينها، فوجئوا ببضعة من شبيحة أم الإبر، تحلّقوا حول مجموعة المتسلّلين، وطلبوا منهم النوم على الأرض تحت تهديد السلاح، ولم ينتبهوا لوجود مسلحين متوارين بالعتم خلف سوق الأشجار، الذين غافلوهم، وأطلقوا الرصاص في الهواء، ثمّ انقضّوا على الشبيحة، وأجبروهم على الابتعاد بقوة سلاحهم، وفتحوا الدّرب للهاربين، حتّى دخلوا حي ام الإبر فجرًا، فاستقبلهم الأهالي، وحموهم من ملاحقات أجهزة السلطة.

في طريق العودة، اشتبكت مجموعة الحماية مع الشبيحة؛ الذين نصبوا كمينًا، وتبادلوا إطلاق النّار؛ مما أدّى إلى وقوع جرحى، وقد أسعف إلى عيادة د. نبيه منزوعيا شابٌّ من زملكا أصيب إصابة كبيرة في ظهره، وكان يعرفه نتيجة علاقة معه تتعلق ببيعه أكياس الدم، ثم أسعف للعيادة اثنين من شبيحة أمّ الإبر، فطلب لهم سيّارة إسعاف، وأخذهم إلى مستشفى خاصّ.

بعد أيامٍ خرج أحدهم، وبقي اثنان للاستشفاء؛ إلى أن أرسلهما أصحّاء، وتلقّى من أهليهما الشكر لحسن رعايته، ثمّ استقرّ الشاب السقبانيّ في أمّ الإبر نتيجة إصابته، وبات صديقًا لابن أمّ الإبر، الذي تراجع عن تشبيحه مع قوات مخابرات السلطة وجيشها، وسلّم السلاح الذي سلّموه إياه في فرقة حزب الجبهة والتزم بيته.

74

دخلت خديجة إلى غرفة أحمد في أثناء انهماكه في تدوين شهادته عن شباب داريا، استقبلها بودّ أبويّ، فسألته من دون مقدّمات:

- أستاذ، لماذا العالم كله يريد لحمص أن تسقط؟ ما الذي فعله الحماصنة غير الدفاع عن كرامتهم وحريتهم؟! ومتى سنرجع إلى حمص؟! بالله عليك أستاذ خذني على مقدار عقلي وأجبني.
- بؤر الفساد العالمي تريد إسقاط سوريا كلّها في براثن الإرهاب الدولي والطائفية والتكفير والتشتّت، لأنّ انتصار شعبها على الميليشيات الطائفيّة والتكفيريّة، يعني انتقال الثورة إلى البلدان العربية والإسلامية، وحينها ستكون بمرتبة الثورة الفرنسية.
- أستاذ، ما هي الثورة الفرنسية؟
- ابحثي في غوغل عنها يا ديجة؟
- قلّ لي بالله عليك كلمتين عنها، وأنا سأبحث عنها فيما بعد.
- قامت في باريس عام 1789م وكانت فاتحة ثورات الربيع الأوروبي، التي نقلت أوروبا إلى النظام الديمقراطي الحديث.
- وما النظام الديمقراطي أستاذ؟

حكى أحمد لخديجة، طالبة الثانوي، عن بطولات شباب ريف دمشق، وافتخر بهم، وركّز على معالم تحضّرهم، وملامح من سلوكهم الديمقراطيّ، بصفتهم مثالًا للنظام الديمقراطيّ.

- ليسوا أبطالًا، كما هم شباب حمص يا أستاذ.
- شباب الثورة السورية كلهم أبطال يا ديجة.
- صحيح.. لكن شباب حمص أكثرهم رجولة وبطولة.
- لن نختلف يا جميلة، لكنني أريد أن أدقّق ببعض ما دوّنته عن بطولات شباب ريف دمشق، التي كنت شاهدًا عليها في الأشهر الأولى للثورة، لذا أردت أن أشحذ ذاكرتي في الحديث معك عن سلوكياتهم وبطولاتهم العظيمة.
- والله.. سنختلف يا أستاذ! لو تكتب نصف ما أعرفه عن شباب حمص، لكنت تحولت إلى كاتب عظيم وعالميّ.
- ولماذا لا تكتبين حضرتك؟

-	لا وقت عندي لسخافة الكتابة والكتّاب، وقبل أن يردّ ودّعته، وخرجت مسرعة.

ضـحك أحمد من كلّ قلبه لديجة الحمصـيّة الجميلة، ثم حرص أن يصـنّف ما كان قد دوّنه عن ميادين البطولة في دوما والزبداني ومعضمية ومدن ريف دمشق كافة؛ استعدادًا لتدقيقه وتحقيق مضامينه، وشرع في توثيق ما شاهده في داريا قبل نحو السنة.

صلاة ميت على الموت

(الثورة السوريّة)

لم يتمكّن أحمد من الوصـول إلى داريا مبكرًا مع منتهى الأطرش وكوثر؛ حيث مهرجان الشـهداء، الذي ينعقد بعد صـلاة العشـاء، وصـلت سـيارتهم – التي يقودها أحد شـباب الثورة – إلى مفرق داريا، اعترضـت طريقهم دورية مخابرات، وطلب رئيسها هوياتهم؛ قدّم له أحمد بطاقة هويته، تحقّق منها، وأمروهم بالرجوع من حيث أتوا؛ وحينما عاندت منتهى، عاضدها أحمد، وقال لأحد عناصر الدوريّة:

-	يا أخي، دعونا وشأننا، الواحد لا يقدر أن يمشي في بلده؛ إلّا بموافقة أمنيّة، والله.. عيب.

-	عيب بالذي خلقك، والله، لو ما كانت معك هذه الحرمة لسـويتك من الأموات، ارجع أحسـن ما نبتلي بربّك.

-	....

أمسك أحمد بيد منتهى، وطلب من السائق الرجوع من حيث أتى، وحين وصوله إلى مفرق صحنايا تذكّر إمكانية الدخول من طريق زراعيّ آخر يقع بين أشرفية وصحنايا، فوجّه سائق السيّارة نحوه؛ إلى أن اعترضت سـيّارةٌ سـيارتهم وأجبرتهم على الوقوف، ومن لهجتهم تبيّن لمنتهى أنّهم من دروز صـحنايا، كانوا مدجّجين بالسـلاح، وطلبوا من منتهى وأحمد الترجّل والوقوف جانبًا، كانوا مكلّفين بتوقيف السـيارات العابرة بناء على تعليمات المخابرات، ولكنّ منتهى بلهجتها الجبليّة قالت لهم:

-	أليس عيب عليكم؟ أأنتم قطاعو طرق؟ ألستم أبناء بني معروف؟

عرفوا هويتها، أنّها ابنة سلطان باشا الأطرش، قائد الثورة السورية ضد الفرنسيين عام 1925م، الذي يعتزّ به الدروز بصفته واحدًا منهم، فقدّموا لها المزيد من الاحترام، وطلبوا منها أن ترجع، ولا تكمل دربها إلى داريا لخطورة الموقف عليها، ولكنّ منتهى أصـرّت على إكمال دربها، فأذعنوا لطلبها، واشـترطوا عليها أن تنام في داريا عدّة من أيام؛ درءًا لأخطار قد تهدّدها في درب عودتها.

لاحظ السائق الشابّ أن السيارة تبعتهما؛ حتى وصلوا إلى مشارف داريا، وصارت بموقع الأمان، حينها استدارت سيّارة الشبيحة الدروز، ورجعت من حيث أتت، وعرف أنّهم قاموا بحماية بنت من يعتزّون باسمه.

قاد شباب داريا منتهى وكوثر إلى منصّة المهرجان، وانتظر أحمد مع الشاب المرافق لهم داخل السيارة قرب جامع داريا الكبير، ريثما يكتمل وصول بقية الوفود، الذين بدؤوا يتجمّعون من نواحي المناطق المحيطة.

لحظة تحرّك الوفود نحو قلب داريا، شرع أحمد ببثّ وقائع المهرجان على قناة اليوتيوب، وقبل أن تتقطع الوفود المتوافدة إلى ساحة الشهداء في داريا، انطلقت الألعاب الناريّة إيذانًا ببداية مهرجان التظاهر في (جمعة الثأر لدماء الشهداء) من دون أن تخمد هتافات المتظاهرين الصادحة غضبًا في ساحة المهرجان ومحيطها، كانت هتافات الوفود تشوّش على بعضها بعضًا:

"لا إله إلّا الله والشهيد حبيب الله"، ثم يتداخل مع هتاف آخر لمظاهرة أخرى:

"داريا نحنا معاكي للموت داريا"، وأخرى تدخل الساحة من جهة مغايرة:

"وسمعوا الحرية من عربين الأبية، يا شهداء الحرية"،... ثمّ تسمع:

"جرمانا نحنا رجالك، الله يلعن خوّانك".

تمنّى أحمد لو يمتنع التشويش على الهتافات، لتتضح الصورة والصوت أكثر في التسجيل؛ الذي يبثّه مباشرة، ولكنّ ذلك كان مستحيلًا، لا سيّما حين اكتظّت الساحة بالناس المتدافعة، بعدما عاد المشيّعون من مراسم دفن شهدائهم السبعة؛ الذين سقطوا في ذاك اليوم.

فوق الأكتاف، ترى شابًّا يهتف لشهداء الثورة، يلوّح بخنجره بحركات بهلوانيّة، شاخصًا نحو منصّة المسرح، يشعرك أنّه يخاطب آخر حاضرًا أمام ناظريه، تتابع سهام عينيه، فتجد فراشةً ترفرف في عمق خشبة المسرح، تغمض عينيك؛ لتومض أمام ناظريك عروسًا بقدّها الممشوق.. إنّها ليلى التي تتلألأ ضياء معانقة خيوط السماء المجدولة مع نور حبيبها محمد.

كان محمد مستمرًّا بهتافه، وهو فوق الكتاف، لحظة لمح ليلى، دفع خنجره في الهواء، ثمّ تلقّى مقبضه بمهارة فائقة، فازدادت ضحكتها حيويّة، تلك الضحكة التي لم يعرف محمد أنّها فارقت خياله ساعةً طوال عمر الثورة.. كيف تفارقه! وهو الذي كان يرقب جسدها المفعم ببراعم الورد الجوري وعبق الياسمين منذ تلك اللحظة؛ التي التقت عيناهما في المظاهرة الأولى؛ المنطلقة من جامع داريا الكبير؟ كيف تفارقه وذكرى سقوط حجابها وهجرانه عن رأسها؛ عندما كانت مرفوعة على الأكتاف، وهي تهتف في مظاهرة النساء؛ راسخة في مخيلته؟ كيف لا تبقى قابعة في فؤاده؛ وهي التي تعرّف إليها في الأيام الأولى للثورة؟ كيف لا...، وقد حبكت قصة حبّها معه تحت نيران القصف والبارود والأحقاد وكراهية الطائفيّة؟ كيف يغادر محياها؛ واليوم ليلة زفافهما المتوّجة بولوجهما سنّ الشباب؛ إذ ترفّعه إلى السنة الثالثة بكلية الطبّ، وترفّعها إلى السنة الثانيّة في قسم اللغة العربية بكلية الآداب؟ كيف ينسى صوتها، وهي تلقّنه قصيدة الحصار لمحمود درويش، وفيض

أنوثتها يغمر وجوده؟ أيخامرك شكٌّ أنّ رائحة ليلى تبرح أنف محمد؟.. رائحتها التي تعبق في فضاء وجوده؛ أينما توجّه.

تشكّلت المظاهرة كتلةً واحدة، يقودها محمد نحو منصّة المسرح المنصوبة في صدر الميدان، وهو لا يزال مرفوعًا فوق الأكتاف يهتف ملوّحًا بخنجره، خطاه تسابق صوته للوصول إلى درب ليلى، هناك تنتظره.. جسدها المهفهف في ثوبها الأبيض، طرحتها المطرزة بوريقات شقائق النعمان؛ التي أبت أن تبقى رسمًا؛ فتدلّت عناقيد من دم.. اقترب محمد من منصّة المسرح هاتفًا للحرية والشهداء، التقت عيناهما، وسمع نداءها له أن يبرّ بوعده، كانت تتزايد لهفةً للتوحّد مع رقصة الخنجر؛ التي كان قد وعدها بأدائها قبل ليلة زفافهما بأسبوعين.

في تلك الليلة وسط زغاريد مهرجان شهداء الحرية، كنتَ تسمع أناشيدَ الغضب العارمة وتراقص هامات النساء قبل الرجال؛ طربًا لصوت الحرية، حينها صدحت موسيقا زوربا، فتمازجت الأرواح التوّاقة للتحرّر من أعباء أجسادها وتعانقت، كنت تشهد على عناقهم قوس قزح مطمئنين لعهد الله لهم.

اشتعلت الساحة طربًا ورقصًا، الأتربة شكّلت عواصف في فضاء الميدان، وكلمة حريّة طغت على الموسيقا الصاخبة؛ التي أوقفها عريف الحفل فجأة، وأعلن عن خطبة إمام الجامع، شيخ الغوطة الغربية.

لحظة انقطاع نشيد الحرية لزوربا اليوناني، كان محمد يهمّ بإشهار خنجره المنمنم بالصدف الأبيض والأحمر والأسود المنساب شكله كعروس البحر؛ بارًّا بوعده لمحبوبته، أن يراقصها رقصة الخنجر؛ التي استلهمها من رواية حنّا مينة (الشمس في يوم غائم)، أومأ لرفاقه باستعداده للأداء؛ فتحلّقوا حوله، وبعد أن باشر الرقص، توجّه بعضهم نحو منصّة الحفل، وطلبوا من عريفه إيقاف خطبة شيخ الغوطة الغربية، التي بدأها:

- يا حاج، لا يمكن سماع خطبتكم، الآن، أفسحوا المجال للشباب؛ حتّى يحتفلوا على طريقتهم.

ولكنّ عريف الحفل والشيخ رفضا التنازل عن المنصة؛ ثمّ لاحظ أحمد، وهو يصوّر المشهد بكاميرا ابنه يحيى غضب الشباب من تواطؤ سياسيّ الأحزاب وشيوخ الدّين وكراسيهم المتصدّرين منصّة الحفل، وهمّ بالتدخل لردم الهوّة بينهما، لحظة انتزع شابٌّ الميكروفون من يد الخطيب الشيخ، وأسرع بتسليمه لقاشوش داريا، الذي ما توانى لحظة عن الإنشاد:

"ياللا ارحل يا بشّار".

ليشتعل الشباب حماسةً مقيمين الدبكات والرقصات، فعبق المكان بالغبار من جديد، واستمرّ صوت القاشوش دقائق يصدح فوق رؤوس شباب يتسلقون خيوط النور نحو السماء احتفاء بحريتهم، ورويدًا رويدًا أخفض قاشوش داريا صوته حتّى توقّف عن الإنشاد، وطلب من الجميع التفاعل مع عرس مهرجان ليلة

جمعة الثأر لشهداء الثورة، عرس ليلى ومحمد، محمد الذي أبى إلاّ أن يبرّ بوعده لعروسه، فشرع في إتحافهم برقصة الخنجر.

اتّسعت خشبة المنصّة للعروسين، تقدّما معًا، ثمّ حمل محمد عروسه، ووضعها أميرة على المرتبة العالية، كانت تضجّ حياة.. بهاء لون خدودها الورديّ عانق باقات الورد؛ التي نُثرت عليها، وشقائق النعمان ازدادت توهّجًا؛ وهي تتدلّى على أطراف رسومات فستان زفافها، ثمّ اقتربت صديقتها وتوجّتها بإكليل من زهر الياسمين والفلّ البلدي أميرة بهيّة.

شهر محمد خنجره، واقترب من عروسه، أوقفها، ولثم رأسها بقبلة طويلة، ووضع يده بيدها، وقدّما تحيةً وشكرًا عبر الميكرفون؛ لجميع من شارك في جمعة الثأر لشهداء داريّا، ثمّ شهق ومرارة الحزن مشوبةٌ بآهات الآلام؛ وهو يترحّم على شهداء الثورة، إلى أن صدح بصوته، ومن ورائه جمهور مهرجان شهداء داريا:

- "عَ الجنّة رايحين، شهداء بالملايين"، فردّد خلفه مئات، بل آلاف الحناجر؛ حتّى اخترقت أصواتهم عنان السماء: "عَ الجنّة رايحين، شهداء بالملايين".

***

صدق محمد بوعده.. تقدّم إلى وسط المسرح، وبدأ يرقص على نغمات صخب الموسيقا العربيّة؛ التي كانت تلاحق حركاته المتواترة، أذهلت رشاقته الحضور؛ إذ كان يقفز عن الأرض ويحلّق معانقًا السماء.. يحرّك خنجره على إيقاع نبضات قلب محبوبته ليلى المتسارعة، التي تشرأب نحو قامته المتدانيّة منها. انضبطت حركاته على لهفة محبوبته في الوصول إليه، وعلى إيقاع المتظاهرين؛ الذين يتمايلون، ويصفقون تماهًيا مع إيقاع رقصته.

أمّا أحمد فقد ظلّ يقترب من محمد وليلى موجّهًا عدسة كاميرته تّجاه وقائع المهرجان على قناة اليوتيوب، وأصبح يسائل نفسه عن موقع الشيوخ وجلابيبهم وساسة المنصة وياقات أعناقهم وكراسيهم.. وزوربا كازاتازاكيس أمام رقصة محمد وحبّه لليلى! "هل كان بإمكانك أن تخفي وجه ليلى عن مخيلتك لحظة تلمحها، وهي تلاحق حركات محبوبها منتصبة على كرسيها رافعةً يديها نحوه، كأنها تريد حمايته من خطر محدق؟!" كم كانت النفوس توّاقة للتخفيف من اندفاعها الوشيك على حبيبها محمد!

تتمايل الناس كأمواج البحر الهائجة الذي لا شواطئ له، جموح شباب يتحدّى المستحيل، طغيان كلمة حرية على الوجود، ثمّ ماذا؟ "تطبق جفنيك من جديد، فتبرق لك ومضة خوف من عدم تمكّن ليلى احتضان محمد"، كان يمرّ أمام لحظ ناظريها؛ وهو يمتشق أشعة الضياء الواصلة إلى السماء سهامًا.

صـــار محمد يراقص محبوبته، ويراقص داريا التي أحبّها، يراقص عنبها وزيتونها، ظلّ يضـــاهي زوربا في رقصته وأحلامه، صار الصدى عن ضمائر الناس ورغباتهم بالتحرر والكرامة المتناغمة مع ومضات جسده الراقص.

في تلك الليلة، ليلة عرس شـهداء داريا، وليلة زفاف ليلى إلى محمد، الذي لم يتسـن له أن يعرف ما الذي جرى! كان يحلّق في فضاء رقصته بارًّا بوعده لمحبوبته، في تلك الليلة الظالمة سمع أصوات انفجارات متتالية في فضاء المهرجان، ارتمى نحو الأرض لحظة تردّد أصداء صوتها في أذنيه:

أنا أحمد العربيّ، فليأتِ الحصار /

جسدي هو الأسوار، فليأتِ الحصار /

وأنا حدود النار، فليأتِ الحصار /

وأنا أحاصركم /

وصدري باب كلّ الناس، فليأتِ الحصار

يا أيّها الجسد الذي يتزوّج الأمواج فوق المقصلة/

وتقول لا لا لا لا لا...

تواصلت أصداء لا لا لا لا... في حلم محمد؛ حتّى أصمّت الانفجارات أذنيه، وأعمت بصره، وخرج من سياق الحكاية، أمّا محبوبته فاستمرّت الحكاية في قلبها وروحها وعلى صفحات ذاكرتها.

لم يعرف محمد، كيف تلاشى وجوده وسط عالم أبيض مملوء ببقع الدم، صار عدمًا في سكون رهيب، عجز عن اختراقه بصراخه الذي لم ولن يسمعه أحدٌ.. كان توّاقًا؛ ليلتصق بجسد ليلى ورفقة خنجره ليرقص لها، ولكنّ البياض لفّه من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميْه.

في لحظات انتشـــار اللون الأبيض ســمع عويل النســاء وصــراخ الأطفال، وأصــوات شــباب يتوعّدون المجرميْن، تراءى له وجه ليلى الدامي، وهي تعلي صـــرخات اســـتعصـــامها بحبيبها واســـتنجادها به، ثمّ انقضاضها على جسده، وهي تهزّه بعنف:

- وا محمداه.. وا محمداه.. لا تمُت يا محمد، من هو مثلك لا يموت، انهض يا محمد، لا تتركني وحدي.. انهض يا عيوني، وأكمل رقصتك...

- ....

خرج حبيبها من ســـياق الحكاية، وظلّت هي في متنها مداومة على إحياء روحه من جديد، بقيت تحرّك جسده، تهزّه بعنف، تقبّله، تعتذر إليه، وتحاول إيقاظه.. "وا محمداه... وا محمداه..."

التصـقت بـه، ثمّ أطبقت فمها على شـفتيه محاولة بثّ الحياة في جسـده المدمّى، اختلطت شـقائق النعمان المتدليّة من فسـتان عرسـها بدمائه، توحّدت روحها مع جسـده، مرّت ثوانٍ خالتْها سـنين مديدة، حتّى جاء من أيقظها.. رفعوها عن جسده، ولكنهم لم يتمكنوا من روحها؛ التي ظلّت عالقة في روحه.

اسـتمرّت غيبوبتها؛ إلى أن رفعت يدها نحو جسـده المحمول على نقّالة، كانت تلامس كفّها ما تيسّـر لها من جسـده، ثمّ بقيت إلى جانبه في غرفة الإسـعاف المركّزة مع مسـعفيه.. حاول الطبيب إيقاظه منذ لحظة إسعافه الأولى، رفع يده، فسقطت حرّة على جسـده، انحنى وقرّب وجهه من أنفه، استقام، وذرف دموعًا.. لم ينبس بكلمة واحدة، بقي صـامتًا أمام عيونهم المتسـائلة؛ أبت الحروف أن تتشـكّل كلمات، وامتنعت الكلمات عن تكوّنها ألفاظًا منطوقةً.. صمته والغصّـة؛ التي اجتاحته، جعلت صرخة محبوبته ليلى تشقّ ما وراء عنان السماء، مرتمية على جثمان حبيبها، طالبةً الموت:

- طلقة رحمة يا شـباب، طلقة رحمة يا أمي، أمتني يا أَلله، يا أَلله.. موتي أرحم من الحياة، موتي أرحم من دونك يا محمد، يا أَلله، أمتني...

بكاء وعويلٌ وزغاريد على شهيد جديد، وهتاف جامعٌ:

"لا إله إلّا الله والشهيد حبيب الله"

***

هناك في كواليس المســرح، كان يختبئ آخرون، غرباء عن داريا، تقدّم أميرهم القادم من قبور الماضـــي والمنصـهر بعهر سلطة الموت، ورفع خنجر محمد عن الأرض، قبّله وضمّه إلى صدره، وسـار أمام ملتحين وجلابيب؛ منسلّين خارج ميدان شهداء داريا، وغذّوا سيرهم وسط عتم الظلام.

أما ليلى فدخلت في دروب حبّها المفقود، التي أفضت بها إلى المستشفى الميداني؛ لمعالجتها من الصدمة النفسـيّة.. وحين تعافت حملت محمدًا روحًا هائمة فوق رأسـها، وزارتها كوابيس الموت في لاوعيها، وباتت تجترّ ذكريات في آخر دروب حياتها.. أمّا محمد فلا يزال يبثّ في روحها روائح ياسـمين الحب، وصـهيلًا جامحًا يلفّ كيانها؛ هاتفًا لها على الدوام؛ صـادقًا في وعوده؛ راقصًـا على أنغام حبّهما وإيقاع الحرية رقصـة الخنجر.

في كلّ مسـاء تبدأ حكاية عرس ليلى من جديد، يخرج محمد من الحكاية، يتسـلّق النور؛ فتبرز عضـلات أعضـاء جسـده الممشوق، تلتحم بأعضـاء ليلى النديّة، وتعانق روحه حريتها، فتصـل إلى ذروة المشـتهى، ثمّ تنزلق نحو الفجر، تصـرخ صـرختها المدويّة معلنةً نكوصـها عن مملكته، صـرخة عرفها كلّ من بقي في داريا إيذانًا باستيقاظها، صرخة تؤكّد عدم موتها، صرخة تستحضر ذكرى تلك الليلة؛ التي فقدت فيها حبيبها، ذكرى مهرجان شهداء داريا في ريف دمشق، حينما اخترقت أصوات الحرية فضاء المهرجان، ووصلت إلى السماء.

في كلّ مساء تطلّ ليلى على الساحة، تعاين نواحيها، تتجه نحو مركز منصّة مسرحها المرتوية بدم حبيبها محمد، تلتقط ملامح حبّ مضـــى من عبق عبير بســاتينها وورودها وحلاوة عناقيد عنبها، تمزجهم مع ذكرى محمد؛ مُحضِـرة طيفه راقصًـا رقصـة زفافهما، تتحسّـس خنجره المصـدّف، تحرّره من سـياق الحكاية؛ وتأخذه مغالبًا الموت، تناوله خنجره من جديد، يشهره، ويتجّه نحوها حبيبًا جميلًا.

***

ظلّ أحمد مع منتهى وكوثر عدّة من أيام في داريا، حيث أضحت عودتهم إلى دمشق مستحيلة، كان يصل كلّ فجر إلى تخوم السّاحة، يجلس على كرسيّ متهالك، تحضر ليلى، يمتزج طيفها مع طيف ابنه يحيى على منصّة مهرجان الموت.. فيتساءل بينه وبين نفسه عن مصير ليلى بعد موت محمد؟ وعن مصيره بعد اختفاء أخبار يحيى؟

الآن.. بإمكانك أن ترى قامة محمد الممشوقة مجدولةً مع هامتها المحلّقة مثل فراشة حول لهيب نار حبّها، أنفاسه تعبق بأنفها، عبيره سرّ حياتها، طيفه يداعبها، تبتسم له كلما استقام في انحناءاتها، فتأبى التحرّر من قيد حبّه ومغادرته، انظر جيدًا.. تجد كفّه عابثة في شعرها المنهمر على كتفيها شلال ضياء غزير، أنوثتها تفيض على وجوده، فيسـتجيب لرغباتها، دقّق النظر جيدًا.. تجدها تقبّله احتراقًا، ثمّ ترسـم قلبًا في الهواء، يخترقه سهم الموت، و.. تمضي.

75

تحسّس الورقة، التي عثر عليها ملقية على أرض غرفته، وفيها دعوة صريحة لممارسة الجنس على سطح البناء، وإن كانت قد أثارت حواسه في لحظات معيّنة، إلّا أنّ ما شغله أخيرًا تحديد مصدرها، وحينما كان يثبت نظره في المرأة الخصيبة المهتاجة، ويحاول أن يفسّر ردات فعلها، لحظة كلامه عن الديك الذي على السطح، والسطح الذي يرغب أن ينفرد أحمد بذاته في إحدى زواياه المظلمة، لم تكن ردّات فعلها توحي أنّها صاحبة الورقة، فينتقل إلى ابنتها، ويحاول أن يجعلها تنزلق لاعتراف، بأنّها هي صاحبة الورقة، فتبوء محاولاته بالفشل، إضافة إلى حيرته من دهشة خديجة لدخوله في طور الهلوسة، كلما ذكر السطح، ثمّ ماذا: "من رمى الورقة إذن؟! لعلّها الجدّة السائرة على درب الزهايمر"، فيذهب، ويلاطفها، ويسألها:

- ما رأيك بمشوار إلى سطح البناء، فتضحك من كلّ قلبها، وتقف قائلة:
- آه ما أجمل سطح بيتنا! خذني إليه.. ما رأيك أن تلعب معي على السطح؟
- .... يفتح فاه، ويقول بينه وبين نفسه: "أمعقول أن تكون هي من رمى الورقة في غرفتي في تلك الليلة؟!" ثمّ يغادرها من دون أن ينبس حرفًا، ويدخل إلى غرفته، يغلق الباب، ويسلّم نفسه للعتم، فيسرقه الماضي.

كثيرة هي الأحداث والمواقف والشخصيات التي تفاعل معها أحمد في غضون السنة الأولى للثورة، أكثرها مأساوية، وإن اعتراها الكثير من الفخر والاعتزاز بشجاعة فرسانها وحكمتهم، وأقلّها مفرح وإن شابها أشياء من الحزن والأسى.. هذا ما كان قد وصل إليه في ساعاته الأخيرة الباقية له في لبنان، ولعلّ ابتسامته التي تعلو وجهه، كلما استدعى صورة كوثر أكثر ما كان يؤنس وحدته التي استحالت انتظارًا للسفر.. بات ينتظر حضورها، متأكّدًا – على الدوام – من أنّ صوت الموبايل مفتوح.

كوثر هي الصبيّة التي عرفت كيف تخرجه من عالم السكون والوحدة والانتظار إلى متعة الحياة؛ بعد افتقاده ماري سمعان.. كوثر التي يكنّ لها احترامًا وودًّا وعرفانًا بالجميل في داخله! كم هي جميلة لحظات سباحته في بحر خياله؛ إذ يحطّ على شاطئ جسدها المغمور بروحها التواقة للحرية، يحطّ قربها على سرير اشتهاء الحبّ المفعم بالزهور البريّة وبألوان الغجر الصاخبة! بات يستعيدها صهيلًا جامحًا باثًّا في روحه المشاعر الحيّة، جانيًّا شهد رضابها؛ مثل نحلة هرمة تحطّ على رحيق أزهار الربيع.

كوثر الجميلة التي لا تعرف إلّا أن تضحك في وجهك، كلما التقت العيون بالعيون.. كوثر ذات القامة الفارعة، والقدّ الممشوق والابتسامة الملائكية.. "أيتها الحرّة الثائرة العذبة كماء سلسبيل جنات الخلود، أينك

الآن؟ ما الذي حلّ بك بعد اعتقالك المتكرر؟ ها أنذا أنتظر زيارتك، على أحرّ من الجمر، لعلّك تمنحنيني طاقة الحياة قبل سفري إلى القاهرة، طيفك - يا كوثر - أمامي الآن، وأنت تتعرّفين إلى سارة في مظاهرة القابون النسائيّة.. أتذكرين أيتها النبيلة؛ حينما التقتيما قبيل صلاة الجمعة أمام الجامع الكبير؟ أتذكرين كيف أوصلتكما ممثلة تنسيقية القابون إلى مفترق الطرق، وسلمتكما إلى صبيّة منقبة طويلة عريضة المنكبين؟

كُتِبَ على الشعبِ السوريّ الثورة، حتى إسقاط النظام، ولن يتراجع..

(منتهى سلطان الأطرش)

مضى على الثورة نحو أربعة أشهر، وحالما وصلت كوثر وسارة إلى ساحة القابون الرئيسية للمشاركة في المظاهرة، توجّهت المنقبة معهما إلى ورشة بدر الدين الحلاق من دون أن تنطق كلمة واحدة، ولم تكن الورشة بعيدة.. دقائق قليلة وصلن إليها، وبعد أن أشارت المنقبة إشارة بالموبايل، انفتح بابها، وتبيّن لهما أنّها ورشة لتصنيع الأحذيّة متوقّفة عن العمل، ولم يبق فيها سوى بعض الأحذية المهملة والأثاث والآلات القديمة المعطّلة؛ لأنّ صاحبها بدر الدين الحلّاق باع كلّ ما كانت تحتويه، وأنفقه في سبيل الثورة.

فوجئت كوثر وسارة؛ حينما قال بدر للمنقبة:

- أهلين وسهلين أختي، كيف زوجك؟ فأجابته المنقبة بصوت ثخين:
- يخاويك الجان بجاه الرسول، أنا أختك؟

وبعدما خلعت الصبيّة المرافقة النقاب عن وجهها، تبيّن للفتاتين أنّه شابٌّ يحمل شاربًا كثًّا متنكّر بلباس منقبة، تواريًّا عن أعين المخابرات.. ضحكتا كثيرًا، وشربتا الشايّ، واستأذنت سارة لتصلّي، فشاركها بدر الدين، ثمّ استمرّوا نصف ساعة، يتبادلون أطراف الحديث؛ إلى أن أُذِن لهما بالتوجّه نحو الجامع الكبير للمشاركة في مظاهرة النّساء؛ وحينما وصلتا لاحظتا وجود بضع نساء تتحركن مرتابات، ولم يستطعن التجمّع، إلى أن اقترب بدر الدين الحلّاق إلى جانبهما، ورافقهما نحو صحن الجامع، قائلًا لهما:

- لا تخافا، ستنطلق المظاهرة غصبًا عن رؤوس المخابرات، ثمّ دلّهما على وجود عناصر المخابرات في زوايا عديدة، وعلى القناصين على أسطح البنايات؛ التي لا تبعد كثيرًا عن ورشته، فقالت له كوثر:
- لا يا أخ بدر، يجب ألّا نغامر، إذا كانت المنطقة موبوءة بعناصرهم، دعنا نؤجّل المظاهرة! فما كان من بدر إلّا أن رفع جانبًا من ثيابه عن خاصرته، ودلّهما على مسدس، وعلى الجانب الآخر عصي كهربائيّة؛ قائلًا بثقة:
- هذا ما سيجعلهم يذعنون للحقّ، نحن أصحاب حقّ يا أخت، والله سبحانه وتعالى قال: {وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة...} فأجابته سارة بارتباك:
- هذا الكلام خطير يا أخي، ثورتنا سلميّة، ولا مكان للسلاح فيها.

-     كفانا ضعفًا، من نصف قرن، ونحن ننتظر أن يخلّصنا ربنا من المجرمين الخونة الكفار، ولا يزالون يزدادون قوة، والله يا أختي لا يفلّ الحديد غير الحديد، قال لهما، وغادر من دون أن يسمع إجابة.

اقترب بدر من تجمع النساء، وأعطاهم إشارة الانطلاق في مظاهرتهم، فما كان من سارة إلّا أنْ اتصلت بخطيبها عمر، مبديّة هلعًا ممّا شهدت، وطلبت منه الحضور إلى جانب أوتوستراد حمص؛ ليقلّها مع كوثر خارج القابون.

***

بعد أيّام التقيتا في مهرجان شهداء برزة، الذي كان حاشدًا لدرجة عظيمة، ارتقت فدوى سليمان المنصّة، وهي فنانة معروفة، وألهبت عواطف الحضور شوقًا للحرية، وهيّجت حمياتهم للأخذ بثار الكرامة المهدورة على أيدي قتلة مجرمين، ثمّ هتفت:

"سوريا لنا، ما هي لبيت الأسد" فردّ جمهور الحاضرين بصوت واحد على هتافها، ثمّ اعتلت منتهى الأطرش المنصة، وألقت خطبتها المفعمة بالأسى على شهداء يمثّلون مستقبل سوريا، وطالبت المجتمع الإنسانيّ الوقوف إلى جانب حقّ السوريين بانتزاع حريتهم، التي سلبتها عنهم عصابة موت طائفيّ فاسدة، وعندما صرخ أحد السلفيين بصوت عالٍ؛ طالبًا من منتهى السكوت احترامًا لأذان العشاء، صمتت بالفعل.. ولكن.. في الوقت الذي التفتت رؤوس الشباب صوب الصوت لإسكاته؛ تقدّم منه بضعة شباب، وقادوه خارج ميدان المهرجان، وطلبوا منه المغادرة.

غادرت كوثر وسارة ميدان برزة مع أخواتهن من ريف دمشق، وكانت تتقدّمهن منتهى الأطرش، وارتعبن؛ حينما ارتمى الشيخ السلفيّ أمام منتهى، وخفن عليها، على الرغم من انقضاض شباب عليه ومحاصرته، إلى أن سُمع صوت منتهى:

-     اتركوه.. اتركوه، لا أحد يؤذيه، تفضّل يا شيخنا! فردّ الشيخ معتذرًا عن موقفه؛ مسوّغًا أنّه أراد تنبيهها فقط، فمدّت له يدها، قائلة:

-     اهلًا بك يا أخي، أنت تستحق الشكر والاحترام، إلّا أنّه انكفأ خلفًا، واعتذر عن مصافحتها بصفتها امرأة، فدفعه أحد الشباب خلفًا، تلقّفه آخرون، وغاب بين الجموع، وصعدت منتهى إلى سيارة أحمد.

وقبل أن يفترقن، استقبلت إحداهنّ هاتفًا، وبعد برهة أسقطت سماعة الموبايل من يدها، وارتمت على كتف رفيقتها باكيّة بحرقة، وعرفن زميلاتها أنّ زوجها بدر الدين الحموي اغتيل أمام بناء ورشته في القابون، بعدما اقتحم مجهولون بابها، وأطلقوا عليه الرصاص، بكت سارة وكوثر مع بقية النساء، واتفقن على أن يحضرن موكب جنازته في اليوم التالي، وافترقن.

التقت ســارة ومعها كوثر بعمر، وحكت له وقائع يومها، وعرفت منه أنّ شــبيحة أمّ الإبر هم من يقومون باغتيال شباب الثورة في البلدات والأحياء المجاورة.

- وكيف عرفت حضرتك؟! سألته كوثر:

- حمود أخبرني بعد أن تنازع معهم، وغادر اجتماعهم محذّرًا من عواقب معاداتهم جيرانهم، إلّا أنّ المخابرات أعارت الشــبيحة ســيارة مفوّمة، وهم يذهبون برفقة أدلّاء، وغالبًا ما يكونون من الجهاديين؛ الذين أخرجهم النظام من السجون، ويقومون باغتيال الناشطين، فسألته سارة:

- وهل عرفت من اغتال بدر الدين الحلّاق؟

- أليس الذي أخبرتني عنه أمس، صاحب ورشة الأحذية؟

- بلى، هو!

- لا أعرف بالضبط، لكن من الممكن أنّ يكون شخص اسمه عماد اشترى منه أحذية وبعض أجهزة ورشــته قبل فترة؛ وكان يعمل معه منذ ســنوات في ورشـــة الصـــواف للأحذيّة بالقابون، أظنّ أنّه هو من دلّ الشبيحة على ورشته، ونفّذوا جريمة قتله.

وأخبرها أنّه سمع من شخص أنّهم اعتقلوا ابنه وهو في الثالثة عشر من عمره، وطالب عماد بقتله؛ بعدما تعرّف إليه الفتى، وبصق عليه في أثناء تحقيق شبيحة أم الإبر معه قبل تسليمه لفرع المخابرات.

***

في تلك الأثناء حضرت سارة مع كوثر مؤتمرًا في البهو الداخليّ لمسبح في أطراف بساتين أمّ الإبر، وقد فاق عدد الحضــور العشــرين، وكان معظمهم منتميًّا لأحزاب ناصــرية أو شــيوعية، ثمّ شــرعوا في التخطيط لمســتقبل الثورة من دون دراية معظمهم لمتطلبات الثوار ومعاني الثورة، فوزّعوا أنفســهم على لجان، منها ما اختصّ بالاقتصــاد وأخرى بالثقافة والتموين والصــحة والتثقيف والعلاقات الخارجية، وكان نصــيب ســارة مع كوثر في اللجنة الخارجية؛ وحينما أخبرتهم كوثر أنّها حضرت مؤتمرًا سابقًا مشابهًا ووزّعوا نفس المهام، وكان نصــيبها كتابة دســتور الدولة الجديد، كان ردّ رئيســه ذي اللون الأحمر، والمحنّي شــاربه بالأصــفر، والحامل سيجارًا كوبيًّا، نافثًا دخانه في الصالة المغلقة:

- هذا المؤتمر هو من يمثّل إرادة الثورة، وليس غيره! فضحكتا سرًّا على مؤتمر المهزلة، ثمّ أعلن رئيس المؤتمر وصــول شــخصــيّة مهمّة، وفاعلة في مســار المعارضــة، التي بدأت تنحاز إلى صــفوف ثورة الشــعب، وبعد قليل، دخل الأســتاذ حمود الذي تعرفه ســارة وكوثر جيّدًا، ثمّ طلبت كوثر من ســارة الانســحاب، ولكنها تذكّرت كلام عمر بأنّ حمود انسحب من اجتماع شبيحة السلطة، فسوّغت حضوره، أمّا كوثر فلم تطمئن له

ولاجتماعه، فانســـحبت من الاجتماع، وتبعتها ســـارة؛ بعدما قدّمتا عذرًا مقبولًا، ثمّ تبعهما أكثر من نصـــف الحضور.

***

أُعتقلت كوثر في المرة الأولى على الطريق المؤديّة من أم الإبر إلى ســقبا؛ إذ اعترض دربهم مســلّحون ملثمون شاهرين بنادقهم، وأوقفوا السيّارة التي تقودها صبيّة اسمها عبير، ومعها ثلاثة شباب وكوثر، ساقوهم إلى فرع الأمن العسـكريّ بقوة السـلاح، ومن ثَمَّ اعْتقِل الجميع، ومُنِحَت السـيارة ومحتوياتها المكوّنة من أدوية وأكياس دم وألبسة متنوعة غنيمة لشبيحة أم الإبر.

لم تكنْ عبير سـوى صـديقة كوثر؛ التي اسـتأجرت سـيّارة، وحمّلتها معونات طبيّة، وتوجّهت بها نحو بلدة سـقبا، بعد أن وقع شـبابها ضـحية تضـليل ضـباط باعوهم أسـلحة تنفجر في وجه مسـتخدميها، فسـهُل على ميليشيات السلطة وجيشها دخولها مستبيحين أهلها، ثمّ انسحبوا منها؛ نتيجة المقاومة الأسطوريّة لشباب سقبا، ولكنّ بيوت سـقبا امتلأت بجثامين الشـهداء والجرحى؛ الذين كانوا يئنون ويتوجّعون؛ مما حدا بشـباب تنسـيقيّة سقبا إلى الاستغاثة بتنسيقيات البلدات المجاورة، وحين وصل أبو جاسم اجتمع مع عبير، وأخبرها عن أوضاع سقبا المأساويّة:

- نحتاج إلى أكياس دم وأدوية وأدوات جراحية يا أختي.
- إن شاء ستصلكم سيّارة مجهزة بم طلبته.
- بارك الله بهمتكم، والتفق معها على طريق وصـــول المســـاعدات، ثم لبّت تنســـيقية أمّ الإبر نداء الاسـتغاثة، وهيئوا حمولة سـيارة عبير المسـتأجرة، وتحرّكت في اليوم التالي، ولكنّ خائنًا من أقرباء عبير أبلغ المخابرات، فأرسلوا الشبيحة، وكمنوا لهم.

***

في نفس الفترة شعر عمر أنّ الدائرة تضـيق على شباب الثورة في أمّ الإبر، فسارع وتمكّن من تثبيت عقد زواجه من سارة، وقرّر إعلان زواجهما في مظاهرة يدعوان إليها سرًّا في أمّ الإبر، مانعت سارة بداية؛ لغياب كوثر في السجن، ولكنّ إلحاح عمر نتيجة ازدياد الضغوط على شباب الثورة وملاحقتهم، التي جعلت بعضـهم يفضّـــل الهرب والخروج من ســـوريا؛ ألزمها بالإذعان لطلب عمر.. ثمّ بدأا بالتخطيط، وأعلنا هاشـــتاجًا عن مظاهرة، ونشراه على مواقع التواصـل الاجتماعيّ، وحدّدا مكانها قرب مقام الشـيخ عربي، ولم يذكرا – بطبيعة الحال – مناسبة الهاشـتاج، ومن ثمّ وصـل عدد من تفاعل مع هاشـتاج المظاهرة إلى أكثر من ثلاثين ألفًا، ثمّ أعلنت تنسيقية أمّ الإبر تأجيلًا لموعد المظاهرة بعد ملاحظة تحصينات المخابرات حول مقام الشيخ.

أمّا عمر وسارة، فقد ذهبا في التاريخ المعلن نفسه إلى مقام الشيخ، وقاما بزيارة ضريحه، ثمّ قرأ عمر الفاتحة، وزوّج نفسه من سارة بنت عبد الحليم على سنّة الله ورسوله، فضحكت سارة من قلبها على ما فعله، وبعد جلوسهما ساعة من الوقت، خرجا من دون أن يتعرّضا لسوء، أكثر ما كانت سارة تحدّث عمر عنه هو اعتقال صديقتيها كوثر وعبير، كانت شديدة الهلع على مصيرهما، وطلبت من عمر تأجيل حفل الزفاف إلى حين خروجهما، أما عمر فكان يهدّئها ويهوّن الأمر عليها، مبديًا رغبته في الزواج منها سريعًا، قبل أن يحصل مكروهًا يمنع زواجهما.

ثم قررت تنسيقية أمّ الإبر مظاهرة زفاف سارة إلى عمر فجأة ومن دون إعلان على الملأ، وجاء من أخبرهما بالموعد الوشيك، فذهب عمر وسارة إلى المكان المخصّص، ولاحظ حضور شباب يعرف وجوههم، ثمّ تمركزوا في زاوية، وقبل أن تتشكّل المظاهرة قرب مقام الشيخ عربي، وصل الشبيحة، وأطلقوا نيران أسلحتهم في السماء؛ فانسحب الحاضرون جميعهم إلى جهات عديدة، وأمّا عمر وسارة، فذهبا إلى الدّار الكبيرة، وتبعهما قلة من أصدقائهما، وفي الدّار الكبيرة قضى بضعة شباب سهرة راقصة احتفالًا بزفاف سارة إلى عمر، ولم يقدروا أن يغنّوا للثورة، خوفًا من مداهمة الشبيحة أو المخابرات للدّار.

وصل د. سلمان إلى الدّار الكبيرة، واتصل بصاحب مطعم لإعداد عشاء ملائم، وقبل وصول العشاء فاجأهم الأستاذ منذر بالحضور بعد غيابه بسبب اعتكافه في البيت؛ لإكمال مشروع كتابه عن أسباب الثورات ومسوّغاتها، وعرف منهم أنّ أحمد لا يظهر سوى في بعض مهرجانات الشهداء مع منتهى الأطرش، ويختفي بشكل سريّ عن الجميع، ثمّ أخبرهم أنّ سالم أبو فرج الله يلتقي أحمد، وينسّق معه، وأنّ منذر مطمئن على سريّة عمله ونجاعته، طالما يعمل إلى جانب ابن العم، خبير السياسة والتنظيم المخضرم، وبعد أن انتهى العشاء، غادر من يقطن قريبًا من الدّار الكبيرة، وانتظر من يقطن بعيدًا عنها حتّى الصباح؛ خوفًا من المرور ليلًا على حواجز المخابرات والشبيحة المتزايدة أعدادها.

في صباح ليلتهما الأولى، قضيا نهارهما كاملًا في الدّار، مع أمّ سليمان التي بدأت عيناها تفقدان القدرة على الرؤيّة، مع ضعف شديد في حاسّة السمع، وكانت عمة عمر أم حمود تجلس معهما، وتدعو لهما بالبركة، وتبكي على ابنتها صفاء؛ التي لا تعرف عن مصيرها شيئًا.

في تلك الآونة، كانت إحدى الخادمات تقوم على خدمة العمة ام حمود وأم سليمان غير القادرة على الحركة بمفردها، وممرضة تشرف على علاجهما، وبعد زواج سارة فرحت الأم كثيرًا، وتحسّنت صحتها، وكثر اهتمام سارة بها، وقلّ ظهورها في المظاهرات كثيرًا، وغالبًا ما كانت تتواجد بجانب زوجها وأمّه وعمّته في غضون أشهرها الأولى من الزواج؛ إذ جميع من في الدار الكبيرة بحاجة إليها، ثمّ ظهرت عليها علائم الحمل، فطلب منها عمر الاستقرار في البيت؛ من أجل أن تحافظ على صحة جنينها.

***

تراجعت صحّة أم حمود، وطلبت من عمر أن يحضر ابنها حمود، وفي مساء ذاك اليوم جاءها ابنها، جالبًا معه طعامًا وهدايا لأمّه، جالسها، وتحادثا، ثمّ استحلفته أن يسعى إلى معرفة مصير أخته صفاء؛ التي كاد ينساها، وأوصته بأن يقف إلى جانبها، ثمّ ودّعها، وغادر على أن يعودها بالزيارة، وفي اليوم التالي، افتقدها عمر على مائدة الإفطار، فقالت له أمّه:

- قد تكون نائمة، فلا ضرورة لإزعاجها.

حلّت صلاة الظهر، ولم تخرج من غرفتها، فطرق بابها من دون أن يجيبه أحدٌ، ثمّ حاول مرارًا؛ إلى أن جاءته سارة، وأشارت إليه باستدعاء نجّار لفتح الباب، لعدم وجود مفتاح آخر، حضر نجّار، وخلع قفل الباب، فوجدوها نائمة، وهي تفتح فمها، اقترب منها عمر، وناداها:

- عمتي، عمتي، استيقظي.. اقترب موعد صلاة الظهر.
- .... ثمّ اقتربت سارة، ونادت:
- عمتي أم حمود.. عمتي...
- .... لم يسمعا منها سوى الصمت..

رفعت سارة يدها وتركتها؛ فسقطت حرّة، عرفت حينها أنها متوفاة، بكت وبكى عمر معها، فاستدعى عمر طبيبًا؛ للكشف عن سبب موتها، وبدأا بتجهيزها للدفن، فأرسل بطلب من يقوم بغسلها وتكفينها، ثمّ جاء ابنها، بكاها مفجوعًا.. أخرجه عمر إلى أرض الدّار، ولكنّه خرج بحجّة تغيير ملابسه لاستقبال التعازي، وسرعان ما اتصل بالمخابرات، وأخبرهم عن موت أمّه، فأرسلوا الذيب إلى مكتبه العقاريّ، وأمره بتشييد مدفن الدّار ودفنها فيه، وما هي إلّا ساعة، وكانت الآليات وورشة بناء من بلدية أم الإبر تتهيّأ لتعمير المدفن، وذلك بعد توافق الذيب مع شيخ أمّ الإبر على إعادة المدفن إلى الدّار الكبيرة.

رجع حمود، وأبلغ عمر نيّته بتشييد مدفن الدّار؛ لإيداع جثمان أمّه فيه، بدلًا من دفنها في المقبرة العموميّة، رفض عمر الفكرة من أساسها، وانقسم أهل الدار الكبيرة بين مؤيد تشييد المدفن ومعارض، وحينما صعب الموقف، استدعى عمر الشيخ، وفوجئ بانتصاره لبناء مدفن الدّار من جديد، أصرّ عمر على موقفه، وقال صارخًا وسط أرض الدّار:

- والله لن يُبنى مدفن الدّار إلّا على جثّتي، أمواتنا تدفن في مدفن المقبرة العمومية، مثلما دفن أخي سليمان، وكما يدفن أهل أمّ الإبر أمواتهم،... قاطعه حمود قائلًا:
- وأين ستذهب بأرواح أهلنا الطاهرة يا عمر، هل تريد أن نبدّدها هباء...
- اخرس يا حمود، قبل أن أبتلي بك، اترك الدّار حالًا، أنت سبب المشكلة، ولكنّ الشيخ أجابه:

- اهدأ يا عمر.. فمهما يكن من أمر فحمود ابن عمتك، والدم لا يصير ماءً، والمرحومة أمّه، لا تنسى ذلك.

- والله العظيم، لن أسمح ببناء مدفن الدار إلّا على جثّتي، ثمّ تدخّل شبابٌ عديدون وساندوا عمر في موقفه، وازدادت أعدادهم، ورفعوا أصواتهم بشجاعة؛ لم تعهدها أمّ الإبر بأهلها من قبلُ، وخفُت صوت الكبار من الشيوخ والشبيحة؛ إلى أن اقترب عمر، وطردهم من أرض الدّار، وهو يصرخ أمام الشباب بصوت جهوريّ:

- اخرجوا من بيتنا، اخرجوا من دمنا، اخرجوا من ذاكرتنا، كفانا جهلًا.. كفانا قوادة يا قوداين...

وحينما واجهه الشيخ، قائلًا له:

- أنت من المغضوبين يا عمر! يجب أن تذعن لأوامر أكابر أم الإبر وشيوخها...

- اسكت أيّها الساقط، اسكت يا شيخ النجاسة، وطرده دافعًا به إلى خارج الدّار، فلعنه واستدار مع جوقته خارجًا من الدّار، وقبل أن يغادر ارتقى حجرًا وقال بصوت عالٍ:

- كفوا حالكم يا أهل فخري، طوال أيامكم منبوذين منّا، والآن اكتفوا بأنفسكم بدفن أمواتكم.

التفت حمود، ولم يجد أحدًا من جماعة السلطة أو الشيخ بجانبه، وقبل وصول الشباب نحوه انتهز الفرصة، وارتقى كرسيًّا قرب جمهرة الشباب، وقال لهم:

- أنا معكم، طالما أنتم مع دفن جثمان أمّي في المقبرة العمومية، فأنا معكم، وأنا أعتذر عمّا صدر منّي من ابن خالي عمر والآخرين، ثمّ التفت فوقع نظره على بضعة من الشبيحة، فخاطبهم بصوت عالٍ:

- تسلموا لنا يا رجال، أنا وأقاربي اتفقنا على أن ندفن جثمان المرحومة أمي في المقبرة العموميّة، اخرجوا من الدار والتحقوا بشيخكم.

فاجأ موقف حمود الجميع، وحسم الأمر، بحيث أجري الدفن بعد الصلاة على جثمانها داخل مدفن المقبرة العموميّة، ولكنّ حمود اكتسب إعجاب الكثيرين، إذ عدّوه مناصرًا الشباب والثورة؛ وبالفعل بدأ يشاركهم في نشاطاتهم ويوزّع عليهم مبالغ مالية لصرفها على احتجاجاتهم، التي شرع في التنظيم لها.

***

دفن جثمان أم حمود، واستقبل أهلها التعازي ثلاثة أيام متتالية في الدّار الكبيرة، ثمّ اعتصم عمر داخل الدّار مع زوجته سارة قرب أمّه بانتظار مولودهما، كانا يتابعان أخبار الثورة عن طريق وسائل التواصل الاجتماعيّ والفضائيّات، وكان لا يمضي أسبوعًا إلّا ويتحادثان مع مروان وهيام والغياب، وكان الجميع قلقين بشأن يحيى المعتقل؛ الذي مضى على وجوده بضعة أشهر، ولا أحد يعرف عنه شيئًا، أمّا أحمد فكان قليلًا ما يظهر – في تلك المرحلة – سوى بشكل سريّ، في مهرجانات شهداء الثورة في أطراف دمشق وريفها؛ التي

ضـعفت سـيطرة السـلطة عليها لمصـلحة شـبابها المسـلّحين، كما ظلّت سـارة قلقة على أبيها وأخيها محمد، تبكيهما قائلة:

- نحن نعرف أنّ يحيى معتقل، لكنّ أخي محمد – يا عمر – لا أعرف عنه أيَّ شـــيء، لا أعرف أنّه معتقل أو ميت أو مهجّر، أخي محمد مغيّب، لا أعرف أين هو؟ أبين المعتقلين؟ أم بين الأموات؟ أم صـــار يقاتل إلى جانب التنظيمات التكفيريّة؟ أم بمواجهتهم مع شـــباب الثورة؟ لا أعرف يا عمر! وأبي لا أعرف مصيره بعدما دمروا بيتنا!

في تلك الأثناء، كان كثير من شـباب الثورة معتقليْن في سـجون السـلطة، وآخرون هجّروا خارج بيوتهم وقراهم وأحيائهم، أو غيّبوا أو هربوا من أتون حرب ميليشيات سلطة نظام الحكم وجيشها على الشعب السوريّ، أو استشهدوا أو أعيقت حركاتهم؛ نتيجة إصاباتهم، أو التحقوا في صفوف الميليشيات المتقاتلة.

76

اعتذر أحمد إلى جيرانه عن تناول طعام العشـاء، فقد كان قلقًا جدًّا على كوثر، لأنّه لا يعرف سـبب تأخّرها عن موعدها؛ الذي توقّع وصـــولها فيه، وأول ما كان يفكّر فيه هو اعتقالها على الحدود، ثمّ قالت له خديجة:

- والله يا أستاذ تعتذر، وكأنك واثق من وجود مكان لك على الصفرة، أو أنّه سيزيد لك شيئًا من طعامنا الشهيّ.

- يا ديجة، والله ليس هذا الوقت وقت مُزاح، ألا تقدرين حالة القلق التي أعيشها!

- طبعًا أقدرها، كيف لا أقدّر موقفك الصعب، وأنت تنتظر حبيبة القلب، كم أنا متشوّقة لأراها يا أستاذ!

ابتسـم أحمد، وأخفى في داخله غيظًا منها، ثمّ دخل إلى غرفته، واتصـل بعمر، على الرغم من حرصـه على عدم الاتصال به؛ لتأكّده من مراقبة خط موبايله، فأكّد له عمر:

- بحسب معلوماتي البسيطة أنّها غادرت إلى لبنان، ولكن لا أعرف متى؟

- وهل قابلتها قبل مجيئها يا عمر؟

- طبعًا لا، أنا قابع في بيتي، لا أتدخّل بشؤون أحد، على كلّ أدعو لك أن ترجع لنا بخير وسلامة إلى بيتك.

- كيف صحة أمك وسارة؟

- الكل بخير، ويسلمون عليك، ومع السلامة يا أستاذ أحمد...

حاول أحمد أن يحكي مجدّدًا، ولكنّ عمر أقفل الموبايل.

فتح خطّ السكايب، وطلب روز، وقبل السلام قال لها:

- يا روز، لم تصل كوثر إلى الآن، تأخّرت كثيرًا، أنا قلق عليها، ربما اعتقلوها على الحدود.

- منذ متى كان من المتوقّع أن تصل؟

- منذ أربع ساعات.

- أأربع ساعات أم أربعة أيام؟!

- أربع ساعات.

- والله أنت هيمان يا مسكين، كبّر عقلك يا أستاذ أحمد.. قد ينتظر المسافر في الحدود أيّامًا كاملة وأكثر، لا تقلق.. ستصل، لا تخف على كوثر، واسمع ما قرأت عن الخليفة العادل، الذي تعدّه مثلك الأعلى مع الإسكندر المقدونيّ.
- أهذا وقت مزاح يا روز؟
- لا.. اسمع ريثما تصل كوثر...
- لا أريد أن أسمع يا روز، أنا خائف على كوثر كثيرًا...
- بل، اسمع وأريد أن تدحض ما قيل عن الخليفة عمر وباقي الخلفاء بشكل علميّ.
- أرسليها رسالة مكتوبة.
- بل اسمع أوّلًا يا فيلسوف عصرك: "صنّف الشيخ عبد علي الحويزي صاحب (تفسير نور الثقلين) كتابًا عن المثلية، وذكر فيه أن هذه الخصلة كانت في أكثر الخلفاء بأسًا، وعن الخليفة المؤسس عمر قال: (استمرأ عمر بن الخطاب فعل اللواط، وذكر كتاب (الأنوار النعمانية للمحدّث نعمة الله الجزائري ج1 ص63، كان في دبر عمر بن الخطاب داء لا يشفى منه إلا بماء الرجال" وذكر أنّ جلال الدين السيوطي كتب: "إن هذه الخصلة كانت في خمسة.. أحدهم سيدنا عمر بن الخطاب، وفي صحيح البخاري، الطبعة الهندية القديمة: كان سيدنا عمر مأبونًا، ويتداوى بماء الرجال، وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص289، قول عمر بن الخطاب: "ما بقي فيَّ شيء من أمر الجاهلية، إلّا أني لست أبالي أيّ الناس نَكَحْتُ، وأيّهم أُنْكِحْتُ. ومن المصادر التراثية الإسلاميّة التي تحدّثت عن هذا الموضوع: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال...
- لا تكملي يا روز، قرأت سابقًا عن هذه الترهات، التي يراد منها تشويه تاريخنا، هذه إسرائيليات، ومصادر شيعيّة.. وأرجوك أن تقدّري ظرفي الصعب مع كوثر، وما يجب عليّ فعله!
- ستصل كوثر قريبًا لا تخف عليها، ولكنّي سأجمع لك ما قيل عن موضوع المثليّة في التاريخ العربيّ الإسلاميّ، وأرجو أن تبدي رأيك العلميّ، لأن هذا الموضوع اشتغل عليه د. يحيى، وأولاه اهتمامًا خاصًّا، وأول من حلّل شخصيته المثليّة حبيب قلبك: الإسكندر المقدني...

وقبل أن يردّ عليها، رنّ جرس موبايله، وبلهفة ترك السكايب وفتح الخطّ، فسمع صوت كوثر:

- أينك يا غوطاني.. يا أبو فوز؟ أنا الآن في ساحة عرسال، أمام محلّ بقالة مهترئ مثل صاحبه، وسألته عنك، وقال إنّه يعرفك، ويبدو من هيئته أنّه من الحاقدين عليك.
- ابتعدي عن البقال أبي كرش، قد يؤذيك يا كوثر، دقائق وأكون بجنبك.

لم يسعه أن يردّ على روز، حينما قالت:

- أين ذهبت يا أحمد، مع من تتحدث؟

- روز، بخاطرك...

أسرع للقاء كوثر، حال وصوله عانقها، ووضع يده على كتفها وسار بها نحو الشقّة، وسألها عن تأخّرها، فأخبرته:

- الناس طوابير طوابير على الحدود، الناس تريد أن تخرج من سـوريا يا أحمد، لا أحد يريد البقاء غير القتلة والحرامية.

- وماذا عن الشرفاء الذين انحازوا للثورة، وكيف أحوال شباب الثورة؟

- من لم يهرب مثلك، اعتقلوا، أو التحقوا بالمناطق الحررة، أو انزووا في بيوتهم هربًا من الشبيحة الذين يجوبون أنحاء أمّ الإبر مسلحين على مدار الوقت.

- .... صمت أحمد، ولم يستطع على متابعة محاورة كوثر.

حمل معها أغراضها، ودخلا الشقّة، فصرخت قبل أن تلقي السلام:

- يا الله.. كيف ساكنين، والله السجن الذي كنت فيه أرحم من هذه العيشة...

- لا يا كوثر، هؤلاء ضيوف، واستأجروا مكانًا آخر، وهم يعدّونه لينتقلوا إليه.

عرّفهم على بعضـهم بعضًـا، وقبل أن يدخل إلى غرفته طلب من خديجة كأسـين من الشـاي، وحينما أحضرتهما، حاولت الجلوس، فأومأ لها بالخروج، ثمّ تنبّه أنّه لا يستطيع إغلاق باب الغرفة من الداخل، فأسنده بكرسـيّ، ثمّ قبّلا بعضـهما بنهم شـبقيّ، وبعد أن هدئا خرجا، وجلسـا مع الأسـرتين في الغرفة الكبيرة وسـط الازدحام، إلى أن خرج أحمد، واشـترى قفلًا داخليًّا لغرفته، ولكنّه لم تغب عنه أسـئلته الملحّة عن أهل الدّار الكبيرة وأم الإبر وروز، ثمّ ألحّ عليه سؤالها عن منتهى الأطرش، فأجابته:

- هي لا تتحدث مع أحد، مرضـت، ونامت في فراشـها، ثمّ تحسـنت أحوالها، ولكنّ أهلها منعوها من التحرك مع الثوار أو التصريح لأي جهة إعلامية.

- وهل ذكرت لها مؤتمر القاهرة؟

- ذكرته لها، واختصرت إجابتها بحرفين، أوصتني كثيرًا أن أنقلهما لك حرفيًّا.

- ماذا قالت، هل ستحضر؟

- لا لن تحضر، ورسالتها أن تقول للجميع: (طز).

- وكيف أحوال أهلك وأهلي؟

- كلهم بخير.

- وأمي كيف أحوالها؟ منذ متى زرت الدّار؟

- صحتها أفضل، وهي تسمع ما يروق لها سماعه، وتهمل ما يزعجها.

في غرفته الداخليّة تحدّث أحمد مع كوثر عن الثورة، وعن السجن، وسألته عن اختفائه عنها في حراك الثورة، حين كان يرافق منتهى فقط، فحكى لها عن روز الدمشقيّة، سألته:

- أهي جميلة مثلي؟
- ما همّني منها جمال روحها وقوة إرادتها وطاقتها الإداريّة العظيمة فقط.
- أمّا أنا يا غوطاني أبو فوز، فلا أصلح للروح والإرادة والإدارة؟
- أنت يا كوثر تصلحين لبثّ الروح والإرادة في نفسي المتماوتة. فقالت له:
- أنا كما هي ولّادة بنت المستكفي يا بن زيدون؛ أردّد معها على الدوام:

"أنا والله أصلح للمعالي .... وأمشي مِشيتي، وأتيه تيهًا"

- أعانني الله على امتطاء صهيل روحك؛ حتّى تجمعي نثار حطامي يا عيوني.

وعن لحظات وداعه لمنتهى الأطرش في نهاية يوم حافل بالنشاطات في ميادين الحراك الثوريّ، قال لها:

- كنت أقبع في زاوية مظلمة، وأراقب منتهى الأطرش، وهي تستقلّ سيارة تخصّها، إلى أن تغيب عن ناظري، وكنت أرجع لاستئناف العمل مع روز على مشروع يحيى في حي قنوات الدمشقيّ.

على روما أنْ تميّز بينَ قوّةِ الحضارة وحضارةِ القوّة

(الملكة زنوبيا)

أطلّت روز بقامتها الجميلة، تمام الساعة السابعة مساء، أومأت لأحمد للحاق بها؛ حتى دخلت مقهى شعبيًّا صغيرًا في زاوية مهملة من زوايا الحيّ.. توجّهت نحو صاحب المقهى (أبو رياح)، الذي رافقها إلى طاولة جانبيّة، وصل أحمد، وجلس مواجهًا لها، ثمّ عرّفته بصاحب المقهى، وأوصت الأخير به، بصفته أحد رجال الثورة، الذين يحمون الملاحقين من المخابرات، غادرهما أبو رياح، فبادرته روز بتساؤلها:

- طمّني عن يحيى، الله يجبر خاطرك.. خبّرني أيحيى بخير؟ والله.. قلبي يخبرني أنّهم لن يطلقوا سراحه؛ لأنهم يخافون من علمه واطّلاعه ومن شخصيته المميّزة.
- لا أعرف شيئًا يا أستاذة روز! ولكنّ سلطة البطش والتغوّل لا تميّز بين قوّة حضارة شباب الثورة، وهمجيّة حضارة القوة الأمريكية التي تساند الفساد والاستبداد والفوضى.
- كيف أدخلوه السجن؟
- اعتراف صديق معتقل عن نشاطاته تحت التعذيب، وسلّمه قوّاد صاحب كافتيريا، يعمل مخبرًا؟

أبدت روز مزيدًا من القلق على مصير يحيى، لاسيّما فيما لو كانوا يعرفون نشاطاته، ودورات التنسيقيات التدريبيّة التي أشرف عليها بنفسه، في الإنترنت والصحافة وإعداد التقارير والتصوير وغير ذلك، ثمّ تخوّف أحمد، ونقل لها مشاهداته في مهجع اعتقاله مع ابنه:

- المشكلة أنّهم يركّزون في ملاحقاتهم على الشباب الصغار، الذين لا علاقة لهم بالأحزاب، والذين أبدوا معرفة بالتقنيات الرقميّة والتواصليّة، ويعملون في الحراك السلميّ عن طريق الجوامع؛ التي أضحت منابر للحرية والكرامة، بعدما طردوا الشيوخ الإمعات منها، وكأنّ ضباط المخابرات يغضّون النظر عن أنشطة الأحزاب وقادتها، تصوّري يا روز أنّهم وجدوا سالم أبو فرج الله في اجتماع موسّع، وصادروا من مكان الاجتماع مواد أوليّة لتصنيع أدوات لاستخدامها بالمظاهرات؛ فهرب من هرب، وبقي أبو فرج الله مع بضعة كهول، فأطلقوا سبيلهم، وطاردوا الشباب، اعتقلوا من أمسكوا بهم، واختفى من اختفى.. والله أنا خائف على يحيى يا روز، أنت لا تستطيعين تقدير مصائب شباب سوريا مثل من عاش التجربة في سجونهم الرهيبة.. شباب الجامعات والمدارس الثانويّة في السجون، منهم من قابلتهم في الأمن السياسي وآخرون في المخابرات العسكرية.. والله أكثر من 95% من المعتقلين الذين التقيتهم مع يحيى هم من جيل الألفية، لا سيما الذين ولدوا في ثمانينيات القرن الماضي وما بعده.

وأخبرها أنّه ترك مئات الشباب في ذاك المهجع المميت، وعرف عن عشرات الشباب الصغار، الذين أصيبوا بالجنون، أو ماتوا تعذيبًا في أقبية المخابرات، وكانت روز تنتحب حين سماعها تلك الأخبار، ولم تستطع أن تستمرّ.. قاطعته قائلة:

- هل تعرف لماذا أرسلك د. يحيى إليّ؟

- لا أعرف كلّ شيء،... ثم أردف متحدّثًا عن مخطوطات وحياة سابقة ليحيى عاشها قبل قرن مضى باسم الشيخ عربي، الذي له مقام في حيّ أم الإبر.

قادته روز إلى بيتها مواربةً، تحت جناح عتمة حارات دمشق العتيقة، أشعلت الإنارة لحظة دلفت معه إلى دهليز الدار، وأغلقت الباب من الداخل، وانسلّت إلى أرض الدار، فوجد أحمد نفسه في بيت عربيّ فسيح متضاد بفضائه الرحب مع ضيق الحارة خارجه؛ تتوسطه بحرة، أو فسقية، فيها نافورة ماء ومسوّرة بالياسمين، وعلى أطراف أرض الدّار جملة من أصائص الورد، معظمه فلّ بلدي وريحان، وفي أركان عدة من أرض الدّار ورود جوريّة، إضافة إلى أربع شجرات، نارنج وسفرجل ومشمش هندي وليمون حامض، وحينما وقع نظره على الفلّة البلديّة تذكّر ماري سمعان حبيبته التي ماتت، اقترب من الفلّة، احتضنها، وبدأ يستنشق عبير حبّه من عبق أزهارها، غاب وعيّه معها، فجلس على حافة الحوض، وحلّق في سماء أخرى، ثمّ صحى بعد أن ناولته روز كأسًا من الماء البارد، ولكنّه لم يستطع أن يخفي أهوال الموت في عينيه.. ساعدته روز على

السير نحو الحمّام، اغتسل، وأخبرها عن محبوبته ماري سمعان، التي امتصّت الموت من داخله، فتمكّن من حياتها السرطان، وأبقاه حيًّا.

أدخلته إلى قاعة دمشقية كبيرة، حيطانها موزاييك، وسقفها متخم بالثريات المدلاة، وفوق حيطانها لوحات فنيّة عن مدينة دمشق، دعته للجلوس على كنبة فاخرة، وخرجت، وعادت برفقة سيدة دمشقية معمّرة، وعرّفته عليها قائلةً:

- جدّة أمي، ابنة أخت الشيخ أبي إبراهيم البكري الصغرى، والد الشيخ عربي بالتبنّي.

- تشرفنا يا خالة، واقترب منها وقبّل رأسها.

- جدّتي ثلجة، سموها على اسم زوجة الشيخ عربي، تزوجت، وأنجبت سبع بنات؛ أصغرهن أمّي التي استشهد زوجها في حرب أكتوبر/ تشرين، من دون أن يعرف أنّها حامل بي، ثمّ توفيت في أثناء ولادتي؛ فرعتني جدّتي ثلجة، وأنا أعيش معها منذ ولادتي في هذا البيت.

صمت أحمد متسائلًا عن السرّ الذي جعل ابنه يحيى يعود من الولايات المتحدة، لينقطع اهتمامه على هذا البيت، على الرغم من اختصاصه ومعرفته بعلوم العصر وفنونها، ثمّ انتبه لصوت الجدّة ثلجة المضّطرب:

- رحم الله الشيخ عربي، كانت روحه طّاهرة، ويحيى عطية الخالق، أودع الله روحه في جسده!

- ولكن أين هو الآن يا خالة؟ يحيى لا أحد يعرف إلى أين اتّجهوا به، ولم يصلني أي خبر عنه منذ لحظة افتراقنا، لم تسمعه الجدّة ثلجة، طلبت منه رفع صوته؛ فأعادت روز ما ذكره لها بصوت عالٍ، ردّت الجدّة، وهي ترتجف:

- الله يحميه يا رب، الله مُطّلع على كلّ شيء، مهما ازداد عدد أولاد الحرام، فالله يترك لعباده طاقة خير، {فإنّ مع العسر يسرًا، إنّ مع العسر يسرًا}وابنك طاقة الخير لأهلنا...

- الله يسمع منك يا خالة.

ثمّ تركت روز جدّتها تحادث أحمد، وتوجّهت إلى صندوق قديم مصدّف، فتحته، وأحضرت منه مجموعة من المخطوطات، وضعتها أمام أحمد، وقالت له:

- جاءنا يحيى بعد عودته من الولايات المتحدة، سأل عن بيتنا، وزارنا من دون سابق معرفة، وأشار إلى هذا الصندوق، وقال: "فيه أشياء تهمّني"، وذكر حقائق عن المخطوطات؛ التي في داخل الصندوق، وقالت لي جدّتي: "الله قادر على كلّ شيء يا روز، جائز أنه يتحدث صادقًا، تأكّدي بداية من صحة كلامه"، وبالفعل التقيته في متحف دمشق التاريخيّ، ثمّ شرعت في الاطّلاع على محتويات الصندوق؛ فتقاربت معلوماته مع ما وجدت، ثمّ أبلغت جدّتي، التي شجعتني للاهتمام به، إلى أن تحقّقت هي؛ بما ذكره عن طريق محفوظاتها الكثيرة في ذاكرتها، وسرّ د. يحيى بمتحف دمشق، الذي أعمل فيه، وقال لي: "يفيدنا في بحثنا

كثيرًا، فوثائقه تكشف عن كيفية وصول هذه البلاد إلى ما هي عليه، منذ تنامي جهود حركة الاستشراق في دراسة تراثنا وثقافتنا، لا سيما في القرن التاسع عشر والعشرين"

وأخبرت روز أحمد أنّها مع د. يحيى تعمل في إعداد بحث عن مخطوطات تراثيّة منسوبة للأسلاف القدماء، وما هي سوى نسخ قام بنبشها ونسخها المستشرقون، وربما قاموا بتحريفها، وفق منظومة فكرية تكّونت في ظل سياسة الاحتلال الأوروبيّ العدوانيّة، فرسموا تصورات عن الشرق والإسلام كما أرادت توجهات قادتهم السياسيين، ثمّ أكملت:

- لقد قطعت في هذا البحث أشواطًا مع يحيى، الذي لا يعرف الكلل أو الملل، الله يفك أسره.

وتذكّرت أنّه في آخر تواجد له معها قرر ربط نشاط مركز الدراسات الثقافيّة بمشروعه التوثيقيّ، ويبدو أنّه لم يتمكّن من إخبارك بمشروعه كاملًا، فأعطاك عنواني؛ لنكمل ما شرع فيه سوية، مع جدتي ثلجة التي تمتلك ذاكرة قوية، وأنا رهن إشارتك؛ لنعمل.

- يا روز أنا لا يعنيني هذا الأمر حاليًا، أنا لا أستطيع أن أترك شباب الثورة، هؤلاء الشباب أعادوا لي إنسانيتي.. قبل صلتي بهم كنت يا روز من عداد الأموات، كنت أعيش في قاع مدفن الدار الكبير إلى جانب ديدان الموت، وهم من أعادوني إلى الحياة، وكان أوّلهم يحيى.

- وأيضًا أنا لديّ مهام عديدة، جزى الله د. يحيى الخير، كان يدفعنا إلى التظاهر دفعًا عن طريق خبراته الكبيرة بوسائط الاتصال الحديثة، ولكنّه علّمني – أيضًا – ألّا أتوانى قيد أنملة عن استكمال مشروعي في العمل الفكريّ المؤسّس لمقاومة ثقافية حقيقيّة، كان يقول: "لابدّ من صياغة فكر عربي سياسي جديد تواءمًا مع ثورة الربيع العربي، يكون مغايرًا لما سبق..."

- على كلّ أنا جاهز لكلّ شيء تطلبينه منّي، طالما تعملين في صفوف شباب الثورة.

- وأنا – أيضًا – أستاذ أحمد، جاهزة لكلّ ما تطلبه منّي كرامة للدكتور يحيى ولك.

- غدًا جهّزي نفسك سنذهب برفقة منتهى الأطرش إلى دوما؛ للمشاركة بمهرجان شهدائها، فقد قتل النظام في الأسبوع الفائت أكثر من ثلاثين شهيدًا.

لم تمانع روز بالمشاركة، واستأذنته أن تبلغ رفاقها في حي العمارة وقنوات؛ الذين يشاركون في المظاهرات كلّ جمعة، رحّب بالفكرة، وحذّرها من المخبرين، الذين كانت أعدادهم تتزايد في تلك الأيام.

أطلعت روز أحمد على جملة من مخطوطات عديدة كانت بحوزة الشيخ أبي إبراهيم منها: نسخ من القرآن الكريم وتفسيره، والكتاب الكنسيّ المقدس الذي ترجمه أحمد فارس الشدياق، ونسخة أخرى لبطرس البستاني وفانديك، ومخطوطات تختصّ بالعصر الفاطميّ، وقالت: "أخبرني د. يحيى أن الشيخ عربي، ظلّ يقرأ ويدوّن ملاحظاته عليها طوال حياته، كان يصنّع السلال في أم الإبر، وينقلها إلى سوق مدحت باشا المتاخم لحيّ

القنوات، يسلّمها إلى تاجر؛ ليبيعها له، ويكمل يومه قراءة واطلاعًا وتدوينًا في بيت أبي إبراهيم في جادة الحمزاوي"، كما أطلعته على ملاحظاته المدوّنة على هوامش المخطوطات وحواشيها، بخطّ جميل ودقيق ومفهوم، وحدّدت عملهما بتفريغ الملاحظات المدوّنة في هوامش المخطوط، الذي قامت برقمنته على الملف، الذي اشتغل عليه يحيى، وشرحت له المنهجيّة المتّبعة، اتفاقًا مع يحيى، ودلّته على بعض نتائج شرع يحيى في تدوينها على اللاب توب، ومنها ما هو متداخل مع ما حكاه له في السجن عن الشيخ عربي؛ وحين سألها عن حقيقة التقمّص ومدى قناعتها به أجابته:

- لم أكن مقتنعة بهذا الكلام المنتشر لدى طوائف الشيعة، ولكنّ يحيى أطلعني على وجهة نظر نمّاها عن طريق أبحاثه العلميّة، حيث اقترب من الوصول إلى تفسير علميّ لحالة تقمّص الناس حيوات سابقة بصورة مغايرة للتفسيرات الغيبية، رابطًا بين التقمّص ونظرية الأوتار الفائقة وتجارب الرنين الكوانتي وفرضية الهولوغرام، قال أحمد:

- شرح لي يحيى وجهة نظره، وأعترفُ أنني لم أتمكّن من استيعاب أكثر من 15% منها، على كلّ لا مجال للاختلاف، فأنا غير مقتنع بهذا الكلام؛ حتى لو كنت أنا المتقمّص، فما وراء الطبيعة والغيبيات لا صلة لها بالعقل، الذي يتسيّد الكون هذه الأيام.

- ولكن د. يحيى يتحدث عما بعد العقل يا أستاذ أحمد، عن قضايا جديدة جدًا على تفكيرنا، يحيى ينعي العقل لمصلحة تضخم مجتمع المعرفة والمعلومات والاتصالات، وينعي الإرادة البشريّة التي ليس أمامها، إلّا القبول بنتائج الثورات العلميّة من دون أن يحدد موقفًا منها، فهي صحيحة على الدوام، حتّى لو تعارضت مع قيمنا الاجتماعية والدينية.

- أرجوك يا روز دعينا من هذا الحديث، واتركيني أشتغل على تحقيق حلم يحيى، من دون أن تدقّقي في قناعاتي، ثمّ يا روز لا أحب أن تناديني بـ: أستاذ، أنا أحمد وكفى.

شرع في قراءة ما دوّنه يحيى من نتائج في بحوثه وقراءاته؛ المصنّفة بملفات على جهاز اللاب توب والمنقولة عن هوامش وحواشي ووثائق إضافية لمخطوطات، كانت تصوّرها روز من المتحف، وأخرى مودعة في بيتها.

***

لفت انتباه أحمد استدلال يحيى بتدوينات الشيخ عربي، ذلك الشيخ أخرجه من عقله منذ كان فتيًّا حين امتطى ضريحه وتحدّاه أن يؤذيه؛ إذ كان الشيخ قد كتب على هوامش مخطوط شرح ميثاق ولي الزمان وحواشيه للأمير السيّد جمال الدين عبدالله التنوخي، تعليقات وأسئلة، وسأل أحمد روز عما تعرفه عن التنوخي فأحالته لكتب عالجت مشكلة الدروز، وأضافت:

- عبد الله التنوخي هو الأمير السيّد، كان مصلحًا لطائفة الدروز، توفي في عشرينيات القرن الخامس عشر ميلادي، أدخلهم في الإسلام على طريقة أهل السنّة، وتمكّن من أن يعمّر المساجد في جبل لبنان، بعد أن أخرجهم من أحوال الخوف والتستّر داخل فرق صوفيّة كمتسوّليْن على أبواب الجوامع، ومن سكنهم في مغاور الجبال العاليّة.

- أتعرفين إن كان مؤلّفًا لكتب؟

- هو مؤلّف لكتب مفقودة وقيل أنّ زعامة الدروز العشائرية تخفيها.

- وداعًا يا روز، لكن في هذه المخطوطات التي اشتغل على تحقيقها يحيى كنوز معرفية عن مرحلة مهمة من تاريخ المنطقة.

وفي أثناء مطالعته في ملفات يحيى، لاحظ أحمد أنّ الشيخ عربي أشار إلى معرفته ببلدة بيت قوفا، وأشار إلى ما جرى معه فيها، على ما سمعه من يحيى في السجن، وكان قد ثبّت الشيخ عربيّ في حاشيّة ما ورد في الإنجيل: "ففي الناس من ولدتهم أمهاتهم عاجزين عن الزواج، وفيهم من جعلهم الناس هكذا، وفيهم من لا يتزوجون من أجل ملكوت السماوات" متّى، 19: 12 ثمّ قارن أحمد بين حديث يحيى له عن فريد ابن عم الشيخ عربي، الذي اعتدى عليه جنسيًّا في طفولته، وما ورد من ملاحظاته، التي تؤكّد اهتمامه في مسألة المثلية الجنسية؛ حينما تساءل في إحدى ملاحظاته المدوّنة على هامش المخطوط عن الحكمة الإلهية، التي وردت في الإنجيل؛ المؤكّدة على خلق الله لأناسٍ عاجزين عن الزواج، ويأمر بمعاقبتهم على سلوك لم يحدث بإرادتهم، بل بإرادته، فكتب الشيخ عربي مهاجمًا المشرّعين، مستدلًّا من القرآن الكريم على فطرية السلوك الجنسي المثليّ ذاكرًا الآية الكريمة: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآلِ} وأكّد الشيخ عربي على أنّ كَلمة (النّاس) دّالة على عُمُوم البشر؛ سواء أكانوا ذكورًا، أم إناثًا، وأكمل أنّ حبّ الشهوات زينة للناس، والذُّكُور لهم شهوة للنّساء، والإناث لهنَّ شهوة للإناث، وكون كَلمة (النّاس) شاملة الذَّكَر والأُنثى، فالمرأة لها شهوة نحو جنسها أيضًا، وهذه العلاقة إذا كانت مقصودة في النَّصِّ، فيجب على المشرع أنْ يُقرَّها، ولا يُحرِّمها؛ لأنَّها شهوة موجودة فطريًا في الإنسان، بينما نجد المشرع قد وَصَفَ هذه العلاقة الأنثوية بالشذوذ الفاحش، وحرَّمها، وأضحى المُجتمع ينظر لهذه العلاقة (السحاق) كَمَرض نَفْسي، وذكر الشيخ عربيّ أنّ الرجل له شهوة نحو جنسه أيضًا، ووصفها المشرّع باللواط الشاذ المستحقّ لممارسيه عقوبات شديدة، وهذا مخالف للإرادة الإلهيّة، وتساءل أحمد عن سرّ الشيخ عربي الذي كتب منذ نحو قرن مضى أفكارًا متقدّمة عمّا نحن عليه: "تُرى كيف تخلّف الشرق إذا فيه شخصيات تحمل أفكارًا ما تزال معاصرة حتى يومنا الحالي؟!" واستمرّ أحمد في قراءة ذيول الشيخ عربي على حواشي شرح ميثاق ولي الزمان؛ إذ يسأل عن مولى العقل

حمزة بن علي، الذي نقل عنه: "ومن الدلائل الصادقة على شرف العفاف عن الشهوة قول أصدق القائلين وسيد الأولين والآخرين: إنّ الشهوة في جسد أشرف الخلق حمزة ليست كشهوة الرجال فقط، بل متواءمة مع شهوة الإناث أيضًا" وقال أحمد في نفسه: "هذا إقرار واضح بوجود بشر مثليين" ثمّ يكتب الشيخ عربي عن حمزة الذي ذكر معاونيه، الحدود الأربعة، كما ورد في المخطوط "بأنهم آلات العقل وحَرَمه يفعل بهم ما يشاء" وعدّها مغالاة في السيطرة على الآخر وإلغائه.

ثمّ لاحظ أحمد اعتراض الشيخ عربي على سياسة الدول الأوروبيّة الاستعماريّة؛ التي فرضت عقوبات تصل إلى درجة الإعدام، لمن يمارس الجنس مع مثيله، إن كان ذكرًا وأنثى، وقال في نفسه: "كان الشيخ عربي متقدّمًا حتى على الأوروبيين بآرائه الجريئة، التي استمدّها من تجربته الشخصيّة واطّلاعه على تاريخ العرب المسلمين، وها هم يدعون في العالم المتحضر لعدم تجريم المثليين، تمامًا كما طرحه الشيخ عربي مدوّنًا وواضحًا منذ قرن مضى"

لاحظ أحمد أن الشيخ عربي لم يترك مكانًا فارغًا في حواشي كتب الحكمة وشرح الأمير السيد وهوامشها، إلا وكتب تساؤلات أو ملاحظات على شكل ذيول، ومنها ذهوله من فكرة ألوهية الحاكم بأمر الله، التي تجعل أوّل شرط للمستجيب لدعوة مولى العقل أنّ: "يتوكّل على الحاكم تعالى، يعني يعتقد أنّه ربّ العباد" وأنّه متفوق على الرسول العربي وابن عمه علي، ووضع إشارات حول أن: "(صاحب الميثاق) وإخوته صلوات الله عليهم ينادون الحاكم بأمر الله: يا محيي يا مميت يا إله الأولين والآخرين، هذا إلهكم أيها الناس وإله آبائكم فاعبدوه..."

ثم ذكر الشيخ عربي إسهامه في تشييد مسجدٍ جانب داره وسط بلدة أم الإبر، كان يجمع فيه رجال أم الإبر الذين شجعهم على شراء أراضي الإقطاع، وعلى محاربة الجيوش الأجنبيّة.

وبعد أن وصلت روز، عرف عن طريقها وذاكرة جدتها ثلجة أنّ الشيخ عربي أوقف أملاكه للمساكين من أهل أمّ الإبر، وقالت جدّة روز بصوتها الواهن:

- رحمه الله، قبيل مماته بدأ ببناء مئذنة لقاعة كبيرة لتكون مصلّى، ولكنّه توفي قبل إتمامها، وقالوا أنّ أحد الفرنسيّين زار أم الإبر، وحرّض فلاحيها على الشيخ عربي بسب نزوعه تجاه القرآن وأهل السنّة، وإهماله لرسائل حمزة ابن علي وانتقاده لمضامينها، فتوقّفوا عن بنائها، ثم هدموها، ورجعوا إلى جاهليتهم، التي أخذوها من سفهاء طائفتهم.

- يا ستي، وأهل زوجته تركوه للأوغاد!
- يا روز الدنيا فيها الصالح وفيها الطالح، وأحمد يعرف ذلك، ما رأيك يا أستاذ؟

لم يكن أحمد يســـمع؛ إذ أخذته غفوة نتيجة التعب الذي حلّ في بدنه، نبهّته روز، واعتذر إلى الجدّة، وواعدها، وهو يغادر:

- غدًا إن شاء الله سآتي صباحًا قبل ذهابك إلى المتحف، وقبل تزايد الناس في الشوارع.

***

اعتاد أحمد أن يشتغل منذ الصباح بمشروع ابنه يحيى بالاشتراك مع روز؛ إذ كان يصل إلى بيتها صباحًا قبل تزايد أعداد المارّة؛ إمعانًا في تواريه عن الأعين، وقبل مغادرتها إلى عملها كان يســجّل ما يجب عليه الاشــتغال عليه، وبدروها كانت روز تصــنّف معه ما صــوّرته أو خزّنته من وثائق محفوظة في المتحف، وتغادر بعد أن تتناول إفطارها مع أحمد وجدّتها، وتجهّز له ركوة قهوة من دون ســكر، وتجهيزات لتحضــير الشاي أو غيره من المشروبات، إلى أن تعود، فيتناولون طعام الغداء؛ الذي حضّرته جدّتها ثلجة.

ركّز أحمد على إشارة الشيخ عربي بريشته إلى قول في شرح ميثاق ولي الزمان: "من معرفة النفس لذاتها يكون ذلك سلّمًا لها إلى معرفة ربّها، وأنّها تعرف أنّ ذاتها موجودة في بدن جسماني لا تفارقه أبدًا، بل كلما ذهب بدنٌ، انتقلت إلى بدنٍ آخر، لا تكسب خيرًا ولا شرًّا إلاّ به" ثمّ أشار إلى قول آخر: "فالله أتاح للموحّد أن يتطهر بكلّ أدوار حياته"، ولاحظ اســتدلال الشــيخ عربي عن التقمص بالقرآن الكريم، وثبّت في حواشــي الصفحات المتعلّقة بالتقمص بعض الآيات القرآنيّة: {يخلقُكم في بطون أمهاتكم خلقًا بعد خلق} الزمر: الآية٦ {الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون} الروم: الآية١١{كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثمّ يُميتُكم ثمّ يُحييكم ثمّ إليه تُرجَعون} البقرة: الآية ٢٨، ثمّ قرأ ما دوّنه يحيى من ملاحظات، منها: إنّ فكرة التقمّص لم تكن جديدة فقد: "قال الهنود والأورفيون وأتباع فيثاغورث بتناســخ الأرواح للتكفير والتطهير" وتوســع بالفكرة على ما وضّحه عباس محمود العقاد.

وقرأ ذيول دوّنها الشــيخ عربيّ عن موقف مخطوط شــرح ميثاق ولي الزمان من المرأة الذي ينظر إليها بصفتها: "سهمًا من سهام إبليس"، وشرح: إنّ هذه الرؤية تسيء إلى المرأة، لأنّ المخطوط عدّها موضوعًا لإمتاع الرجل بالحياة الفانيّة، بل لصرفه عن العبادة وحلاوة الإيمان والتحاقه بها تواءمًا مع خطيئة آدم؛ حينما استجاب لحواء.. وانتبه أحمد لملاحظات الشيخ عربي عن الغناء، وتساءل معه مستهجنًا هذا الموقف، كما قرأ إشارات د. يحيى عن النظرة الدونيّة للمرأة؛ التي أفضت بالمخطوط إلى الحطّ من قيمة الجنس، بصفته من أسمى الفضائل الإنسانيّة، حينما ينبع من رضى الطرفين؛ إذ يفضي إلى علاقة حبّ ساميّة، وهاجم مفهوم الجنس من موقع الفحولة الذكورية؛ لإخضاع المرأة واستخدامها سلعة بيد الرجل، من دون وقوف المخطوط على رغبات المرأة الأنثوية الخالقة للحياة.

وصـــنّف الشـــيخ عربيّ بعض الأمثلة على تحريف كاتب شـــرح ميثاق وليّ الزمان شـــواهد القرآن واعتماد الأحاديث الموضـوعة والضـعيفة غالبًا، وأبدى اسـتغرابه، وكتب هامشًـا للمطالبة بتصـحيح أخطائه، بما يليق بمقام الأمير التنوخي، كما أشـــار إلى اســـتدلال المخطوط بأقوال عن ابن ســـينا وجالينوس وأبيقراط بشـــكل اعتباطيّ؛ مما جعل د. يحيى يشكّك في رجوع صاحب ذاك الشرح لكتب الفلاسفة أو الأنبياء الواردة أسماؤهم، وقد ثبّتها بجانب هوامش الشيخ عربيّ عن نفس الموضـوع، مسـتخدمًا خطوطًا تحمل ألوانًا مغايرة، متيّقنًا من شـــكوك الشـــيخ عربي في عدم تابعيّة المخطوط للأمير الســـيّد عبد الله التنوخي المتضـــمن تناقضًـــا عمّا هو معروف تاريخيًّا عنه.

استمرّ أحمد شهورًا في البحث نهارًا مع روز عما بدأه يحيى، وحين حلول المساء كان يسهم في المظاهرات الليلية أو في حضور مهرجانات الشهداء في ساحات المدن والأحياء في دمشق وريفها.

77

في أثناء استحمام كوثر، دخل أحمد إلى غرفته، وشرع في تركيب قفل داخليّ للباب، لاحظ اقتراب خديجة منه، وهي تنظر إليه مخاتلة، فسألها:

- ما بك يا ديجة؟ كأننا لا نعجبك؟

- بصـراحة لا، لا والله يا أسـتاذ أحمد لا تعجبني! لماذا تركّب قفلًا لباب غرفتك، يعني أنت لا تأتمنا على غرفتك؟ فأجابها مداعبةً:

- نعم، لا أستطيع أن أئتمنك على غرفتي، كما أنني أخاف أن تقومي باغتيالي.

- أنا يا أستاذ؟! ما الذي صدر منّي حتّى تكرهني لهذه الدرجة؟ ثم شرعت في بكاء مرّ، تبكي وتشهق، وتخبر أمّها عن اتهام أحمد لها بالخيانة، أما أمها فكانت تهدّئها، وتضمّها، وتلوم أحمد، ثم اقترب أحمد منها، وأخبرها أنّه يمازحها، قائلًا:

- سأدخل حالًا، وأخلع القفل، المهم أن تبقي أنت راضية أيتها الحمصيّة المشاكسة.

واستمرّ بكاء خديجة؛ حتّى خرجت كوثر من الحمام، ودخلت إلى غرفة أحمد، وأخبرها بما حصل، فتمكّنت من إخراجها للتسوق، اشترت لها جهاز موبايل حديث، وأشياء نسائية، ثمّ رجعتا، وكانت ضحكة خديجة تملأ الغرفة، ولكنّها أظهرت غضبها؛ حينما لمحت أحمد، وأعلنت عن خصامها له.

وإرضاء لخديجة حكت كوثر لها، أنّ أحمد كان سوّاق سيارة في الثورة، فردّت عليها:

- أخبرنا أنّه أسـتاذ فلسـفة.. مليح أنك جئت وأخبرتينا عن حقيقة عمله، أمّا أمّها فصـرخت في وجهها صوتًا جعلها تصمت كل الوقت قائلة لها:

- اخرسي يا قليلة الأدب، لا أريد أن أسمع صوتك طوال الوقت، فتدخّلت كوثر قائلة:

- دعيها تحكي ما تريد، تعالي يا ديجة أنت صـديقتي الجميلة، تسـتطيعين أن تفعلي ما تشـائين، ولا تردّي على أحد، ثمّ صـمت الجميع، سـوى أن كوثر حاولت أن تصـلح الموقف بالحديث عن تجربة سـواق التاكسي أحمد.

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ، وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ

(القرآن الكريم)

لم يكن أحمد يهوى قيادة السيارات، ولكنّه اعتاد اقتناءها، وأراحته كثيرًا في تحركاته بين ميادين حراك الثورة الداخليّ، وحين أصـبحت سـيارته معروفة لدوريات المخابرات والشـبيحة، لاسـيّما حين نشـروا الحواجز على

مفارق الطرق، شـــعر أنّ الســـيارة تشـــكّل عبئًا أمنيًّا عليه، وعلى من يقلّه معه، فأضـــحى يركنها، ويتنقل بالمواصـلات العامة، ثم أشـار أحد النشـطاء عليه استئجار سيارة أجرة، لأن مراقبتها في أسـواق دمشـق أكثر صـعوبة على المخابرات من مراقبة السـيارة الخاصّـة، وبالفعل اسـتأجر سـيارة عن طريق شـباب حيّ القدم الدمشـقيّ، وطلب من أخيه عمر دفع أجرتها مقدّمًا، كان ذلك بعد خروجه من اعتقاله الثاني في شـــهر الثورة الثالث تقريبًا، وبعد انتقال سكنه إلى حارة الحمراوي في حي قنوات.

ركن سـيّارة الإجرة، وقاده أحد شـباب الثّورة إلى منزل عربيّ الطراز قريب من منزل روز، فغيّرت له إحدى نساء الثورة الخبيرة بالتجميل من هيئة وجهه، ومنحته شاربًا مستعارًا، ثمّ دخل إلى غرفة فيها حاسوب وملحقاته من طابعة وســكنر وكاميرا وخلافه، أخذوا له صـــورة بهيئته الجديدة، وفي أثناء دقائق ســلموه بطاقة هوية وشهادة قيادة مزوّرتين باسم آدم أطرش.

اعتاد أحمد ركن السيارة أمام مقهى أبي رياح طوال النهار، وكان يعطي صاحبه مفتاحها لتغيير موقعها أو لاستخدامها ضـمن حارات الحيّ الضـيقة، وكان يلتقي أبناء الثورة في كواليس مقهاه، ومسـتخدمًا السيارة ليلًا، وبات يحرص على تجنّب المرور قرب حواجز عسكر النظام وشبيحته ما أمكن.

أصـبح أحمد يجول بالسـيارة المسـتأجرة في الأحياء والبلدات ناقلًا معه بعضًـا من المتظاهرين من منطقة إلى أخرى، أو توصــيل المســاعدات الطبيّة ومواد الإغاثة وخلافه، وفي ذات فجر نقل شــبابًا من المزّة إلى جامع الفردوس في حي المزرعة، واتفق معهم على طريقة تواصلهم معه بإشارات على خطّ الموبايل، حتّى لا ينكشف أمرهم للمخابرات.

صــلّى الشــباب صــلاة الفجر في الجامع، ثم خرجوا، وانزووا يتشــاورون مع أقران آخرين لهم عن كيفية مشاركتهم في مظاهرة بعد صلاة العصر وعن سبل تواريهم؛ حتى لحظة انطلاقتها، أمّا أحمد، فبقي قريبًا من الجامع منتظرًا ومراقبًا، إلى أن لاحظ حركة مريبة لشخص اقترب من تجمهر الشباب، وتوقّف يتنصّت على حديثهم، ثمّ سـار بمحاذاة جدران الأبنيّة وظلالها قبيل انبلاج نور الشـمس، راقبه أحمد جيدًا، وتأكّد من دخوله بناء قريب من الجامع، وبعد قليل أنيرت مصـــابيح بناء فرع الحزب الحاكم، الذي كان قدّ تحوّل إلى مفرزة مخابراتيّة، وبؤرة للشـبيحة والسـرّاق؛ على ما شـاع بين أهل الحيّ، إضـافة إلى أن أحمد كان قد التقى شـبابًا معتقلين في سجنه، وعرف منهم أنّ جماعة فرع حزب السلطة في المزرعة، هم من اعتقلوهم بداية، وأشبعوهم ضربًا وشتائم وإهانات قبل تسيلمهم لفروع المخابرات.. أسرع أحمد، وأخبر الشباب لمغادرة المكان فورًا، فاختفوا في حارة ضيقة، وقبل مغادرته بسيارته، شاهد بضعة من شبيحة الحزب يحملون عصيًّا متّجهين نحو الجامع بنفس المكان الذي التقى به الشباب، فابتعد عن محيط الجامع.

***

لم يغب عن ذهن أحمد صـــورة ابنه يحيى، الذي تركه مكبّلًا بين يدي الســـجّان، وكان يطلب من عمر معرفة مكان اعتقاله، حتّى لو كان عن طريق سـماسـرة الوسـاطات، الذين كثرت أعدادهم في تلك الأيّام، كما كان كلما تمكّن من معرفة معتقل مفَرَج عنه، يسعى إلى الوصول إليه؛ ليلتقط طرف خبرٍ، وللأسف، لم يصله أيَّة معلومات عنه، فبات يزداد قلقًا، ويتألّم كثيرًا، بالأخصّ حين اكتشـــافه ملامح مقاومة ثقافيّة في مشـــروع يحيى الثقافيّ المتماســـة مع تطلعات فريق مركز الدراســات الثقافية البحثيّ، ولاحظ أنّ النقد الذي سـعى إليه يحيى يرتكز على مقتضـيات النقد الثقافيّ والحضـاريّ، وهذا ما كان واضـحًا في معالجته محاولات النهضـة العربية؛ إذ اسـتعان يحيى بأعماق ذاكرة، بقيت غائمة عن حياته السـابقة طوال عقود ممتدة حتّى الربع الأول من القرن العشـــرين؛ وما زال أحمد مذهولًا، مما وجده من إيضـــاحات تطال البنية العميقة لأســـلوب يحيى الأدبيّ، وهو ينقّب في التاريخ الحديث لإزالة غموض ملابســـات النهضـــة العربيّة وبداية التحديث العربيّ؛ وصولًا لقيام ثورة الربيع العربيّ حاليًّا، التي سوّغ لها ولانتصارها الحتميّ.

أرهق أحمد، فوضـع رأسـه على الطاولة وأخذ غفوة، طالت غفوته إلى أن وصـلت روز، أيقظته، وشـعرت بحيرته وتعبه، فسألته مستفهمةً:

- كأنّك قلق يا أستاذ أحمد، خير إن شاء الله؟

- والله يا روز، لا أعرف كيف نمت! ولكنّ ما اطّلعت عليه في أوراق يحيى وملفاته ظلّ حيًّا في منامي، نمتُ وأنا أفكّر بأشـياء تحيّرني، وتحطّ العقل في الكف، عجزت عن فهم حكاية التقمّص واسـتنسـاخ الأرواح، التي بنى يحيى مشروعه على جانب منها، إلّا أنّ ما ذكره عن واقع بلدنا في تلك المرحلة مقنع.

- انس موضوع التقمّص، وركّز على النتائج التي وصل إليها يحيى يا أستاذ.

شـــرع في إطلاع روز على التدوينات الكثيرة المدوّنة على هوامش مخطوطات دينيّة، التي أضـــاء يحيى الكثير من فحواها بعد عودته من الولايات المتحدة، وقال لها:

- ما أنجزه يحيى خلال أشـــهر قليلة بمعونتك وإدارتك الذكيّة يحتاج إلى سـنوات مع غيره، أو حتّى مع مركز الدراسات الثقافية بفريق عمله كلّه.

***

دخلت روز في سن السابعة والثلاثين عامًا، ودعت أحمد للاحتفال بعيد ميلادها، فاحتفى معها ومع جدّتها وصديقتين لها، وقريب دمشقيّ سبعينيّ، قدّم لها أحمد باقة ورد كبيرة، وحرص أن تكون مكوّنة من ورود زرقاء فقط، وأهداها كتاب أدونيس (الكتاب: أمس، هنا، المكان)، وبعد تلك السـهرة صـارا يتقرّبان من بعضـهما، إلى أن دعته مرّة إلى جامع رقيّة في العمارة.

هناك.. قبيل حلول الظلام قادته نحو ركن مستور، وجلسا خلف أحد أعمدة الجامع الكبيرة، اختفيا عن أعين الموجودين، وجلست ملتصقة به، ظهرهما للعمود، ثمّ بادرت بملامسته؛ فتراجع عنها، إلّا أنّها استلقت بمواجهته، مدّت رجلها نحوه، وطلبت منه تدليك باطن قدمها، باشر بما طلبته منه، مذعنًا – كعادته – لطلبات نسائه.

ضغط على إسفنجة من حرير، وشكّل منها أنصاف دوائر، تأمّلها؛ فانعكس لونها الورديّ على عينيه، واشتمّ أنفه الذي لا يخطئ درب جَنَان الأنوثة، إلى أن صمت لحظةَ أصدرت وحوحاتها الهامسة النامّة عن أنين داخليّ عتيق، ثم فاحت رائحة عبق أنوثتها، فاقترب منها؛ واستنشق منه، حتّى روى رئتيه العطشى؛ اللتين تعيشان بنصف حياة، وشرع في قبلة المشتهى، فأغمضت روز عينيها، وغابت في عالم أحلامها.. توقّف فجأةً، حينما حضر طيف رأس ثريّا، من دون جسدها، كانت تؤنّبه على خيانته.. استقام بسرعة، وبعد لحظات قليلة، حضر خادم الجامع على غير ما توقّع، كانت روز ما تزال جالسة ومستندة على عمود المسجد، وأصبح أحمد مبتعدًا عنها خطوات، شخص نحوهما الخادم، وتابع مسيره.. نهضت روز، ومشت إلى جانب أحمد، وهي تحمد الله على سترها من فضيحة، ثمّ تناول طعام العشاء معها ومع جدّتها ثلجة، وهما صامتان.

بعد ذاك الموقف في جامع رقيّة توقّف أحمد عن التقرّب من روز، ثمّ واعدها مرّة في مقهى أبي رياح، واتفق مع أستاذ الرياضيات منذر ليتعرّف إليها.

كانت روز من النساء الناضجات والمتّزنات، وباتت تكشف عن ميلها العاطفي تّجاه أحمد؛ الذي يكبرها بأقلّ من عقدين قليلًا.. فالتقطت أعماقها روحه الباحثة عن أنثى، وقدّمت نفسها بصفتها الدمشقيّة الجميلة، الضيفة العظيمة على أكثر جوانب روحه عتمًا، كانت روز النسمة المضيئة لوجوده، الأنثى الخالقة، العارفة كيف تقوده على دروب الأمان.

تساءل عن خيانته لثريا، وعجزه أمام وحش الموت الذي أصاب ماري سمعان، فشعر بالفقد، وامتنعت روحه عن استقبال بهاء روز، ثمّ دعا الأستاذ منذر؛ ليثنيها عن أوهامها؛ فهو يعرف أسرار علاقة أحمد مع ماري؛ التي أخرجته من ظلمات حياته نحو ضياء روحها، ويعرف عن إنقاذها له من الموت، حينما امتصّت بذوره بعد خروجه من مشفى أمراض القلب، ويعرف أنّها خزّنت أسباب موته في داخلها؛ عدمًا على شكل سرطان الغدد اللمفاوية؛ حتّى تمكّن منها وحش الموت.

جلسا في مقهى (أبو رياح)، وصل الأستاذ منذر بعدهما بلحظات، عانقه أحمد، وبعد أن قدّم روز له قال لها:

- هذا هو أســتاذ الرياضــيات منذر الذي حدثتك عنه، الذي كان الســبب الرئيس في تفوق يحيى في الرياضـيات، وهو من اهتمّ بدراسـة سـلمى؛ حينما كنت غائبًا عنهما في المعتقل، ويعرفني كما لو كنت كتابًا مفتوحًا بين يديه، يتصفّحني، ويقرأني بجدارة، وأنا لا أخفي عنه شيئًا.

ضحكت روز، وقالت له:

- والنعم عليك.. أتشرف بمعرفتك أستاذ منذر، ثمّ تلى أحمد آية من سورة النور: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَب دُرّيٌّ، يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ،... } هذه روز هي الكوكب الدريّ يا أسـتاذ، زيتها يضيء من دون أن تمسّها ناري... فقالت له ثريّا:

- كيف أضـيء، وأنت مفتقد النار؟ ضـحك الجميع، وبعد دقائق من المحادثة المشـتركة أبدى الأسـتاذ إعجابه بروز الجميلة والمثقفة، فتجرّأت، وألمحت لأحمد:

- ليتني أجد من يقدّر؟ أنا أعيش في العتم أحتاج إلى من يمتلك نارًا لأنير بها نورًا، فردّ أحمد:

- اسـمعي يا صـديقتي روز، لا تلمّحي إلى أيّ شـيء، أنت من أجمل ما وهب الله من جمال للناس، وتأكّدي من أنني لا أقول إلّا الصدق، ولكنّني لا أستطيع الارتباط بامرأة أخرى غير ماري سمعان... وانهمرت دموعه على وجنتيه، فاستدار جانبًا، وشرع يجفّفها بمنديل، إلى أن أخرج النظارات الشمسية، ووضعها على عينيه، واعتصم بالصمت، ثمّ غادرهما، فبادر الأستاذ منذر:

- يا سـيدتي الموقّرة، الدمشـقية العظيمة، أنا أقدّر لك عواطف النبل تّجاه هذا الرجل، الذي تعذّب كثيرًا في وطن كثر فيه الكذب والدجل، ولكن أريد أن أقول لك، أنّه من المســـتحيل أن تتركه ماري، روحها تعيش في داخله، كانت – رحمها الله – ابنته وأمه وأخته وحبيبته وجدّته وكلّ شيء بالنسبة له، أعادت له حياة كانت مختبئة في كهوف أحلامه؛ التي كسرتها زوجته السابقة مع سفلة القوم في أمّ الإبر،...

وقبل أن يكمل منذر، اعتذرت روز عن الموقف الذي جعل أحمد يبكي، ووعدته ألّا تنكأ جراحه من جديد، ولحظة وصول أحمد غيّرت موضوع الحوار:

- الآن دعونا نحكي عن المشروع الذي أسسه د. يحيى، أعاده الله لنا بخير وسلامة.

فسـأل الأسـتاذ منذر عن أخبار يحيى، فبكى أحمد من جديد، وأخبرهما أنه لا أخبار؛ حتّى شـهق شـهقة كادت تقضي عليه؛ فغيّر الأستاذ منذر منحى الحديث، موجّهًا كلامه لروز:

- في رأس أحمد ما هو أخطر من المآسـي كلّها؛ التي نعيشـها معه يا أسـتاذة روز.. ثمّ حكى لها عن تخيلاته منذ أكثر من ربع قرن وانتظاره، لامرأة مصريّة، ثمّ سأل أحمد:

- ألا تزال تنتظرها يا أستاذ؟

لم يجب أحمد، نكس رأسه نحو الأرض، ولم يخرجه من حالته سوى صوت روز، وهي تنشد قصيدة درس كاما سوطرا لدرويش:

"بكأس الشراب المرصّع باللازورد / انتظرها

وحينما قالت:

"إلى أن يقول لك الليلُ:

لم يبق غيركما بالوجود / فخذها، إلى موتك المُشتهى،...

صمتت برهة عن الإلقاء، وغيّرت كلمة: وانتظرها إلى وانتظرني! ثم قهقهت، فأضحكتهما. ولكنّها لم تعرف أنّها القصيدة، التي كان أحمد قد أهداها لماري سمعان وحفظها معها، فتمكّن الحزن منه أكثر وأكثر، إلّا أنّ روز استمرّت في الضحك قائلة:

- يا أخي انتظرها، ولا تنتظرني، هي هناك على شط إسكندرية سيد درويش تنتظرك.

بعد جهد، استطاعت روز من تغيير الحديث عن ماري المتوفاة ويحيى المغيّب، وأعادت أحمد إلى الواقع، إلى أن عاد ليحيى:

- والله.. حطّوا لي عقلي بكفي.. والله لا أعرف كيف أتصرّف، يحيى روحي الثانية بعد وفاة ماري، والله إذا أصابه مكروه، لن يبقى أمامي سوى الجنون أو الانتحار، فردّ عليه الأستاذ:

- اصبر يا رجل، اصبر.. أعاده الله لك بالسلامة، لا توجد شدّة إلّا ووراءها فرج!

لم تستطع روز أن تتمالك نفسها فبكت؛ إذ أكثر ما كان يجرحها هو افتقادها يحيى أيضًا، الذي منذ عرفته وهو يزرع لديها الأمل، كانت تبكيه وتبكي نفسها؛ إذ لم يحالفها الحظّ مع رجل يملي حياتها، وحينما اقتنعت بأحمد، وبدأت تستميله أظهر عذره بوفائه لماري التي افتقدها، وعلى الرغم من نزوعها للميتافزيقيا وفهمها لما يقوله، فإنّها لم تستطع احتمال هذياناته، وما زالت تنشج، حتّى قال لهما الأستاذ:

- انقلبت القعدة إلى مناحة، والله أنا قلبي ميّت يا جماعة، كان فيه قليل أمل وعزيمة، أما أنتما فتدعواني إلى الموت.

- يبعد الشر عن قلبك، ردّت روز بسرعة، وأتبعها أحمد قائلًا:

- لا يليق الموت إلّا لي، يا أستاذ، إن شاء الله، تكحّل عينيك بسقوط سلطة الموت.

- سلامتك من الموت يا أحمد، والله يسمع منك أن نكحّل عيوننا بانتصار الشباب، ولكن كأن النصر بعيدٌ كثيرًا.

رافق منذر أحمد إلى بيت روز، أكملوا السهرة بوجود جدّتها ثلجة، إلى أن غادرا، ونام منذر لدى أحمد في البيت المستأجر بعد أن زار أقرباءه، حيث أضحى الخروج من البيوت ليلًا خطرًا؛ نتيجة كثرة الحواجز في طرقات أحياء دمشق.

في اليوم التالي اشتغل أحمد طوال نهاره على مشروع يحيى، وَفق توجيهات روز، ولم يعد يذكر مركز الدراسات الثقافية المختوم بالشمع الأحمر، ولا يذكر شبابه الذين طالهم السجن مرات إلّا على صفحات التواصل الاجتماعيّ، أما كمال فكان مشغولًا بتبرئة المعتقلين اتفاقًا مع محامين ظهروا بكثافة للدفاع عن المعتقلين في تلك الفترة، ثم سعى كمال للدكتور سلمان، فسافر إلى فرنسا عن طريق سفارتها في دمشق.

على مدى أسابيع استمرّ أحمد متخفيًّا في حي القنوات الدمشقيّ، يشتغل مع ثريا على مشروع يحيى، وفق ما صاروا يطلقون عليه، كان وزنه يتناقص، ومعدته تؤلمه، كلما تذكّر مصير يحيى، ولا تعود له الحياة، إلّا حين خروجه مع منتهى الأطرش إلى مواقف العزاء ومهرجانات الشهداء، أو حين يشارك في مظاهرة قريبة من وسط مدينة دمشق، في جامع الإيمان بالمزرعة أو جامع الحسن بالميدان وجامع الرفاعي بشارع النصر، أمّا الجامع الأموي فقد احتلّته دوريات المخابرات وميلشيات السلطة الطائفيّة.

وعلى الرغم من أنّ المظاهرات منذ الشهر الرابع من عمر الثورة في دمشق، بدأت تخمد نيرانها، فقد باتت ميليشيات السلطة وجيشها، يمارسون أقسى أنواع القمع والقتل على شبابها، مستخدمين الرصاص الحيّ لتفريق المتظاهرين وإخماد جذوة تشكّل المظاهرات.

78

أخذ النعاس أم خديجة، ثمّ كبت، أمّا الآخرون فكانوا يحدّقون نحو شاشة التلفزيون، مع لازمة يكررها الجدّ قليل السمع: "ارفعوا الصوت؛ لنعرف ما يحصل في بابا عمرو والقصير يا أولاد"، وليس من أحد يعيره انتباهه.

أمّا أحمد فقد اختار مكانًا مجانبًا للشاشة، راغبًا عن مشاهدة التلفزيون؛ وإلى جانبه كوثر؛ التي كادت تلتصق به، وهي تهمس في أذنه، عمّا حصل من أحداث في أم الإبر، وفي أثناء انسجامهما بعيدًا عن الآخرين، وفي غفلة من الأمّ التي غرقت في النوم، وهي جالسة، انسلّت خديجة، طالبة الثانوي الحمصيّة، ووصلت خلف أحمد وكوثر، وصرخت باكيّة:

- الله لا يسامحك يا أستاذ...

فقفز أحمد من مكانه؛ كأنما نقّزه أحدٌ ما، ونظر إليها، ضاحكًا:

- ما بك يا ديجة؟! والله أفقدتيني البقية الباقية من عقلي الخرب... وقبل أن يكمل فاجأته بصوتها الحادّ الذي أيقظ أمّها:

- أتظنّ أنني سامحتك؟ لا.. لن أسامحك يا أستاذ، إذا كنت تعتقد أننا حرامية؛ لتغلق باب غرفتك من الداخل فأنت غلطان، نحن أولاد عالم وناس، نحن الحماصنة معروفين...

وقبل أن تكمل وصلت الأم، وصفعتها على وجهها صفعة قويّة، وعنّفتها، فصرخ أحمد بوجه الأم صرخة جعل جميع من في الغرفة في حالة ذهول:

- يكسر إيدك، لماذا تضربينها، هذه بركة الكل، هذه ديجة الحلوة.. الذي يضربها بوردة والله لأضربه بقنبلة، ثمّ اقترب من خديجة، واحتضنها مقبّلًا رأسها، وقادها إلى غرفته، وبجانبه كوثر، وطلب قهوة من أمّها.

بدأ يهدّئ من غلواء خديجة؛ مسوّغًا إغلاقه باب غرفته من الداخل؛ لقرب سفره؛ إذ سيورّث الغرفة ومحتوياتها لها ولكوثر، حتّى تغلقان على نفسهما الباب من الداخل، منعًا لتلصّص الشباب؛ الذين يتردّدون إلى الشقّة بعد سفره، اقتنعت خديجة بحجة أحمد، ثم ضحكت، وقالت:

- لماذا لم تقل لي ذلك من قبلُ، والله خفت من أن تكون لا تأمن جانبنا، نحن الحماصنة أكثر الناس أمانة وصدقًا في العالم يا حجّي، ورسول الله الذي يعادينا لم يخلق بعدُ...

- أولًا: أنت الحجّي، ولست أنا.. أنا لم أحجّ ولن أحجّ، ثانيًا: يسلموا لي أهل حمص كلهم، وأولهم ديجة الجميلة والغالية، أنت من أجمل ما قابلت زمن الثورة يا دجدوجة.

وبشـــكل تلقائيّ ألقت رأســـها على صـــدره، بعد خروج كوثر لجلب القهوة، فحملها أحمد كمن يحمل طفلًا صـــغيرًا، ورفعها إلى الأعلى، ثمّ أمســك يدها، وخرج معها، وهو يداعبها، نظرت نحو أمها، وتركت يد أحمد، اتجهت نحوها وعانقتها، وطلبت منها السماح، فاحتضنتها أمّها، وأصرّت على إدانتها لقلة أدبها أمام الجميع.

- تصبحون على خير يا جماعة...

قالها أحمد بصـــوت عالٍ، ودخل إلى غرفته، حيث كانت كوثر تنتظره.. ريثما أحكم إغلاق باب الغرفة بالقفل، الذي انتهى من تركيبه قبل ســـاعات، التفت؛ فوقع نظره على كوثر، وهي تخلع آخر نجمة عن رمانتيها؛ اللتين اهتزتا فوق صدرها حين ارتمت على السرير؛ كحبتي تين كادتا تسقطان نضجًا، قدّمت نفسها عاريّة تمامًا.. فتحت فخذيها قليلًا، فخلع أحمد ملابســـه على عجل، باعد ما بين فخذيها، ثمّ ركع بينهما ساجدًا، وتأمّل انفتاح فم سمكة سماوية، زهرية اللون وانغلاقه، باحثًا عمّن يروي عطش روحها وشبق جسدها المنساب فوق السرير مُشعًا ضياء، ابتدأ من شرفة حر فينوس الماوي الباثّ عطور الجنّة؛ ارتشف لسانه شــهده، حتّى اســتقرّ عبق أريجه في رئتيه، وبدأ يتلمّس درب شــفاء روحه؛ شــعر ببدء اســتقامتها بعد تزايد انحناءات جسدها في المدى المفتوح لحركتها الدائبة، التقط حطام روحها المتناثر بعد سجنها، وحين اســتقام داخلها، أعادت تكوينه من جديد.

قبل لحظاتٍ كوثرية المقصـــد كان بقايا آدميّ، وبعدما حلّت روحها في جســـده، جمعت ركامه، ونفخت الروح فيه، فأحيت في داخله إنسانًا جديدًا.

كانت ليلة متوهجّة، لم يتركا بابًا من أبواب الحبّ إلّا وطرقاه.. وإن كان طابعها الهمس واللمس حرصًـــا على عدم اختراق صـوت الشـهوة المتأججة جدران الغرفة، إلّا أن روحيهما اجتاحتها بحارٌ من الشـوق، فغرقا في أعماق الرغبة.

بعد أن أشـبع أحمد غريزته، جلس على حافة السـرير لاهثًا كالثور الهرم، أمّا كوثر فكانت تنتظر إشـباع رغبتها المتأجّجة دومًا.. وضـعت كفّ يدها على ظهره العاري، من دون شـعورها بوهج ردة فعله التي عرفتها جيّدًا؛ فجلست خلفه، وشرعت من جديد في لمس رقبته وشعر صدره، وصولًا إلى أذنه؛ التي أودعتها قبلات العشـق، بعدما امتصّـت رضـاب فمه، ثمّ ألقت نظرها نحو عدّته الذكورية، فوجدت عامودها مرتخيًّا، ركعت أمامه تستثيره، وترجوه الانتصاب، ولكن ما من فائدة...

نامت كوثر حزينة، فألقى عليها أحمد غطاء أبيض، واتجه نحو ملابســـه كالجيش المكســـور.. ارتداها، واسـتلقى على ظهره بجانبها، تظاهرت أنّها نائمة، وهي تدير ظهرها له، ولكنّ روحها كانت تبثّ جيوش رغبة باحثة عمّن يرضي جسدها الوثّاب نحو الحياة، تروم رجلًا لم يغرق في أوهامه.

وعرف أحمد أنّه لم يعد مقصدها، فعاد محادثًا نفسه: "أين ستهرب مني أيها الوغد؟ أعرف عنك منذ رمتك أمّك المجنونة طفلًا أمام مقبرة أمّ الإبر، وأعرفك مخبرًا رخيصًا، وأعرف مئات الضحايا بسببك، أين ستهرب منّي؟ أتظنّ أن شباب الثورة سيتركون ساديتك القاتلة تعبث بهم وبوطنهم؟ أين أنت الآن، أيها الذيب ابن شطمة؟ قريبًا سأواجهك.. سأعريك أمام جموع المؤتمرين، لم يبق سوى يومين، ستجدني قربك.. انتظر أيّها المجرم، سيعيدك الثوار إلى بئر الخرى الذي خرجت منه؛ زاعمًا أنّك من أبناء الثورة"، كان أحمد يشحذ همته لمواجهة الذيب وأقرانه؛ ممن شّوه ضمائرهم المال السياسيّ، أمّا كوثر فقد غرقت في نومها حقيقةً، وتركته يجول في أوهامه لفضح الذيب ابن شطمة.

الثورةُ يصنعُها الشرفاءُ، ويقطف ثمارَها الساسةُ الأوغاد

(تشي جيفارا)

مضى بضعة أشهر على عمر الثورة حينما شاءت الصدف أن يقلّ أحمدُ، الذي يقود سيّارة أجرة، بعدما تغيّر شكله نتيجة الشارب المستعار والنظارات الطبية، والقلنسوة على رأسه، إضافة إلى وضع قطعة بلاستيكية لأنفه لجعله أكبر من أنفه الطبيعيّ، أن يقلّ الذيبَ ابن شطمة بالتاكسي العموميّة، التي استأجرها بغية تسهيل حركته في مناطق الحراك، وحين غادره، نسي الذيب أوراقًا في السيارة، تمعّن فيها أحمد، وعرف أنّها خربشات كتبها في ليلة عانى فيها من وحدته القاتلة، واعترافات أخرى.

بقي الذيب قابعًا في غرفته منذ سويعات الفجر الأولى، بعدما حلّ الظلام عليه مكتئبًا في ليلته السابقة، تمدّد على سريره، وشعر أنّه يختنق، وينكتم، فتوجّه نحو النافذة؛ ليستنشق هواء، وحين عودته إلى سريره، أخذه النّوم، وسرعان ما زارته أغوال في كابوس تخلّله صورتي زوجته صفاء، وخطيبته نورهان، كانتا تتراقصان، وتتبادلان الضحك منه والتهكّم عليه، استيقظ هلعًا، وبقي ممدّدًا وحاكى نفسه: "ها قد انقضى العمر وأنا أنتظر مجهولًا يخرجني من وحدتي، لو أنّني أنجبت من زوجتي صفاء؛ لكان وضعي الآن أفضل، ولو لم تهرب نورهان؛ لكانت أمًّا لأطفالي، حظّي قليل في هذه الدّنيا، خدمت عرش السلطة، وأسهمت في قتل ناسي ومن قدّم لي المعروف، وأخيرًا رموني بعيدًا عن المسؤوليات مثل كلب مسعور على رأس جمعية سكنية، أقدم خدمات القوادة للضباط بدلًا من أن أكون وزيرًا".. ثمّ سوّغ لنفسه فشله بناء أسرة بانغماسه في مسؤولياته الحزبيّة والسياسية، لكنّه أقرّ بينه وبين نفسه – وهو في ستينيات عمره – أنّ ما جرى له كان: "كذبة كبيرة، كنت أسهم في نسجها، أمّا الآن، فقد بقيت وحيدًا مع أوهامي، أيشفع لي ربّي فيما اقترفته يديّ من جرائم؟"

في ذاك المساء، لمح الذيب شيئًا اقتحم نافذة غرفته، وسرعان ما عرف أنّه عصفورٌ أخطأ دربه، باحثًا عن النور، صار يراقبه، وهو يحلّق في فضاء الغرفة، حتّى حطّ في أكثر زواياها إنارة، حاول أن يطرده، فأبى العصفور بعناد، ثمّ أبدى مزيدًا من الغضب مزقزقًا شارعًا – من جديد – في الطيران داخل أرجاء الغرفة

باحثًا عن مأوى آمن، وحين عجز الذيب عن طرده تركه وشـــأنه، حتّى ركن هادئًا على أحد رفوف المكتبة العلويّة.

قبع خلف طاولته متصفّحًا نشرات حزبه التثقيفيّة؛ لاعتماد موادها في إعداد المحاضرة المدعو إلى إلقائها في المركز الثقافيّ العربيّ في مزّة 86، وبعد أقلّ من ســـاعة كان قد اقترب من نهاية إعدادها، فجاءه هاتف من وزارة الثقافة؛ أُبلِغَ أنّ مكان محاضرته؛ قد انتقل إلى ساحة أمّ الإبر الرئيسة؛ وسيحشد لها المئات من الحضور.

نهض عن كرسيه لإعداد كأسٍ من الشاي، فخاف العصفور، وطار محوّمًا في أرجاء الغرفة مجدّدًا، تابعه حتّى حطّ قرب لمبة حائطية في أعلى المكتبة، تركه الذيب، وشرد به فكره قليلًا فسدّد العصفور نظره إليه؛ نفش ريشه، ثمّ قوّس ظهره، وهبط بمؤخرته نحو الأسفل.

خشي الذيب من خراء العصفور، نهض واستكشف مرساه، فكانت سلحة على نشرة حزبيّة، استثير من جديد، وحاول إخراجه من فضـاء غرفته عنوةً، فأبى، وعاد إلى الطيران من دون كلل، وحين حطّ أخيرًا، رمقه العصفور بنظرة تحدّ، وخاطبه قائلًا:

- لن أتمكّن من حريتي في دروب الظلمة، اتركني وشأني، فردّ الذيب:
- فضاؤك خارج غرفتي، والظلام يفتح شدقيه يدعوك للإبحار فيه.

غرّد العصفور من جديد غاضبًا وردّد بحروف عصفورية:

- اتركني وشأني، من دونك أعرف سكتي.

فرّ العصفور إلى أقصى المكتبة، واختبأ في إحدى زواياها المعتمة، واستكان على كتاب تراثيّ ضخم مركون في أعلى المكتبة، أهمله الذيب، وتوجّه إلى سرير نومه محاولًا أن يغفو، لكنّ صفاء أصرّت أن تبقى مستقرّة في رأســه مقهقهة أو راقصــة مع عشيقها أو متهكّمة عليه.. وكلما دخل الذيب في سكينة؛ كانت كوابيسه تعاوده من جديد عند دخوله في أوسانه، وما زال ينهض مستعيذًا بالله من الشيطان، ثم محاولًا النوم الذي هجره، حتّى انقلب على جنبه وغاص في نومة.

سقط من مكانٍ عالٍ نحو بالوعةٍ ملأى بالصراصير، أحاطت به عازمة على تمزيقه، ولكنّه استيقظ على ضحك صفاء استهزاءً به.. لعنها وحوقل، وغيّر موضع رأسه على السرير، وبعد برهة صرخ لحظة غرس سكينه في قلبها، وفي كرش ذاك الأفّاق الذي خطفها منه، واستهان بكرامته، كان هذا الكابوس يتكرّر عليه، وكم من مرّة كان يستيقظ، وهو يحرّك سكينه في بطنيهما؛ كي يموتا.

استأنف العصفور التحليق في فضاء الغرفة مراتٍ عديدة مستطلعًا أشعة الشمس متحرّرًا من مستنقع ظلام المكتبة؛ وعند كلّ تحليق له كان يزداد الذيب اضطرابًا وقلقًا.. تأخّر قدوم فجر العصفور، وعجز الذيب عن

النوم، ثمّ ترجّل، وحرص على إطباق الظلمة في كلّ أركان الغرفة، غرق في سكون العتم مستكينًا وصامتًا متجرّعًا الألم وحيدًا، فأجبر العصفور على النوم متوقّفًا عن إقلاق راحته.

فتح العصفور شدقيه، وأظهر أنيابًا حادّة، ثم أرخى مخالبه اللحمية في جسد الذيب، ورفعه يريد ابتلاعه، كانت أنيابه مخيفة، وكان الذيب يتملّص هاربًا منه، ولكنّ العصفور تمكّن منه أخيرًا، والتهمه بفكّيه العظيمين، استيقظ مذعورًا باحثًا عنه، فوجده واقفًا على حافّة شبّاك الغرفة مزقزقًا لحظة طلوع السحر قبيل الفجر:

- صباح الخير أيّها النور، صباح الخير أيتها الحريّة.

***

استعاذ الذيب ابن شطمة من الشيطان الرجيم، واستجار بالله العظيم مبتهلًا أن يريحه من شرور كوابيسه، ثمّ سمع أذان الفجر؛ فاستبشر خيرًا، وضع رأسه تحت صنبور المياه الباردة، حتّى توحدّ مع برودته الشديدة، توضّأ، ورفع المصحف عن رفّ المكتبة العلويّ، ووضعه على الطاولة استعدادًا، لتلاوة ما يتيسر له من آياته الكريمة، وقبيل الشروع في التلاوة رفع يده متحسّسًا سمة السجود على جبينه.. حمد الله على كلّ شيء، وقرأ بضع آيات، ثمّ استثمر بضع دقائق قبيل الصلاة، فنهض وتحسّس الكتاب السميك الذي ضمّ بعض البرامج السياسية لأحزاب جبهة التحالف التقدميّة، وشعر بفخر لإسهامه في إعداده، مقرّرًا اعتماد بعض فقرات ما جاء فيه، ثمّ شكر الله، وقبل أن يرفعه من مكانه دوّن على رأس صفحة محاضرته: (أعتمد في محاضرتي على برنامج حزبنا المؤسَّس على فكر تضخّمت مواده وكثرت بتحالفنا مع أحزاب التقدم والاشتراكية، منذ حرب 1967م حتّى أيامنا الراهنة؛ التي تشهد فتنة داخلية ومؤامرة كونية ضد نظامنا التقدميّ في سوريا) رفع الكتاب، وسرعان ما تخلّى عنه، ورماه على الأرض، بعد أن تبلّلت أصابعه بسائل لزج ساخن، وأشياء أخرى أودعها العصفور على غلاف كتاب الجبهة، فاخترقت متنه؛ عندما ربض عليه.. تناوله الذيب عن الأرض، ثمّ لعن العصفور وحريته، ومسح ما أمكنه مسحه عن الكتاب، إلّا أنّه عجز عن إزالة آثار بللٍ خُرائيّ التكوين اخترقت موضوعاته.

قبع خلف مكتبه، وأغمض عينيّه مبعدًا صورة العصفور عن مخيلته، هاربًا نحو ذاكرته؛ مستعيدًا المقابلة التي أجرتها معه محطة الوطن الفضائية، بصفته منظّرًا لسياسة حزبه؛ فشعر بالاعتزاز، وقرّر أن يضمّن محاضرته بعضًا؛ مما ذكره في تلك المقابلة عن الفكر الخلّاق للحزب القائد؛ الذي ازداد وضوحًا في ظلّ نشاطات الأحزاب الثورية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين وتحالفاته معها.

توضّأ من جديد، ثمّ خرج، وتبعه مرافقوه سرًّا، ذهب إلى الجامع القريب من بيته، وهناك أدّى صلاة الفجر، ثمّ همّ بالرجوع؛ ليكمل نومه، وقبل خروجه من المصلّى، تخيّل نفسه وراء منصّة في صدر ساحة أمّ الإبر؛

محاضــرًا عن مفهوم النظام الديمقراطي على أضــواء فكر مؤتمرات أحزاب اليســار الاشــتراكية في ســوريا ومنتدياتها، وأمامه مئات الحاضرين، يصفقون له.

انتبه حارس من مفرزة الأمن لاستمرار سيّارة في الوقوف جانب الجامع؛ فأخبر رئيسه الذي توجّه نحو سائقها، وطلب منه أوراقه، أعطاه أحمد الأوراق، دقّق فيها، وسأله:

- لماذا تقف هنا؟
- أنا أشتغل وأحصل على معيشتي، أقف بانتظار ركّاب أوصلهم إلى مكان آخر بعد انتهاء الصلاة.
- ولماذا لا تصلي؟
- ليس من عادتي أن أصلي.
- أأنت لست مسلمًا؟
- مسلم مع وقف التنفيذ، لا أصلي ولا أصوم!
- انتبه من هؤلاء الخونة في الجامع، نحن موجودن في القرب منك، إذا لاحظت أيّة حركة مريبة أخبرنا، ثمّ أعطاه رقم هاتفه، شكره أحمد، وبقي واقفًا قرب الجامع.

قبل خروج د. الذيب من الباب الخلفيّ للجامع سمع أصواتًا تتهامس، أصخى السمع قليلًا، ثمّ انسلّ مستورًا عنهم، وحاذى الحيطان تلافيًا لمواجهة أحد، ولكن تحت أنظار أفراد مفرزة أمن الجامع الذين يعرفونه.

قبل تناوله قهوته وإفطاره، اتصل برئيس مكتب فرع الأمن السياسيّ المسؤول عن الحيّ، وأبلغه عمّا سمعه من أولئك الفتيّة، وذكر له اسم ابن أحد جيرانه؛ الذي اشتبه بصوته بينهم، ثمّ اتّجه نحو المطبخ، وأعدّ القهوة وطعام الإفطار من العسل والقشدة والخبز المحمّص وكأسًا من الحليب الساخن، وقبل أن يبدأ، حضرت ذكرى زوجته صفاء، فشعر بغُصّة في حلقه، وتوقّف عن الطعام، ثمّ أخرج ألبوم الصور، وتصفّحه متأسفًا على عمر مضى، ومتوسلًا الله أن يجعلها لقمة سائغة له مع عشيقها، راجيًا أن يصادفهما؛ حتّى يذيقهما شرّ عملهما، ثمّ قتلهما توهمًا، كما يفعل كلّ يوم، ولكنّه احتار كيف يمثّل بجثتيهما، فتركهما عُرضة للريح تعبث فيهما مستدعيّة جرذان معركة مقبرة أمّ الإبر وكلابها المسعورة؛ التي عدّ نفسه منتصرًا فيها قبل أكثر من عقدين، وأصبح يتخيّل تضاؤل وجودهما؛ حتّى التلاشي.

أفقدته، ابنة الأصول، صفاء توازنه بعد أن تركته والتحقت بعشيقها؛ الذي: "غرّر بها ببضعة أبيات من شعر الحبّ، حفظهم في أثناء فترة اعتقاله السياسيّ؛ التي طالت بضعة سنوات؛ نتيجة خيانته مبادىء ثورة الصمود والممانعة وفكر القائد المفدّى" بات الذيب يحاكي نفسه؛ فيغيب حتّى يصحو، ويجد نفسه بين جدران منزل كبير وشاشة تلفاز ضخمة، ولوحات على الجدران، لكن لا روح فيه.

أصبح يتساءل عن جدوى حياته، وينتقل بتخيلاته إلى أيام السفارة في بولندا؛ حينما كان يحقّق مع جماعة الإخوان المســلمين، فيحنّ إلى شــبابه في تلك الأيّام، التي كان يهابه كل من عرفه، ثم يتوازن أكثر عندما يستحضر بطولاته على حلبة التحقيق وساحة الإعدامات في معتقلات السلطة الرهيبة.. وأصبح يكشّر عن أنيابه في أثناء تخيّله فتيان المظاهرات وهم أمامه في غرفة التحقيق، وهو يقوم بإخضــاعهم لأقســى أنواع التعذيب؛ حتّى يكشــف عن خيوط التآمر والفتنة، كما يتخيّل كيف يضــغط على رقبات الخطرين منهم حتّى الموت، وقال لنفسه مبتسمًا:

- حينها تليق الوزارة بك يا معلم.

أمّا أحمد، فانتظر إلى حين وصول شباب الحيّ، لنقلهم من جديد إلى مكان آخر، وفي السيارة أخبرهم أنّ ثمّة شخصًا تنصّت إلى اجتماعهم، وعرفوا أنّه الذيب ابن شطمة، الذي يتواجد أحيانًا في شقّة بحيّهم قرب جامع الإيمان، ثمّ أخبرهم أحمد أنّ الذيب من ســكان أم الإبر، فغيّروا خطتهم، التي كانوا قد اتفقوا عليها القاضــيّة في خروج المظاهرة من جامع الإيمان، وقرروا أن يتوجّهوا نحو أم الإبر، بعيدًا عن المكان الذي قد يكون سمعه الذيب.

***

رجع أحمد إلى جانب مفرزة الأمن، وحادث حارسها، ثمّ انتظر بجانبه ليقلّ ركابًا آخرين، أما الذيب فتناول فطوره على شرفة شقّته، وخطر في باله أن يذهب إلى منزله في أمّ الإبر؛ استعدادًا للمحاضرة التي سيلقيها في الســاحة، ارتدى بدلةً وقميصًــا وربطة عنق حمراء، ووقف دقائق أمام المرآة مادحًا شــخصــيته المهيبة، وابتســامته الســاحرة، وعلى مهل، وضــع أوراقه واحتياجاته في حقيبة أنيقة، وخرج من باب البناء، ولم يتّجه لكاراج سيارته المركونة، لأنّه في تلك الفترة قليلًا ما كان يتحرك بسيارته؛ خوفًا من انتقام ضحاياه الكثيرين.. توجّه نحو مفرزة الأمن القريبة، وأخبر رئيس المفرزة تركه للسـيّارة، وأنّه سـيخبرهم هاتفيًّا إن احتاج إليهم في أمر ما:

- قد أحتاجها، فما عليك إلّا إرسالها مع سائقكم..
- حاضر سيادة الدكتور.

انتظر حتّى جلب له أحد عناصــر المفرزة سـيارة أجرة، لتوصـيله إلى حيّ أم الأبر، تكرّرت غفوات الذيب وهو جالس على مقعد السـيّارة الخلفيّ، وفي كل مرّة كان يسـتيقظ مرعوبًا من انقضــاض العصـفور عليه في دروب عتمته، كان يعتلي رأسه محلّقًا فاتحًا شدقيه يريد ابتلاعه.

سأله السائق إن كان على ما يرام! فأجابه أنه يحمد الله.

- كأنني لمحتك عند باب الجامع بعد صلاة الفجر، فأجابه مذعورًا:

- لا أنت غلطان، أنا لا أصلّي في الجامع.

ولم يكن السـائق سـوى أحمد متنكرًا بشـارب كثٍّ، وقلنسـوة ونظارات أيضًـا، وتغيير على ملامح وجهه. صمت أحمد نهائيًا، في الوقت الذي أخرج الذيب أوراقًا وأمعن فيها النظر، ثمّ خطر على بال أحمد الكثير من السيناريوهات بأن يرميه بعيدًا عن منزله، أو أن يشتمه، ويطرده من سيارته.

إلى أن غادر الذيب السـيارة من دون أن يدفع أجرتها، وتوجّه نحو حمود الذي كان ينتظره؛ بعدما أُخبِر بقدومه، أما أحمد فتوجّه بسيارته إلى الدار الكبيرة مواربة، بعد ما أخذ أوراقًا نسيها الذيب على المقعد الخلفيّ.

كانت الأوراق خربشـات كتبها الذيب في ليلته السـابقة، احتفظ بها أحمد، ثمّ اتصـل بالشـباب الذين تركهم فجرًا، وكانوا بالقرب منه، جاءه أحدهم، وأبلغه باعتقال شـاب من خليتهم، يقطن مع أهله قرب شـقّة الذيب ابن شـطمة، بعد دخوله البيت صـباحًا، فطلب أحمد منه تحذير رفاقه من اعتقال متوقّع لهم نتيجة اعتراف رفيقهم المعتقل، ولكنّ الشاب لم يكترث بتحذيره، وغادره.

أخبر أحمد عمر عمّا حدث معه، وأعلن له عن مخاوفه على شـباب التظاهر، وحينما حاول عمر تحذير شباب تنسيقية أم الإبر من الشـرور المتوقّعة، أجابوه أن شملَ شـباب الثورة انعقد، وهم يهتفون داخل الجامع الكبير؛ استباقًا على المهرجان المزمع إقامته في ساحة أمّ الإبر مساء.

***

لم يمهل شـباب أم الإبر أحمد وعمر لأخذ دورهما في التحذير والتخفيف من صـهيل خيول الحرية داخل نفوسـهم، وربّما لم يتسـع الوقت لحمود والذيب من الوشـاية بهم، أو تدبير اعتداءات الشبيحة عليهم؛ إذ خرجوا مباغتـة من الجامع بمظـاهرة عارمـة، وبعد لحظـات التحق عمر وأحمد بهم، وتراجع عمر عندمـا لمحـه ابن عمته حمود، وحاول أن يعيد أحمد معه، ولكنّه رفض، وغذّ سيره نحو بؤرة المظاهرة.

سمع الذيب أصوات المتظاهرين تنادي بالحرية والكرامة، فخرج من المكتب العقاري، على الرغم من تحذير حمود له عدم الخروج، وتوجّه نحو أصـوات المتظاهرين، وهو يحاكي نفسـه: "لعن الله الحرية التي تطالبون بها، بلدنا آمن، والناس مدبّرة حالها، وكلنا راضـون وعايشـين، ونحيا حياة مسـتقرّة، من المؤكّد أنّكم تتقاضـون ثمن مظاهراتكم يا أولاد الكلاب، مؤامرة خارجية، أي والله خارجية".

ثمّ تجدّدت تخيلاته بالتحقيق مع المتظاهرين المتآمرين، وقال محدّثًا نفسه: "سأسلخ جلودهم، وهم أحياء إن تسنّى لي التحقيق مع هؤلاء الأوغاد".

لحق به حمود، وهو يرجو منه الرجوع، ولكنّه لم يستجب له، فرجع حمود ودخل إلى المكتب، وأغلق بابه.

قبيل وصـول الذيب ابن شـطمة إلى نهاية دخلة فرعيّة، اقتربت منّه أصـوات المتظاهرين، ولم يعد بإمكانه التراجع أمامهم؛ وحين تبادل مع السـائق الذي أوصـله، وهو أحمد، النظرات بالعيون، فزع وتوارى وراء حاوية

زبالة، وراقبه متوجّسًا لأنّه لم يسدّد له أجره، مختفيًّاعنه وعن أعين المتظاهرين، الذين أصبحوا يصدحون مطالبين بالحرية والكرامة وبسقوط النظام والانتقام للشهداء.

وصلت دوريّة مخابرات واصطفّت قرب حاوية الزبالة، وترجّل عناصرها من سيارتهم؛ وأخفوا أنفسهم، وهم يشهرون بنادقهم نحو المظاهرة.. ثمّ سمِع الذيب إطلاق نار كثيف بالقرب منه، فقفز إلى حفرة خلف حاوية الزبالة هلعًا، من دون أن يتسنى له التدقيق في مياهها الآسنة.

لامست قدماه قاع الحفرة، وعلقتا بطينها، حاول انتزاع رجليّه والخروج منها، لكن قوة أكبر منه سحبته نحو الأسفل، ومن دون أن ينتبه أحدٌ لصراخه واستغاثاته، غاص في مياهها اللزجة الدافئة المختلطة بأشياء أخرى رويدًا رويدًا.. فتذكّر حينها خراء العصفور، الذي اخترق موضوعات مؤتمر حزبه، وجنّ جنونه كلما حضرت صورة شدقيه المفتوحين لابتلاعه، غشي عليه من نتن الحفرة، إلى أن انغمر بسوائلها اللزجة من أخمص قدميّه حتى أعلى رقبته، ولم يبق سوى رأسه خارج مياهها، كان يصرخ، ولكنّ صوته لا يسمعه سواه، نتيجة جلبة هتافات المتظاهرين ونيران بنادق المخابرات.. تفرّقت المظاهرة، وخمدت أصوات شبابها.

وقف بالقرب من الحفرة عنصرين من المخابرات، فاستبشر الذيب ابن شطمة خيرًا، وصرخ من جديد، ولكن لم يسمعه أحدٌ، ابتعد عنه العنصران، وحين شرع في قراءة الفاتحة على روحه؛ رجع أحد عناصر الدورية، وتوجّه صوب الحفرة، أنزل سرواله وبال فيها؛ وكان لرأس الذيب النصيب الأوفر من البول، فاستغاث مجدّدًا ووصل صوت استغاثته للذي يبول، نظر إليه مندهشًا، وصرخ:

- يا شباب بسرعة تعالوا، في حيوان مختبئ في الجورة!

حمد الذيب الله على كلّ شيء، وبقي يشرئب برأسه خارج المياه التي غمرت جسده، حتّى أخرجوه، لم يتعرّف إليه أحد، فخراء الحفرة غطّاه، ولم يعد با ستطاعة أحد التعرّف عليه.. ثمّ طلب منهم الاتصال بحمود، وكانوا يعرفونه، فجاء وأخذه، اهتمّ بتنظيفه، وإعطائه ثيابًا من ثيابه استعدادًا لإلقاء محاضرته ارتجالًا؛ لأنّ أوراق المحاضرة كانت قد غرقت في نتانة الحفرة ومياهها الآسنة.

كانت الاستعدادات لقيام المهرجان على قدم وساق، وقبيل موعد محاضرته، كان الذيب يشرب القهوة مع حمود على شرفة شقّته، حينما مرّت مظاهرة أخرى، وضمّت مئات من شباب الثانوية، ينادون بالحرية والكرامة، ثمّ حضرت ميليشيات السلطة، وأطلق أفرادها الرصاص الكثيف على المظاهرة، فجرح بضعة طلّاب، أسعفهم رفاقهم، وتفرق الآخرون، أمام هذا المشهد تهيّأ الذيب للرحيل، اتصل برئيس المفرزة، وأخبره إرسال سيارته إلى أم الإبر، ثمّ بدأ الحديث مع حمود عن شراسة شباب المظاهرة، وحينما ألحّ حمود عليه أن يلقي محاضرته، وألّا يخشى من صبيّة أغرار، ردّ عليه:

- دعني وشـــأني يا أخي، أريد أن أتقاعد، هؤلاء الفتيّة لا أحد يقدر على تطويع إرادتهم، المؤامرة كبيرة والفتنة أكبر.

وصلت سيارته، وأقلّه السائق إلى شقته في حي المزرعة الدمشقيّ، وفي أثناء دربه اتصل باللواء جميل حسن رئيس فرع مخابرات القوى الجويّة، فأرسل له ضابطًا رفيع المستوى، اجتمع معه في منزله، واتفقا على خطة للانشقاق عن السلطة والانضمام إلى صفوف الثورة. أقلّه معه مساء ذلك اليوم واجتمع مع جميل الحسن، الذي عدّل خطّة انشقاقه، ثمّ أرسل من يتفق مع رئيس مكتب قناة البي بي سي في دمشق، وتمّ التنسيق فيما بينهم، لتغطية خبر انشقاق الذيب ابن شطمة، وفي يوم تالٍ أعلن انشقاقه عن السلطة وانضمامه إلى الثورة من استانبول.. غطّت وسائل الإعلام العالميّة الحدث كاملًا، واسبشرت قيادة المعارضة السوريّة الخير، وعدّت انشقاق الذيب ابن شطمة من الحداث الأكثر أهميّة على درب الثورة السوريّة في سبيل إسقاط نظام الحكم.

***

ظلّ عمر على ناصية شارع الدار الكبيرة مراقبًا، إلى أن وصل شباب يحملون أحمد على أكتافهم، حيث كان مشاركًا بالمظاهرة، وأصيب برصاصة في فخذ رجله، أسعفه شابٌّ إلى صيدليّة قريبة، فضمدّوا له جرحه، ونقلوه إلى فراشه في الدّار الكبيرة، ولكنّ الأستاذ منذر، وصل مباشرة، وطلب من عمر نقله من الدّار حرصًا عليه، فنقله سرًّا – بداية – إلى شقّة الأستاذ منذر، عالجه طبيب صديق للأستاذ منذر سرًّا، وتبين له وجود كسر في الساق، مما استلزم معالجة جرحه أوّلًا، ليتمكّن من تجبير ساقه، التزم الفراش أيّامًا؛ مما أفسح المجال له لمتابعة الفضائيات.

قدمت قناة الجزيرة نقلًا عن البي بي سي مشاهد مسجّلة عن المنشقّين الجدد عن النظام، وذكرت الحدث الأهمّ؛ وفق تصريحات المعارضة السوريّة، وهو انشقاق عضو سابق في مجلس الشعب السوري، الدكتور الذيب ابن شطمة، الذي رفع يده أمام الكاميرا معاهدًا الله والشعب على المضيّ في دروب الحرية والثورة ضد الاستبداد والجهل؛ حتّى يتمّ إسقاط نظام الحكم الاستبداديّ، ثمّ أنهى كلمته برفع هويته أمام عدسة الكاميرا قائلًا:

"... أنا الدكتور الذيب شطمة، المنشقّ عن النظام الظالم الشرير... وهذه هويتي،..."

79

استيقظت كوثر، وحاولت أن تستثير رجولة أحمد، لكنّه كان يهرب منها نحو النّوم.. لم يستطع أن يفتح عينيه، تركته، وجلست وراء المكتب، واطّلعت على أوراقه، ريثما يستيقظ، وقرأت فيها حزنه على الذين افتقدهم موتًا أو اعتقالًا أو تهجّيرًا، وشوقه ليحيى وسلمى، وخوفه على أمّه وسارة وعمر وروز ومن بقي داخل سوريا، ثمّ قرأت ما كتبه عنها: "كوثر الجميلة.. قبل أسبوع عرفت باعتقالك الأخير في فرع مخابرات القوى الجويّة، اعذريني يا ملاكي، فأنا مكبّل في جحور الغربة، اعذريني يا من أيقظت في داخلي روحًا جديدة، أنا – الآن – أنزوي في جحري، قبري الصغير في عرسال، أنا الرعديد، الذي يرتجف – كقطّ هرم – خوفًا من كلاب مسعورة، متلصّصًا من فوهة جحر الفئران.. لقد اكتشفت كم كنت واهمًا في حياتي يا كوثر، وكم حاولت إيهامك معي طوال شهور الثورة، كما أوهمت – من قبلك – ثريا وميسون وماري وغيرهن.. أنا من خذلكن أيتها الجميلات، الحرّات، أنا من حمل في داخله وحش الفحولة الذكوريّة الجوفاء، سامحيني، أيّتها الصديقة الصدوقة – على ابتعادي عن ساحات وطن طهور بانتمائه لكنَّ.. أيّتها الماجدات.

طيفك – يا كوثر – لن يفارقني، واسمك محفور على شغاف قلبي، ورائحة جسدك المفعمة بروائح الثورة محشورة في أعماق حواسي، أتذكرك الآن، وأنا محشورٌ في عتم روحي غائصًا في أوهامي، أعيشها كوابيس وأضغاث أحلام وتخاليطها وأباطيلها المؤرقة نومي... لم أعدْ أنام سوى سويعات قليلة؛ اتقاء شرّ الجنون أو الموت.. أما ماري سمعان فلا تغادرني روحها، طيفها ينقذني من خزيي ومهانتي وعاري.. من إلحاح شبح ثريّا المذبوحة لإعادة جنينها إليها؛ صارخًا في أذنيّ: "أين جنيني يا أحمد؟ أعده إليّ.. أعده أيّها الفاشل..." حضورك يا كوثر، في ساعات ذعري خلال كوابيسي بلسم لروحي التائهة على دروب جسد منهك...

وأكملت كوثر قراءة بعض ما كتبه لها ولغيرها، ثمّ توقفت عند ذكره الذيب ابن شطمة قبل وصولها بأيّام:

"... وها هو ذا الذيب يغادر باريس متوجّهًا إلى استانبول للاجتماع مع الحكومة التركية استعدادًا لمؤتمري جنيف والقاهرة القادمين، وتفاوضًا مع أطراف المجلس الوطنيّ لتحديد عدد ممثليهم في مؤتمر المعارضة..."

"الخيانة والفساد والجريمة ما يلحّ على مخيلتي المشوبة بأشباح تراقص النيران..."

أطلّت كوثر على وجه أحمد في فراشه، تأكّدت أنّه يغطّ في نومه، طبعت على شفتيه قبلة، ثمّ خرجت إلى غرفة الجيران، كانت مزدحمة بسكانها المنتظرين فطورًا دسمًا مكونًا من فول وفلافل، تحضّره أم خديجة.

ما لبثت أن جلست؛ حتى اقتربت منها خديجة وسألتها:

- أستاذة كوثر، أنت خطيبة الأستاذ أحمد؟

- لا يا ديجة، أنا لست خاطبة، لا أحبّ الارتباط.
- …………………… لم تتفوه خديجة بأيّة كلمة، غادرتها، ودخلت إلى المطبخ.

منعت كوثر الآخرين من إيقاظ أحمد ليتناول فطوره، وشاركتهم الطعام، واحتست الشايّ معهم، وأصبحوا يسألونها عن أخبار حراك الداخل، وعن الثورة، فكانت تجيبهم مختصرة، ثمّ حكت لهم عن سجون السلطة، وعن إصابة أحمد السابقة، واعتقاله لدى ميليشيا تكفيريّة في المليحة، وعن اضطراره إلى الخروج من دمشق.

الليلة مديدة كالعصور.. المرأة في الشرفة، وأنا في السجن

(رياض الصالح حسين)

هي رحلة الشقاء، منذ كشفت المخابرات الشقة التي شغلها أحمد في حيّ القنوات، من دون أن يعرفوا أنّه شاغلها، اقتحم عناصر الدوريّة الشقّة، ولم يجدوا أحدًا فيها، فقد كان أحمد لا يزال في بيت الأستاذ منذر يتألم من إصابة رجله، فصادروا محتويات الشقة؛ سريرها ومكتبها وكتبها وجهاز الكمبيوتر، وحقّقوا مع الجيران عن هوية المستأجر، ولم يكن أحد يعرف عنه شيئًا، سوى أن أحد الجيران أخبرهم أنّه شاهده في مقهى أبو رياح مرات عدة، مما جعلهم يهاجمون المقهى، ويكسّرون بعض كراسيه وطاولاته، ويعتقلون صاحبه، الذي لم يعرف أحد مصيره لأشهر عديدة.. وقال أحمد للأستاذ منذر يومذاك:

- حمدًا الله أنّ روز بقيت بمنأى عن الاعتقال، وأنّ اللاب توب ومحفظتي، التي تحتوي على أوراقي وملفاتي حملتهم معي في السيّارة في المرة الأخيرة.
- ولكن لا تزال دوريات المخابرات يجوبون الحارة، ويحقّقون مع أهلها، واعتقلوا بعضهم، وقد أهانوا قريبيّ المسنّين، الذي أجرّاك المنزل من دون عقد إيجار، وأخفيّا عنهم علاقتي معك.
- فكّ الله أسر المعتقلين، وفرّج عن أبي رياح صاحب المقهى، وأعان الله قريبيك الشيخ وزوجته، والله يا أستاذ حرموني الذهاب إلى حارة الحمراوي.
- يجب ان تخرج من مناطق سيطرة النظام يا أحمد، وفورًا.

بعد إصابة أحمد سلّمت السيارة المستأجرة لأصحابها، وبيعت سيارته الخاصة المركونة في كاراج، ولم يبق سوى ساعات بعد حديثه مع أستاذه في شقّته، التي كان ما يزال يتلقّى العلاج فيها؛ إذ أُمّنت وسيلة مواصلات إلى بلدة سقبا عن طريق تنسيقيّتها.

عند وصول السيارة التي كانت تقلّه مع ثلاثة شباب من أمّ الإبر إلى جسر الغيضة، قبل دخولهم إلى جسرين، اعترضهم شباب مسلّحون، وظّن أحمد أنّهم دورية مخابرات، إلى أن فتح نافذة السيارة، واستقبل وجه أبي جاسم، الذي عرفه في السجن، صعد إلى جانبه، وأطل من النافذة قائلًا:

- هذا صديقي الذي تعرّفت إليه مع ابنه د. يحيى في سجن الموت بفرع المخابرات العسكريّة يا شباب، ففتحوا الطريق، وصرخوا بصوت واحد: "الله محيي الجيش الحرّ، الله محيي الجيش الحر..."

اقشعر شعر بدن أحمد، واستشعر خطورة ما يجري، وصرّح بهواجسه تجاه ظاهرة التسليح:

- يا شباب قوة الثورة بسلميتها ورقيّ شبابها الحضاريّ، والله إنّ من يسعى إلى تسليح شبابها، يقصد إضعافها عن قصد أو غير قصد، فقال أبو جاسم:

- الاتكال على الله أستاذ أحمد، لكن لولا هؤلاء الشباب؛ لكانت سقبا أبيدت عن بكرة أبيها.

وصلوا إلى بيت متطرف في سقبا، كان مفروشًا جيدًا، وفيه كل مستلزمات الحياة، استلقى أحمد على سريره بمساعدة الشباب، وقرّبوا مكتبًا خشبيًّا منه، ووضعوا اللاب توب وحاجياته، التي يستخدمها بالقرب منه، وأعطوه جهازي تحكّم عن بعد للتلفزيون والمكيّف...

رافقوا سيارة شباب أم الإبر حتّى طريق الغوطة الرئيس، وظلّ أحمد أسير جرح رجله.. لا يستطيع التحرّك إلّا بمساعدة زائريه، وغالبًا مساء كلّ يوم فقط، ثم تتالت المفاجآت المذهلة عليه؛ الذي لم يكن يمضي يومًا؛ إلّا ويستشعر مصائب ثقيلة تحلّ على الثورة، كالذيب ابن شطمة الذي يشهّر بالنظام، ويدين قمعه المظاهرات وحجزه الحريات، إلى أن أصبح يقدّم اسمه بصفته ممثل حراك الثورة الداخليّ في الخارج، وأحد أعمدتها المنافحة عن كرامة السوريين والثورة، منضمًا لممثل شباب الثورة ماهر، الذي كان قد انشقّ قبل الذيب.. إضافة إلى ظهور أسماء كثيرة أخرى، أمّا أحمد فكان لا يزال مقعدًا في فراشه إثر إصابته، ينتظر التئام جرحه، من أجل وضع جبيرة على ساقه المكسور، كما كان يشتغل مع روز لإنجاز بعضٍ من مشروع يحيى عن طريق السكاي بي، وإلى جانب هذا كان يكتب في الفكر السياسيّ وفيما يشبه التخييل السيري، محاولًا توثيق مجريات أيام الثورة.

كتب مقالات، ونشرها في كثير من المواقع الإلكترونية والمجلات، وهو ما يزال شبه مقعد، ومنها ما وثّقه عن جنازة الشهيد عمر الحمصيّ في جوبر، حينما تحولّت إلى مظاهرة عارمة، ولم يكن الناس قد استخدموا السلاح بعدُ، وكانت هتافاتهم تدلّ على معرفتهم ما يريدون، ووعيهم بحقيقة طبيعة السلطة الساديّة والمتغوّلة، كان يدوّن هتافات قيلت في جوبر: "بالروح بالدم نفديك يا شهيد" و"اللي بيقتل شعبو خائن" و الشعب يريد إسقاط النظام"، وكتب أنّ غالبية الهتافات تضمنت كلمتي حرية وكرامة، التي دلّت على جنوح الاحتجاجات والمظاهرات نحو الكفاح المدنيّ، والحفاظ على السلم الأهلي والتعايش المشترك.

وكتب عن تنامي ظاهرة التسلّح؛ إثر اشتباكات حصلت في أطراف المدينة قبل دخول الثورة في شهرها الثالث – وفق ما أخبره أبو جاسم – حيث وقعت اشتباكات بين أفراد الجيش السوريّ في إحدى الثُكنات؛

نتيجة إطلاق ضـــابط الرصـــاص على مجنّد رفض قتل المتظاهرين، فكثرت الانشـــقاقات عن الجيش، وبدأ يتواجد السلاح بين أيدي الأهالي، بالأخصّ؛ أنّ الشباب يشترون السلاح من ضباطٍ في الجيش السوريّ.

وعلى الرغم من تحذيرات الكثير من شـيوخ سـقبا وكهولها من اسـتخدام السـلاح، إلّا أنّ الشـباب كانوا يتوسّلون السماسرة لشراء القواذف والبنادق والمسدسات والقناصات والذخائر وتخزينها.

ثمّ نجح شباب الغوطة بالتصدّي لميليشيات السلطة في بعض قرى الغوطة وبلداتها، إلى أن بدأت تتشكل مجموعات مسلّحة، بعدما أخرجت السلطات الأمنيّة منذ الشهر الثالث من عمر الثورة التكفيريين؛ الذين كانوا معتقلين في سجونها، ومنهم زهران علوش الذي أصبح على رأس سرية الإسلام في دوما وحسان عبود وأحمد الشيخ وغيرهم؛ إذ تعدّى عدد الذي أفرج عنهم الألف وخمسمئة سلفي.

وتابع أحمد كتاباته عن انتشـــار التســـليح في ريف دمشـــق، وعن تكوين مجموعات حماية داخل المدن والبلدات والقرى، وتمكّنت من طرد ميليشيات السلطة والقضاء على بعض الشبيحة المحلّيين.

ثمّ دخل أبو محمد الجولاني مع بضـــعة تكفيريين من العراق، وعقدوا لقاءات واتفاقات مع الفصـــائل الإسـلاميّة التي تشـكّلت، إلى أن بدأ يتسـرّب؛ أنّ مجموعاتهم جاءت لدعم جهاد أهل الشـام ضـد السـلطة الباغيّة، وذكر أحمد شهادات من شباب الغوطة على ضلوع الجولانيّ ومعه علوش وأحمد عيسى وأحمد الشيخ في اغتيال خيرة شباب الثورة، وكثيرًا ما اتّهموا بالارتباط مع أجهزة المخابرات السوريّة.

لم تكن إصـابة أحمد بسيطة كما توهّم بداية، فقد كان كسـرًا قد حدث في السـاق، مع جرح عميق، وبقيت رجله تؤلمه شـــهورًا، وهو قعيد فراشـــه، وقد تفاقمت آثار الكســـر والجرح لقلة العناية الطبيّة، وإن كان يتابع الأخبار عن طريق النت، ويتابع مجريات الثورة وأحداثها، إلّا أنّ أكثر ما كان يشـــتغل عليه هو توثيق وقائع الثورة وفاعلياتها، وكان يعدّ ملفات يحيى وبحوثه جزءًا من تداعيات الثورة في أحد وجوهها، وذلك اتفاقًا مع روز؛ التي لم تترك يومًا يمرّ من دون أن تحادثه على السكاي بي تقريبًا.

***

قبيل اشـــتداد المعارك على جبهة ســـقبا، نُقل أحمد إلى مكان آمن يقع بين زبدين والمليحة، وإن كانت قذائف ميليشـيات النظام وجيشـه وحممه الناريّة تتساقط بكثافة على المنطقة؛ التي وجد على أرضـها، إلّا أنّها كانت أرحم من جبهات القتال المشتعلة في سقبا وجسرين، حيث المواجهات الخطيرة بين الميليشيات المتقاتلة متواترة الاتساع على الأرض، التي لا تسمح بأدنى أمان، لمن بقي في المنطقة.

تحسّنت صـحته وأصـبح في إمكانه التحرّك بمساعدة آخر، فالتقى أميرًا من قادة الفصـائل العسكريّة، كان رجلًا أردنيًّا يرتدي جلبابًا قصيرًا، ويضـع قلنسوة، وقد أرخى لحيته وشاربه من دون تشذيب أو تنظيف، ليبدو

منظره مخيفًا، وكان هذا الرجل يبشّـر أحمد بالنصـر المُبين؛ ويدعو للشـهداء أن يخلّدوا في الجنّة الموعودة المملوءة بالحور العين اللواتي يقلن: خُبّئنا لأزواج كرام، وسأله أحمد:

- وهل أنت من الأزواج الكرام يا شيخ؟
- نسأل الله أن يكرمنا بهنّ.
- سمع الله نداءكم يا أمير.
- نحن وإيّاكم إن شاء الله...
- لا.. يا شيخ أنا أحبّ الحياة، لا أريد الموت...

اختلف أحمد مع الأمير الأردنيّ على توجّهات الثورة، التي يجب أن تتسم بالسلميّة والكفاح المدنيّ، فبينما قال الأمير:

- والله العظيم لن نرجع إلى بيوتنا، قبل أن نقتل أولئك الكفرة الأنجاس، واستدلّ بالآية القرآنيّة: {واقتلوهم حيث ثقفتوهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشدّ من القتل} ردّ عليه أحمد:

- ولكنّك يا أمير أنت تسهم بإشعال نار الفتنة الطائفيّة التي يسعى إليها نظام الحكم!ةاستدلّ بـــ: "... والفتنة أشدّ من القتل"

وعرف أحمد أنّ ذلك الأمير يفكّر بشـــكل معاكس لطريقة تفكيره كليًّا، فأحمد يريد دولة مدنية بينما الآخر يريدها إسلامية، وبمقابل النظام الديمقراطي يريد الأخ نظام الشورى، وليس مهمًا بالنسبة له بناء نظام الدولة الحديثة، بل كان مقتنعًا بنظام الأمارة؛ الذي يتبع دار الخلافة الإســـلاميّة في العراق، وحماية الأقليّات تقترن بدفعهم الجزية لأصحاب الرسائل من يهود ومسيحية، ولابد من قتل الكفار وأوّلهم: طوائف الشيعة، العلويون والدروز والإسماعيلية وأهل الرافضة من الشيعة الإمامية الموسوية، واستدلّ بفتاوى ابن تيميه، عارضه أحمد وقدّم له شرحًا عن ظروف العهد المملوكي التاريخية لتلك الفتاوى قائلًا:

- ابن تيميه أصـــدر فتاويه على من تعاون مع الصـــليبيين والتتار الذين هزمتهم الدولة المملوكية زمن كان فيه شيخ الإسلام منذ اكثر من سبعة قرون، وابن تيميه فاوض أولئك الطوائف قبل إرسال جيش المماليك عام 705هـ وإنجاز الانتصـــار على المتنفّذين والزعماء منهم، ومن الثابت أنّ كثيرًا منهم ســـار على خطى الإسـلام، على غير ما أراده زعماؤهم العشـائريون.. المهم بالأمر أن فتاوي تيميه جاءت لظروف مغايرة تمامًا لمعطيات الواقع الحاليّ، إن تطبيق فتاويه بحذافيرها من دون اتباع منهجه – الذي لم يبق من كل فكره ونتاجه الاجتهاديّ سوى ذاك المنهج المتماسك – هو من أخطر الأخطار يا شيخ، فتاويه غير صالحة لأيامنا...

قبل أن يكمل أحمد، أشار الشيخ الأردني بيده أن يسكت، ووضع يده على رقبته، ورسم أمام ناظريه إشارة الذبح، ورمقه بنظرة كراهية، واستدار على عقبيه وغادر...

- .... صمت أحمد، وتساءل: "تُرى من أرسل هذه العاهة للثورة؟ كيف يستطيع الثوّار التخلص من زبالة ألقيت بينهم؟" حزن كثيرًا على مآلات الثورة، وفكّر أن يريح أعصابه قليلًا بالنوم، استعدادًا لاستئناف الكتابة في ملف بدأه يحيى عن هؤلاء التكفيريين الذين أوجدتهم المخابرات المركزية منذ 1979م، وأشركت معها أجهزة مخابراتية إقليمية في توجيه أفكارهم السوداء وسلوكهم الإرهابي، ولكن.. لم تمهله سيّارة وصلت وتوقّفت أمام مكان إقامته سوى دقائق؛ إذ اعتقله ملثمون، ووضعوه في غرفة تحت الأرض داخل بيت عربيّ في المليحة القديمة، حقّقوا معه، بصفته ملحدًا، ثمّ شرعوا يعلّمونه الصلاة، ويحفّظونه القرآن، وحينما كان يمتنع كانوا يخضعونه لأقصى أنواع التعذيب، التي لا تقلّ إجرامًا عن أساليب فروع مخابرات السلطة، بل هي نفسها التي مورست بحقّه في سجن تدمر قبل نحو ربع قرن.

شهد أحمد على جلد شباب اتهموا بالخروج عن طاعة الأمير، وترك الصلاة، وشرب الخمر والسجائر، كما التقى مع شاب كان يؤمّن انشقاق الجنود على جيش النظام، حيث وضعوه بتهمة تواصله مع مخابرات السلطة، وبعد أن تغيّب أيّامًا عرف أنّهم أعدموه، فتيقّن – حينئذٍ – أن من يعدم شباب الثورة ليس ميليشيات السلطة الطائفيّة وجيشها الفئوي ومخابراتها فحسب، بل تلبس السلطة ميليشيات التكفير والجهاديين أقنعة بشعة، ليقومون بمهام القتل بطرق أخرى، وبالوكالة عنها.

لم يعد بإمكان أحمد الاتصال بروز؛ إذ صادروا الموبايل واللاب توب وحاجاته، ولولا تواجد أحد شباب المليحة بين الذين اعتقلوه، ومعرفته بأحمد في مهجع الموت بالمخابرات العسكرية سابقًا، التي أخفاها عن الأمير وجماعته بذكاء وحنكة، لكان قد فقد ما كان قد صنّفه ووثّقه من حراك الثورة، إضافة إلى ملفات يحيى؛ إذ استطاع ذلك الشاب الألمعيّ، المعروف بعمرو أن يخفي اللاب توب والموبايل ومقتنيات أحمد، وحافظ عليها بعيدًا عن أيدي شيوخ التكفير، بغفلة من الأمير الأردنيّ، ومن دون أن يعلم أحمد، بل تجاهله ذاك الشاب، وشرع في سعيه لإخراجه بالخفاء.

بقي أحمد أكثر من شهر معتقلًا لدى التكفيريين، حتّى استطاع شباب من المليحة أن يفرجوا عنه، ثمّ اصطحبوه معهم إلى مواقعهم في بساتين الغوطة الممتدة حتّى حرستا، رغمًا عن أنف ذاك الشيخ الكريه، وحين تمكّن من الاتصال، تواصل مع روز، وأخبرها بما جرى معه، وطلب منها إخبار أخيه عمر، بقي أيّامًا بين شباب الغوطة، ولاحظ أنّ بعضهم يطلق بين الفينة والأخرى مدافع الهاون تّجاه مراكز السلطة والمخابرات، وسط اعتراض الأكثرية، ثمّ أنّه وثّق قصف الجيش الحرّ فرع مخابرات القوى الجويّة في حرستا، وكان كثيرًا ما يحاول أن يخفف من جموح شباب يقاتلون بعزيمة راسخة، ولكن من خارج بنية الثورة السوريّة ومنظومتها السلوكية والمعرفية والقيمية، التي عرفها أحمد في شهورها الأولى، بقيت رجله تؤلمه، وهو يتنقّل من موقع لآخر، منعًا لقيام التكفيريين من اعتقاله مجدّدًا، إلى أن استطاع أخوه عمر التواصل مع شباب من

تنسيقية المليحة سرًّا؛ واتفق معهم.. إلى أن هرّبوه عن طريق البساتين عبر حقول الشمس إلى بساتين جرمانا، ومنها إلى بستانهم في أمّ الإبر، استلمه عمر، وذهب به إلى الدّار الكبيرة سرًّا.

80

استيقظَ أحمدُ، وظنّ أنّه عاشَ حلمًا جميلًا مع كوثر، ثمّ انقلبَ على جنبِه الآخر، واستأنف النوم من جديد، ليتابع الحلم معها، إلّا أنّه دخل في كابوس اجترّ فيه أذياتِ الذيب ابن شطمة لأسرته ولأهل أم الإبر، حتّى بدتْ له صورَ ماضيه أكثر وضوحًا.. دوره في وفاة أخويه إبراهيم وسليمان، انتحار أخته خديجة، إهانته لأبيه فخري قبل نحو أربعة عقود، وأنّات جدته نعيمة وعمّته وأمّه في أيام الذلّ والقهر؛ التي عاشها أوجاعًا في معتقله الذي دام أكثر من 15 عامًا.. كلّ ذلك كان يحرّك في داخله غضبًا مستديمًا وهذيانًا بالانتقام.. وعندما اخترقت أذنيه غرغرات المحكوم عليهم بالإعدام في سجن تدمر العسكريّ المستقرّة في لاوعيه؛ سيطر عليه الكابوس، رماه الذيب في بئر داخل مؤتمر القاهرة، فصرخ مستغيثًا لإخراجه، سمعته كوثر، وأيقظته من براثن كابوسه.

سقته كأسًا من الماء، وجلست بجانبه متودّدة، تحسّست شعر رأسه ووجهه، ضحك لها:

- والله ظننت نفسي أحيا معك حلمًا وليس واقعًا؛ كنتِ معي في الحلم حتّى استيقظت!
- يا خائن، أأنا من أدخلتك في الكابوس الذي جعلك تصرخ كالمذبوح؟!
- لا يا كوثر، بعد أن حلمت بقامتك الممشوقة، التي أعادت لي الروح، جاء الذيب ابن شطمة ورماني في بئر عميق، وصرت أصرخ مستنجدًا.. سألها عن الساعة، وحينما عرف أنّ صلاة الظهر انقضت، وصلاة العصر اقترب موعدها، قال لها:
- والله منذ وجودي هنا، هذه أول مرة أنام فيها هذا القدر من الساعات.

ثمّ ارتدى ملابسه، وخرج معها إلى الغرفة الأخرى، فاستقبلته أم خديجة، وجلبت له حصته من فطور الفول، وطلب بصلة وكمية إضافية من الثوم، ثمّ أكل كما لم يأكل منذ أسابيع.

كانت خديجة تنظر إليه معجبة بطريقة أكله بيديه مهملًا الملعقة والشوكة، وصفقت له، حين كسر البصلة بضربة من قبضة يده، وهتفت: "يحيا من تعلّم من الحماصنة كيف يأكل".

ثمّ شرع في شرب كأس من الشايّ المنعنع، طالبًا المزيد منه، كما كان قد اطمأنّ من كوثر أنّ المبلغ الذي أرسله إليه أخوه عمر كبيرًا، يكفي لدفع قيمة إيجار الشقة لثلاثة أشهر قادمة، وإيجار غرفة السطح للأسرة الأخرى، ويبقى معه مبلغًا كافيًا ليتقاسمه مع كوثر، ويوصله إلى مصر والبقاء فيها فترة معقولة.

لم ينسَ أحمد أن يشيد بنورا جنبلاط، حين أخبر كوثر وخديجة، أنّها قدّمت كمية من ملابس الأطفال وألعاب وأحذية للمهجّرين السوريين في الخيام قبيل عيد الفطر.. وأشرف أحمد على توزيعها مع ثلّة من شباب

الثورة؛ الذين آثروا البقاء بين أهاليهم؛ وامتنعوا عن السفر؛ الذي أتيح لهم نحو الدول المجاورة وأوروبا الغربيّة؛ إذ كانت تزداد التسهيلات للوصول إلى الدول الأوروبية؛ الشارعة حكوماتها في منح الشباب السوريّ حق اللجوء؛ للاستحواذ على طاقاتهم الخلّاقة؛ مستهدفة مستقبل سوريا؛ عن طريق تهجير شبابها الناجين من الموت أو الاعتقال أو التغييب.

أثنى أحمد على نورا جنبلاط، وأوصاهما أن تتواصلا معها، وأعطاهما رقم هاتفها، ودلّهما على طرق الوصول إليها.

لم ينس أحمد أيامه الأخيرة في أمّ الإبر، بل ألحّت ذاكرته أن يتمسّك بوقائعها، كان يستعيدها، ويحكي لكوثر وخديجة؛ مسوّغًا خروجه الاضطراريّ من سوريا.

اَلرَّبُّ إِلَهٌ غَيُورٌ وَمُنْتَقِمٌ.. الرَّبُّ مُنْتَقِمٌ وَذُو سَخَطٍ

(الكتاب المقدّس)

وصل أحمد إلى الدّار الكبيرة في سريّة تامّة عن أعين ميليشيات سلطة النظام؛ بعد غياب دام أكثر من خمسة شهور في مناطق الغوطة المحرّرة، ومن ضمنها بضعة أسابيع كان معتقلًا لدى سجون التكفيريين.. استقلبته أمّه باكيّة، ثمّ بكى كثيرًا على أحوالها الصحيّة المتدهورة، وعلى الدّار الكبيرة التي هجرها أهلها أو ماتوا، سوى من عمر وسارة وأمّ سليمان.

أطفأ عمر النور في داخل الدّار، وأغلق بوابتها؛ مصمّمًا ألّا يفتح الباب لأي طارق، أدخله إلى الحمّام، وأزال عنه الأوساخ المتراكمة، والحشرات التي علقت بجسده ورأسه، وأكثر ما أحزن عمر إهماله لإصابته في فخذ رجله، حتّى بدا على الجرح مظاهر التهاب، إضافة إلى عرج واضح من رجله؛ نتيجة الكسر الذي التأم من غير تثبيت.

غيّر ملابسه، وارتدى ثياب النوم، ووضع رأسه في حضن أمّه ونام، ثم تدبّر عمر أمر إحضار طبيب ليعالجه، عن طريق شباب تنسيقية حي أم الإبر، الذين سرعان ما لبّوا الطلب، فأيقظوه وسلّموا عليه.

عاين الطبيب أحوال أحمد، وضمّد جرح فخذه، وربطه برباط طبّي، تاركًا له مجالًا للتحرّك، وطلب منه ألّا يزيل الرباط عنه قبل مرور شهرين، وأعطاه أدوية ليتجرّعها.

بعد أيام قليلة من مكوث أحمد في الدّار، أبلغ شبابُ التنسيقية عمرَ بضرورة خروجه إلى منطقة محررة حالًا، لأنّهم لاحظوا أنّ المخابرات، أرسلوا من يحفر قرب الدّار الكبيرة حفرًا عديدة بحجة تسليك مياه المجارير، وربّما كان هدفهم البحث عن أنفاق تصل الدار الكبيرة بالمناطق المحررة؛ التي لا تبعد أكثر من مئات الأمتار، كما شكّ أحد الشباب أنّهم يبحثون عنه.

اســـتعدّ أحمد للرحيل إلى الزبدانيّ، وقبل خروجه بليلة واحدة، ودّع الدار ومن بقيّ من أهلها، وشـــباب التنسـيقية.. احتضـنته أمّه كطفل، وبكت لحاله؛ إذ كان مضـطربًا، بعدما أشـاع الشـبيحة والمخابرات وحزب السلطة أنّ ابنه يحيى، انضمّ إلى الجيش الحر بعد ما خرج من فرع المخابرات الجويّة، وعلى الرغم من أنّه لم يصدّق أحدٌ من الناس هذه الكذبة؛ التي أشـاعوها، إلّا أنّ أحمد كان يتأثّر كثيرًا على ما وصـل إليه حاله مع ابنه وأسرته ورفاقه في الثورة؛ إذ لم يكن بمستطاعه أن ينسى مآسي عاشـها مع الشائعات التي مسّت شرف عائلته، ومنها: أنّه اعتقل مع ابنه يحيى في بيت دعارة، وحملتهما دورية المخابرات عاريّين، ومن أخطر تلك الأسـاليب وأحطّها أن د. نبيه منزوعيا أخرج صـورًا وتسـجيلًا صـوتيًّا لمطلقته ميسـون، وهي تطلب منه إجراء عملية إجهاض سـرًّا، وذلك زمن كان أحمد في السـجن.. كانوا يختلقون الإسـاءة تلو الإسـاءة بطرق مؤذيّة له ولأسرته، قاصدين إنهاء فاعليته الاجتماعية والسياسية.

أما أحمد فأمسـى منتظرًا شباب الزبداني؛ لنقله من الدّار وَفق خطّة اتفقوا عليها مع عمر، ثمّ استلقى على ســريره ليلًا محاولًا النوم، وبالفعل دخل في غفوة، ولكنّه ما هي دقائق حتّى صــرخ صــرخة اخترقت جدران الغرفة، إذ انقضّ عليه غراب كبير، وشـرع ينقر عينيه، ثم أكل من رأسـه، وحمله معه إلى أقاصـي الأرض، وضعه على شاطىء جزيرة مجهولة، فاستيقظ وصورة وجه ابنه يحيى أمامه مشوّهة، لم يستطع القيام، فجرذان الجزيرة حاوطته، وبات كأنّه مغيّبٌ، ولم يعرف لماذا وكيف سـيطر على كابوسـه صـورتي اثنين من شـباب المركز مرّ على اعتقالهما أشـهرًا عديدة، ولم يكن أحد يعرف مصـيرهما.. خلال لحظات وصـل أخوه عمر، وانقضّ عليه، وأيقظه، هدهده كمن يهدهد طفلًا، ثمّ لاحظ بكاء أمّه الصـــامت وهي على ســـريرها، فارتمى جابنها، وقرّب رأسه من صدرها محاولًا الاختباء من أهوال ما شهد عليه.. همست في أذنه:

- ما بك يا قلبي؟ ثمّ هدهدت له، ومسّـــدت على جبينه، قرأت بعض الآيات القرآنيّة بنفســـها، إلى أن استكان في حضنها، ونام حتّى الصباح.

أيقظه عمر، وأبلغه وصــــول روز إلى الدّار الكبيرة.. فاســـتعدّ وخرج لملاقاتها.. ولحظة التقت العيون بالعيون، فاضت الدموع المُقل، وأنشدا لحنًا حزينًا على إيقاع نشيجها، واستمرّا متعانقين فترة، خرج في أثنائها عمر، وهو يغالب البكاء، ثمّ دخلت زوجته ســـارة، التي ظهر عليها آثار الحمل.. بكت بحرقة، وهي تقترب منهما ملتصقة بجسديهما، لم يستطع أحدٌ منهم التلفّظ بكلمة واحدة، إلى أن دخل عمر، ودعاهم إلى الإفطار، لاقتراب موعد وصول شباب التنسيقية لنقله إلى منطقة محرّرة.

كانوا على مائدة الإفطار، حين سمع أحمد ميكرفون جامع أم الإبر، فطلب من الجميع الصمت، حتّى تأكّد من أنّهم ينعون أحد شباب المركز المعتقل، الذي استحضره قبل ليلة سابقة إثر حلم مخيف.. لم يصدّق أحمد الخبر، وصار يهذي، حتّى ذهب عمر، واستطلع الخبر من أهله المفجوعين، وعاد ليخبرهم:

- أبلغوا أهله عن موته مساء أمس، وأحضروا جثته صباحًا، وقالوا: إنّ الجيش الحرّ هو من اغتاله؛ وعندما حاول أهله فتح التابوت، منعوهم، وأمروا بدفنه فورًا، سيطر أحمد على غضبه، وغسل وجهه، وقال:

- العمر لكم، يا جماعة، دعونا نذهب إلى أهله؛ لنقدّم التعازي، وشرع في تجهيز نفسه، ولكنّ الجميع أصرّوا على بقائه متواريًّا:

- يا أحمد لن أسمح لك بالذهاب، لأنّ المخابرات محاصرة الدّار، والشبيحة يتربّصون لك، ويجاهرون لإيذائك، إن لم يكن اعتقالك، أو – لا سمح الله – قتلك... فقال أحمد

- اصبر يا عمر! نحن لا نعرف سوى الحراك السلميّ، والله لولا خوفي على يحيى؛ لكنت واجهت هؤلاء الأنجاس، ثم قالت روز:

- الله يحميه، لو استطعنا معرفة خبر عنه، والله.. أنا خائفة عليه كثيرًا، نواياهم سيئة تّجاهه، ولكن يا أحمد كن مع الله ولا تبالي، ولا تفكرّ بطرائق غلّهم وحقدهم، وتأكّد أنّ الله معنا: {وَلَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} لأنّ إله المسلمين لا يسخط ولا ينتقم ولا يكره عباده، كما يقول كتاب التوراة.

- كلّما توصلت لواسطة عن طريق سماسرتهم، ووعدتهم أن يأخذوا ما يطلبونه، يقبلون، بداية، ثمّ يتراجعون عن وعودهم، قال عمر متأسّفًا، ولكن سارة ردّت بعزيمة قويّة:

- الله يحمي يحيى ومحمد وشباب سوريا كلّهم، تفاءلوا يا جماعة، الله معنا.. لا تخافوا، الثورة تنتصر في نفوس السوريين... ولابدّ من الخلاص.

دعت أمّ سليمان، وهي على سريرها، بصوتها الواهن ربّها أن يحفظ شباب سوريا، وأبكت جميع من كان في الجلسة، وهيّ تهذي باسم يحيى، ثمّ قالت لأحمد:

- "برضى الله عليك ورضاي، توكّل على الله، وسافر".

اتفق أحمد مع روز أن يكمل العمل بمشروع يحيى في الخارج، وأن ينسّق معها عن طريق السكايب والإيميل بأسماء مستعارة وبحسابات متعددة، وأنه سيبقى على تواصل معها عبر وسائط الاتصال الاجتماعيّ.

***

في أثناء تشييع الشاب، تسلّل أحمد خارج أم الإبر بمساعدة شباب التنسيقية، إلى أن التقى مع شباب من الزبداني، على طريق مطار دمشق الدوليّ، أقلّوه بسيارتهم، وتوجّهوا معه إلى بلدتهم؛ من أجل أن يغادر إلى لبنان.

في الطريق من دمشق إلى الزبداني، لاحظ وجود سلاح في السيّارة، وبندقية روسية مرميّة على المقعد الخلفيّ، استجوبهم عنه، فأجاب أحدهم:

- هذا النظام لن يرحل إلّا بالسلاح، مئات الشباب إلى الآن ماتوا من الزبداني ومحيطها ومئات الألوف استشهدوا على مستوى سوريا، أو غيبوا، أو اعتقلوا، ليس أمامنا إلّا الجهاد؛ للتخلّص من هذا النظام العاهر.

- ولكن هذا يخالف طبيعة الثورة السلميّة، كما أنّه؛ مهما تسلّحتم، فلن تصلوا إلى عُشر ما عند النظام من سلاح، ثمّ كيف تحملون السلاح على المكشوف؟

- والله يا أستاذ ليس أمامنا إلّا الجهاد المسلّح، لأنّهم يلاحقوننا للالتحاق بجيش السلطة وميليشياتهم الطائفية، ويلزموننا بقتل أهالينا.. وضعتنا السلطة أمام خيارين، إما نقتل أهلنا، وإمّا نحميهم من الموت.. فما رأيك أنت؟ أن نجاهد، ونشتري رضا الله ومحبّته، ونحمي أهلنا ووطننا، ونحافظ على كرامتنا وحريتنا بدمائنا؛ ونستشهد في سبيل الله لنصل إلى جنان الخلد؟ أم نقتل أهلنا، ونموت أمام أحقاد نظام زرعته إسرائيل وإيران وأمريكا، حتّى بات مخرزًا في عيوننا، وسمًّا قاتلًا في جسد وطننا؟

- وما هذا السلاح المرمي على المكشوف؟ ألا تخافون من التفتيش؟

- نحن اشترينا طريق الزبداني من ضابط في فرع أمن الدولة، لا أحد يتجرأ ويفتّش سياراتنا، ثمّ سأله أحدهم:

- طمّنا عن ابنك يحيى أين أصبح؟ أنا أعرف معتقلًا، تركه في فرع مخابرات الجوية، منذ أشهر عدة، ألا يزال هناك؟

- والله يا شباب لا خبر عن يحيى، أشاعوا: أنهم أطلقوا سراحه، وأنّه التحق مع شبابٍ تعرّف إليهم في المعتقل، وصار مقاتلًا في الجيش الحرّ.

- إياك أن تصدّق دعاياتهم يا عم، حفظ الله يحيى من كلّ سوء، لكنّهم عندما يريدون تصفيّة أحد المعتقلين، ولاسيّما فرع مخابرات القوى الجوية، يسرّبون مثل هذه الأخبار، الله يحميه بجاه سيدي الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

- والله يا شباب، لم يصدقهم أحدٌ، لكن الغريق يتعلق بقشّة، والله إذا أصاب يحيى أيّ مكروه، سأموت كمدًا.

وصل إلى الزبداني بعد العاشرة ليلًا، التقى مع شباب التنسيقية، استذكروا زيارته السابقة مع منتهى الأطرش، ثمّ تناول معهم طعامًا، وأودعوه شقّة؛ ريثما تتعافى رجله.

حين شعر بتحسّن في فخذ رجله، فكّ اللفافة عن الجرح، وبدأ يعدّ نفسه للرحيل إلى لبنان.. أصبح شباب الزبدانيّ يوصونه بعدم نسيانهم، وكلّفوه بالتحدّث باسمهم في الخارج، وخصّصوا المجلس الوطنيّ في تركيا، الذي يرسل الفتات من المساعدات؛ التي يتلقاها من الأصدقاء الداعمين على ما ذكروا له.

أخبرهم عن مؤتمر لتجمّع جديد في القاهرة، التقى مع ممثليه على السكايب، وحينما ذكر الأشقر وهواري والصفدي وفياض ولبواني...، حذّروه منهم، وطلبوا منه ألّا يتعاون معهم، لأنّهم عرفوا عن تعاونهم مع مخابرات إيران وموساد إسرائيل؛ لتأجيج نار الصراع الطائفيّ في سوريا.. بالعناق ودموع الفراق والأسى ودّع أحمد شباب التنسيقية، ثمّ اتّجه مع ثلاثة شباب إلى الحدود اللبنانيّة المتاخمة للزبداني.

في منطقة يسيطر عليها الثوار، وحين وصولهم ركنوا سيارتهم تحت ظلال شجرة أسفل سفح الجبل في منطقة يسيطر عليها الثوّار، أوصوه بأن يبقى حذرًا، واتفقوا معه على إشارة من بطارية بيل زودوه به، إذا ما تعرّض لأيّ موقف غير متوقّع، وطمأنوه أنّ عشرات من الشباب مستنفرون لحمايته إلى حين وصوله؛ وتسليمه لسيّارة من الحزب التقدّميّ الاشتراكيّ في لبنان، وشدّد أحدهم:

- حينما تمرّ بخيام جيش (أبو شحاطة)، لا تخف.. لن يعترضك أحد، هم يغضّون النظر عن كلّ الذين يخرجون عبر هذه الدرب.. على كلّ نحن مراقبون سيرك عن كثب.

سار أمامه شابٌّ، ولحق أحمد به، ولم يعد يرى أحدًا من الآخرين، ثمّ سار لوحده وفق ما أرشدوه، وتوارى الجميع عن عينيه، ولكنّه كان يشعر بوجودهم معه، مرّ على مواقع الجيش السوري، وسار متاخمًا لخيامهم، ورأى حراساتهم من دون أن يعترض دربه أحدٌ، فظنّ حينها أن هناك تواطؤًا بين عناصر من جيش السلطة وشباب الثورة والأهالي غير معلن، وفي منتصف الطريق شعر بعودة آلام جرح فخذه، ولكنّه تحمّله، وغذّ في السير متناسيًّا ألمه.

81

كان مسترسلًا بكلامه؛ حين وصله هاتفٌ من أمن الحزب التقدميّ، أبلغوه فيه أنْ يستعدّ للمغادرة، وحدّدوا له موعدًا ليقلّونه بسيارة للمطار، اتقاء شرّ عناصر حزب الله المنتشرين على الطرقات، ثمّ ذكّرهم بوجود أسر سوريّة محتاجة مساعدتهم وإغاثتهم، فردّ عليه الطرف الآخر على الهاتف مداعبًا:

- أنت اهتمّ بنفسك، لتصل آمنًا إلى مصر، والأسر السوريّة لهم الله لا ينساهم.

كان الجميع صامتًا، حينما سُمع صوت خديجة، طالبة الثانويّ الحمصيّة:

- أستاذ تركت كلّ العالم، ولم تجد غير الضابط الحمصي تطعنه بكرشه، والله ما معك حق يا أستاذ، هذا الضابط هو الحمصي الوحيد الذي انشقّ عن النظام.. ما رأيك آخذ بالثأر الآن؟

ضحك الجميع، وسط تأنيب أمّها، التي كانت تبكي بصمت، فقالت لها وهي تشهق:

- قصف الله عمرك يا خديجة، ليتني أخرج في جنازتك عن قريب.

ضحك أحمد لخديجة وقال لها ممازحًا:

- جرّبي تأخذين بالثأر يا ديجة، لكن بحربة عسكرية؛ مثلما واجهني بها الضابط الحمصي.

- أنت يا أستاذ عظيم، علّمتني في أثناء أسبوعين أكثر مما تعلّمته في حياتي كلّها، فتوسطت الجدّة – التي اشتدّ عليها الزهايمر– الغرفة، وبدت كأنّها ترقص قائلة:

- أريد أن أصعد إلى السطح.. السطح.. السطح.. أريد غزل بنات.. غزل بنات.. الآن، غزل بنات.. وصارت تحاكي طفولتها وسط حلقة شكّلها المقيمون في الشقّة، ذهل أحمد من رغبتها في الصعود إلى السطح، وقال لها:

- مع من تريدين الصعود إلى السطح، فقالت له:

- معك.. واقتربت منه، وأمسكت ذراعه، تخلّص منها، وتوارى خلف كوثر خوفًا من إمساكها بجسده، أمّا العجوز الخرِفة، فصارت ترقص وحيدة وسط ضحك الجميع، مكرّرة: "غزل البنات ع السطح، غزل البنات، السطح السطح السطح".

***

اتصل أحمد بروز، وأخبرها عن انتقاله إلى مصر، وكذا فعل مع سلمى وهيام، وأوصاهما أن تخبرا عمر وأمّه .

وسلّم نقودًا لكوثر بعد ما اتفق معها على توزيعها بين الأسرتين، وأعطى شباب التنسيقية مبلغًا، وترك له ما يوصله إلى مصر ويبقيه فترة، ريثما يصله مبلغ آخر من عمر.. احتضنها بشدّة، وحشر رأسه في صدر كوثر، وطلب منها أن تسامحه:

- عن أيّ شيء أسامحك يا أحمد، ما الذي آذيتني به يا غالي؟
- لأنني أشعر بخيانتي من جديد، وأتركك لقدرك مرتحلًا، كما فعلت مع ثريّا وروح ماري...
- إذا كانت هذه هي المشكلة التي تبكيك، فأنا مستعدة أن ألحق بك بعد أن تستقرّ.
- الآن، ابقِ في غرفتي يا كوثر، وسأتصل بك يوميًّا لأطلعك على ما يجري معي في مصر، وأطمئن عليكم هنا.

دعت كوثر له تسهيل أموره، ثمّ شرع في إعداد حاجاته الأساسيّة، وضعها في محفظتين، وتأكّد من محتويات المحفظة التي سلّمه إيّاها عمر ومن أوراق يحيى، وترك الغرفة بما فيها لكوثر، وطلب منها أن تدعو خديجة للمنامة معها بين الفينة والأخرى.

سهر مع كوثر والأسرتين، وكان يحكي لهم كيف وصل إلى لبنان، وكيف كاد يتحوّل مجرمًا؛ بعدما طعن الضابط المنشق عمر الخطيب، ولم يكمل حديثه؛ ففي أثناء سهرتهم التي تعدت منتصف الليل، وصلت سيارة أمن الحزب التقدميّ، استقبلهم في غرفته، وسلّموه ظرفًا مرسلًا من نورا الشراباتي زوجة وليد جنبلاط؛ وحينما فتحه وجد أربعة آلاف من الدولارات، سلّمها كاملة لشباب التنسيقية، الذين حضروا لوداعه أمام كوثر وأم خديجة والآخرين، وطلب منهم دعواتهم؛ ليمنحه قوة لمواجهة أولئك المتربعين على سدّة قرار المعارضة السورية؛ التي ضمّت في صفوفها إمعات مرتهنة لإحدى الميليشيات المتقاتلة، بل مُذعنين لما تطلبه منهم دولٌ خارجيّة.. وحينما سأله مندوب الحزب التقدميّ عن موقع نظام الحكم من الميليشيات، أجابه:

- لم يبق في سوريا سلطة سياسية تعبّر عن دولة، بل تحوّلت مع جيشها الطائفيّ وشبيحتها إلى ميليشيا أكبر من داعش والنصرة، ويبدو أن الدولة السورية على درب الفشل والتفتّت.

قبل أن تصل السيارة، التي ستقلّه إلى مطار رفيق الحريري ببيروت، سألته خديجة عن قصته مع الضابط عمر الخطيب، فقال لها:

- أنت دائمًا تعذبيني يا ديجة، والله.. أتعذب كثيرًا؛ حينما أتذكر ما حدث معي في تلك الليلة الحزينة.
- نحن نحب أن تتعذب أستاذ أحمد، الشعب يريد سماع قصتك، لنودّعك وداعًا محترمًا.
- أنت تأمرين يا ديجة.

موتٌ في دروبِ التهجير، وأحلامٌ على شواطئ جديدة

(ثورة االربيع العربيّ)

على سفح جبل الزبدانيّ، كان أحمد يغذّ ليصل إلى الأراضي اللبنانية.. مرّ بجانب خيام تابعة للجيش السوريّ، وتوجّس من الصمت المخيّم على محيطها، وغضّ طرف حرّاسها على مروره.. ثمّ آنسه ضوء القمر حينًا، وانتظار ظهوره من خلف الغيوم أحيانًا.. كان أحمد يصعد الجبل شاخصًا نحو قمّته، ولكنّ عقله أضحى محرّكًا تدور آلاته بسرعة مبتعدة به نحو داخله؛ متوحّدًا مع ذكرياته، وسط تواطؤ الخيام وأضواء الليل الكسولة ومراصد الموت المخفيّة.. استحضرت ذاكرته أيام طفولته، إهانة أبيه وشتمه أمامه، واشمئزازه من ديدان الموت السوداء المرقّطة بالأصفر؛ التي كانت تنبثق من منخري الذيب ابن شطمة، وتساءل أين ذهب ذلك النتن بديدانه؛ حين ظهر على شاشات التلفزة بصفته قائدًا في صفوف المعارضة السوريّة؟

تذكّر رفاقه في بيدر كرة القدم، استعرضهم، وكم اندهش من موت أو تغييب نحو نصفهم على أيدي نظام السلطة في سجونه الرهيبة، والآخرون كانت أخبارهم غائبة في غياهب السفر والاعتقال، ولم يبق في أمّ الإبر سوى من دجّنته أجهزة الموت المخابراتية، تذكّر موفق الذي كان قد ارتضى أن يكون إمعة مع الذيب ومنزوعيا وحمود.

حطت ثريّا على ساحة ذاكرته، وأخذته نحو اغتيالات السلطة في السبعينيات متذكرًا الفاضل وجنبلاط، وأحداث الثمانينيات واغتيال المدن واعتقال شباب سوريا أو تهجيرهم أو إرسالهم إلى الموت، واجتياح جيش إسرائيل لبنان وحصاره بيروت وتدميرها؛ مقابل سكوت المجتمع الدوليّ عن تدمير جيش سلطة حافظ الأسد مدينة حماه.. استوقفته ثريّا وطالبته بجنينها الذي أجهضته، وحمّلته مسؤولية دمها الذي استباحته طائفيّة قذرة، بكى أحمد على سفوح جبل الزبداني في ليلته الأخيرة التي خرج فيها من سوريا، وشُحِن بطاقة غضبية جديدة، وازدادت آلام عظم فخذه عليه مع وصول ميسون إلى ذاكرته، ومعها أبو العزايم، الضبع في منزله، والداعر على منصّة بيت الدين، وحمود القواد وأبو السلم حمودة ذاك الفاسد الذي اعتمد عليه سالم أبو فرج الله بتأمين احتياجات حزبه ومصروفاته الماديّة.

حضرت صور أخته خديجة وأخويه إبراهيم وسليمان، فازداد قهرًا، واشتدتّ طاقة غضبه، لاسيّما حينما لاحت له صورة ابنه يحيى؛ طفلًا في أوساط أمّ الإبر الموبوءة، مرجّحًا أنّه تلقّى أذى أقرباء له في أثناء وجوده في السجن، فكانت تلتهب مشاعر الانتقام لديه، ويطلب من الله أن يدفع من اعتدى عليه نحوه، كان يتصوّر كيف سيغرز أصابعه في عنقه، كما فعل أبو هاني في بيت قوفا؛ عندما قتل أخاه وابنه؛ اللذين اعتديا على ابنه في غفلة منه، على ما سمعه من يحيى في سجنه.

صار يعتصم بصور سلمى وعمر ورام وسارة وكوثر وهيام ومروان، الذيْن يتناوبون على تهدئته مع رفاقه بالحراك، منتهى ود. سلمان والأستاذ منذر وكوثر، وشباب المركز، الشهداء منهم والمعتقلون والمهجّرون، كان يبكي كثيرًا في داخله، ولكنّه يتوقّف عن البكاء؛ حالما يتذكّر روز الشـــاميّة الجميلة وجدّتها ثلجة في حيّ القنوات، ويلوح أمام ناظريه بطن سـارة المنتفخ بانتظار ولادة جديدة، فيسـتبشـر خيرًا، ولكنّه يحزن على أبيها عبد الحليم وأخيها محمد المغيّب، إلى أن تحضـر صـورة ناديا قطري ومأسـاة أبيها أديب الخياط وأسـرتها مع قيادة حزب الجبهة الشيوعيّ، ومع حمود النذل الذي عاش من دون عقاب على نذالته مع أختها المراهقة.

كان يحضـــر من جديد رأس ثريا؛ دافعةً إلى وعيه ابنها ماهر، الذي أضـــحى معارضًـــا كاذبًا لســـلطة النظام.. تحذّره منه، وتطلب منه أن يقتله، فيحتار أحمد، عمن يستقرّ على قتله، أيكون الذيب أولًا أم حمود أم ماهر أم ضباط المخابرات، الذين آذوه في معتقله، أم يستقر على قتل من اعتدى على يحيى؟

وتحطّ على ساحة مخيلته صور مضر الدغري وتحسين ويوسف عبيد ونورهان، وأصوات غرغرة الموت لشـهداء أعدمهم نظام السـلطة في سـاحات الموت في سـجن تدمر العسـكريّ وفي معتقلات فروع المخابرات الرهيبة.

تُرى.. ما حجم تلك القوة الغضـبيّة التي يُشـحن بها، في أثناء مسـيره إلى لبنان على سـفح جبل الزبدانيّ المحتفظ ببقايا ثلوج تزيد صمت الظلام صقيعًا.

شـريط من الذكريات يمرّ أمام بصـيرته وناظريه؛ يشـحنه حقدًا وغضـبًا، يتسـاءل عن جدّته نعيمة التي ماتت، وهي تنتظره، أمّه التي غادرها؛ وهي على حافّة قبرها، عمّته أم حمود التي توفيت، وهي تهذي باســـم ابنتها صـــفاء الهاربة من دار التوحّش؛ ويلوح أمامه شـــبح أبي حمود الذي انتهى ضـــحيّة أخرى للذيب ابن شطمة.

كان يهرب من طيف ماري ســـمعان الذي يعبره كالنســـمة، تتجنّبها ذاكرته؛ هربًا من دخوله في نفق الاكتئاب، الذي عاشه في مدفن الدّار الكبير قبيل الثورة إثر موتها حبًّا، حتى تتحوّل إلى غيمة بيضاء يستظلّ تحتها، يحاول ارتداءها واللحاق بروحها الطهورة، فتنتصـــب أمامه قامة يحيى الفارعة، ويطلب منه مهلة إضافيّة للحياة، ويعده باللقاء.

يصـحو من جديد، ويتذكّر مختار أم الإبر وشـيخها وخاله سـعيد وجدّه الشـيخ وصـفي من قبلهم، الذين رسّخوا طغيان شطمة المجنونة وابنها الذيب، فيلعنهم، ويلوم نفسـه كيف صـمت عن أفعالهم الخسيسـة، على سفح جبل الزبداني كان يرسم سيناريوهات الانتقام، ثمّ يتراجع عنها أمام جموح الشباب العارم للولوج في رحاب الحريّة والتمدّن والعلم، تتقافز أمامه قامات ميادين التحرير في مدن ريف دمشق وجوبر وبرزة والقابون وقدسيا والتل وحرستا والمليحة ومخيم اليرموك، وهم يعتلون منابر المساجد، صارخين:

"يدّعون أنّهم يمثلون الحداثة والتحضّـــر، فليكذبوا هم الجهلة.. هم القتلة.. هم الذين يعيشـــون في قبور القرون الوسطى، ليخسأ أبناء النظام وحزبه ورئيسه، وليخسأ أسيادهم في بؤر الفساد العالميّ، شعبنا سائر على درب الحرية والكرامة، يهدم أبنية نخرتها خيانة رعاتها وقهر حكّام فاسـدين، شـعبنا سـائر ليبني دولته المدنيّة، ويقيم نظامًا ديمقراطيًّا جديدًا، بنفس الأدوات التي يهدم بها عدمية سلطة النظام السلبيّة..."

أصـبح أحمد يقارن بين نزوعه للانتقام الفرديّ، وبين أن ينضـوي تحت لواء شـباب الثورة، كانت تتنازعه عاطفة الحزن على شهداء قضوا، وعاطفة الفخر بشباب لا يزالون يواجهون المستحيل؛ مؤكّدين قدرتهم على الحياة والحبّ

وما انفكّ يسـير كالمغيّب، لا يشـعره بوجوده سـوى آلام جرح فخذه التي ازدادت عليه، وحين حاول أن يتوقّف، ويلتفت إلى الخلف، جرّته قوة البقاء نحو الأمام، وأمسـى لا ينتظر سـوى الوصـول إلى قمة الجبل؛ ليسقط خلفه داخل الأراضي اللبنانيّة.

كان يرتعب كلما عبره ظلّ يحيى كلمح البصر، فيغصّ في صمت، ويعيش حالة موت، حتّى تأتيه ماري سمعان فتترقرق داخل فضاء مخّه المفتوح على حبّها، وتخرجه من تابوت أفكاره السوداويّة، فيستمدّ منها روحًا متجدّدة للحياة، فتعجز عن امتصاص طاقة الغضب، التي باتت ترتديه.

لم يعد يذكر شـباب الثورة المرافقين له عن بعد، فهو يسـبح في فضـاء آخر.. يغرق في بحور حزنه، لا يخرجه منها سـوى يحيى وماري سـمعان وإيمانه بشـباب الثورة ونسـائها، الذين اسـتطاع أن يجاريهم في مظاهراتهم، وبات يستشـعر عضـلاته تتقلّص وتشتدّ أكثر على نحو غريب، كما لو أنّ أجنحة، ستنبت على خاصرتيه؛ ليطير بها إلى عالم يتصل بملكوت السماء.

لم يبق أمام أحمد للوصول إلى قمة الجبل سوى دقائق، وبعد أن اجتاز صخرة كبيرة بخطوات قليلة، فوجئ بصوت وراءه، يأمره بالتوقفّ عن الحركة:

- "قف، وارفع يديك قبل أن أطلق النار عليك!"

التفت أحمد بسرعة نحو الخلف، فوجد ضـابطًا بلباسه الميداني الكامل، مصـوبًا بندقيته نحو صـدره، وقد ظهر بمقدمتها حربة تتلألأ تحت ضـوء القمر، لم يكن أحمد بحاجة إلى أن ينشـحن غضـبًا، كانت طاقته الغضـبيّة كافيّة؛ لينقضّ على الضـابط، وينتزع منه البندقية بثوان معدودة، ومن دون وعيّ لم يشـعر؛ إلّا والبندقية بيده، مرتدًّا نحو جسد الضـابط، غارزًا حربتها في بطنه، فصرخ الضـابط إثرها صرخة ألم عظيمة.. ترك أحمد الحربة مغروزة في بطنه مع البندقيّة، وتراجع نحو الخلف مذهولًا في اللحظة نفسـها؛ التي اقترب منه شباب الثورة المرافقين له، وتوزّعوا شـاهرين بنادقهم بحرص شـديد، ثمّ اقترب أحدهم نحو الضـابط الملقى على الأرض، فسمعه يقول بصوت متهدّج كاد أن ينطفئ:

- لا أعرف.. من تكونون.. أنا عمر الخطيب بيتنا قرب جامع خالد بن الوليد في حمص... ضابط عميد منشق عن اللواء الحدوديّ... أخبروا أهلي أنّني رفضت أن أقتل شعبي.. وأنني متّ شهيدًا... وأنا في طريقي نحو لبنان حرًّا...

أغمض الضابط عينيه، وبرشاقة سحب الشاب حربة البندقية من بطن الضابط، وحاول أن يمنع تدفق الدم من بطنه بربط ملابسه حول الجرح النازف، ثمّ حمله، وطلب من رفاقه مرافقته، أطلق أحدهم نورًا كشّافًا يعرفه شباب الحزب التقدمي في الجهة اللبنانيّة، وبعد دقائق قليلة، وصلوا إلى جانب السيارة اللبنانية؛ التي لبّت طلبهم.

***

وضعوا الجريح في السيّارة، بعد أن عرف شباب الثورة اسمه وعنوان أهله في حمص.. أوصوا شباب التقدمي به خيرًا، ودفعوا أحمد إلى داخل السيّارة، وهو لا يزال في حالة ذهول ممّا جرى، كان بين المصدّق والمكذّب، غافلًا لما فعلته يده، يغيب عن الوعي، ثمّ يصحو باحثًا عن جناحيه؛ اللذين انتظر نبتهما في جانبيه؛ حتى يطير بهما بعيدًا.

انطلقت السيّارة، وتركت شباب الثورة، الذين عادوا على أعقابهم نحو الزبداني، ثمّ أجروا الاتصال بجماعة الحزب التقدميّ، وأوصوهم بعدم إهمال الضابط البطل، الذي ساعد الثوار سرًّا؛ إلى أن استشعر خطرًا على حياته، فانشقّ هربًا من موت السلطة.

رفض أحمد أن يترك الضابط، استمرّ قربه؛ واقفًا أمام باب غرفة العمليات، يئنّ ويدعو الله أن يعافيه، نسي كلّ ما كان يلحّ عليه، سوى ذهوله أمام الخطْبِ الذي أصاب الضابط، لا ينسيه ما هو فيه سوى تفتيشه عن جناحين ينبتان على خاصرتيه، عن حلمه بالطيران بهما خارج الحياة.

أجريت للضابط عمر الخطيب عملية جراحية في عرسال بمساعدة آل حجيري، وخاط الأطباء له جرحه العميق، واطمئن أحمد – وهو ما يزال واقفًا أمام باب غرفة العمليات –على نجاح العمليّة، حدّثه بعد أن صحا من المخدّر، وهنّأه على سلامته، واستأذنه على مرافقته، أذن له الضابط، ولكنّ آلامًا في ساقه عاودته، وعرجًا واضحًا أصابه، سأله عنه الضابط، أخبره عن آلامه، وحين وصل مسؤول الحزب التقدميّ لتهنئة الضابط بالسلامة، أخبره عن حالة أحمد، مما استدعى إدخاله إلى غرفة العمليات وعلاجه من آلام معدته؛ التي عاودته، ومن جرحه الملتهب.. ثمّ ثُبتت جبيرة لساقه.

بقيا سوية، في غرفة واحدة في المستشفى نحو شهر ونصف؛ بات أحمد مداومًا على لوم نفسه؛ كيف أخذته إلى عنف الجريمة! وكيف أوقعه غضبه وطيشه في أتون العنف الداميّ وضراوته!

بعد أن شـفيا، نقلوهما إلى مكتب في وسـط عرسـال.. ولم يتوقّف أحمد عن الاعتذار للضـابط عن فعلته الشنيعة:

- والله.. بحياتي كلّها لم أحمل سكينًا، ولم يكن باستطاعتي أن أجرح عصفورًا، كيف استطعت أن أفعل ما فعلته بك، والله لا أدري! فيطمأنه الضابط قائلًا:

- أنت بطل يا أحمد، أنا الذي أخطأت، حين ظهرت لك من خلف الصـخرة، كنت أراقبك قبل دقائق قليلة، وكنت محتارًا من تكون! أمن جماعة جيش السلطة؟ أم من الثوار؟ إلى أن حصل ما حصل، وهذه إرادة ربّنا التي لا مهرب منها.

التأم جرح بطن الضـابط، وخسـر كثيرًا من وزنه، وكذلك أحمد داوم على أخذ دواء المعدة، وشـفي جرحه الملتهب، وفكّ جبيرة ساق رجله، ولكنّه بقي يعرج منها.

أصـبحا صـديقين، كانا يجلسـان في المكتب، الذي زوّد بتجهيزات متواضـعة، سـوى من جهاز التلفاز المتصل بمحطات فضائية كثيرة، وشبكة الإنترنت التي كانت متاحة لأجهزة المحمول والكمبيوتر، ولم يتركهما جماعة الحزب التقدميّ، ظلّوا كرماء معهما ولطفاء.

كانا يجلسـان ويتحاوران عن الثورة، وأكثر ما كان يزعجهما قادة المعارضـة السـياسـيّة؛ الذين يطلّون من شاشات التلفزة متشدّقين بعدائهم للنظام وتمثيلهم حراك ثورة شعب سوريا البطل.

أمّا أحمد فلم يستطع أن يبعده أحدٌ عن حزنه، سوى أخبار أبطال الثورة المرابطين، وطيف ماري سمعان الذي يزوره ويدلّه على دروب الأمان، وكان يزداد ألمًا كلما لاحت ذكرى ابنه يحيى، ضـمير الثورة ونصـير الثوّار، ابنه الذي خطفوه من حضنه في مهجع فرع المخابرات العسكريّة، وقادوه إلى مجهول عتمهم.

في ذات يوم، اسـتيقظا على أصـوات قصـف قنابل على القلمون ومحيط عرسـال، وعرفا من الأخبار أنّ الجيش السـوريّ وحزب الله يسـتهدفان عناصـر من تنظيم القاعدة، ومع ازدياد القصـف، ازدادت حركة نزوح الهاربين من عنف السلطة؛ إلى أن وصلت سيارة الحزب التقدميّ، وأقلّت الضابط وأحمد، وأخذتهما إلى مكتب الأسـتاذ وليد جنبلاط، تحاورا معه، وأبلغهما أنّ الأمريكان والروس ودول المنطقة معادون للثورة؛ لمصـلحة نظام الحكم الفاسد، بل قال:

- تحتاجون إلى أكثر من أربع سـنوات، لتتخلصـوا من حكم الاسـتبداد، ثمّ طلب من الضـابط عمر الخطيب أن يسافر إلى الأردن، وطمأنه أنّه تفاهم مع الأردنيين بشأنه، وسوّغ طلبه، بأنّه لا يستطيع حمايته من حسن نصر الله وحزبه؛ حيث تتنامى قوته في لبنان كثيرًا.

سـافر الضـابط عمر الخطيب إلى عمّان، أمّا أحمد فرجع إلى عرسـال، وأقام في شـقّة صـغيرة، وكان أول اتصال له مع أخيه عمر في أم الإبر، فبشّره بولادة زوجته سارة صبيًّا جميلًا مثل يحيى وسموه سليمان.

82

أعطى أحمد جواز سفره لشباب التنسيقية.. ليختموه من نقطة الحدود اللبنانية السورية في المصنع وجديدة عن طريق رشوة ماليّة؛ لسماسرة كثرت أعدادهم في تلك الفترة، ثمّ أخذ مسؤول الحزب التقدميّ الجواز مختومًا، واشترط على أحمد توجّهه إلى مطار الإسكندرية – بداية – لعدم ثقتهم بأمان دربه إلى مطار القاهرة.

انفرد بكوثر، وقبلها قبلة الوداع، ثمّ ودّع عرسال ومن عرفه من المهجّرين وشباب التنسيقية، واتّجه نحو بيروت، ودّع من عرفهم فيها، ثمّ إلى مطار رفيق الحريري بصحبة أحد مسؤولي أمن الحزب التقدميّ، أوقفه جماعة أمن المطار المسيطر عليه من قبل حزب الله اللبنانيّ، وحقّقوا معه، ولكنّه استطاع إرسال رسالة لمسؤول الحزب التقدميّ، الذي كان متوقّعًا عرقلة طريقه، فعالج المشكلة عبر تدخّل ضابط، يمثّلهم داخل المطار.

***

صعد إلى الطائرة في اللحظات الأخيرة لإقلاعها، وطوال درب طيرانه كان ينتظر روح ماري سمعان عبر أثير الكون، كان يتساءل: "أأبحث عن روحها بداية، أم ألبي رغبتي في حضور مؤتمر المعارضة السوريّة، لأفضح ممثليه الذين اصطنعتهم إرادة مخابرات السلطة؟

خرج سالمًا من مطار برج العرب في الإسكندريّة، وكان بإمكانه أن يتّجه نحو القاهرة مباشرة، ولكنّه آثر الوصول إلى بحر الإسكندرية ليأنس بروح امرأته؛ التي تسبقه على دروب الحبّ، حجز في فندق يونيون المطلّ على البحر، وضع أغراضه في غرفته، وهبط نحو شاطئ الإسكندريّة، بحث في وجوه نسائها عن ملامح امرأة بمرتبة وطن، وصل أخيرًا إلى مكتبة الإسكندرية، دخل إليها، وهبطت ماري سمعان بكامل أبهتها إلى قاعة المطالعة؛ لتطمئنه بأنّها صادقة بوعدها:

"لن تتأخر أنثاك.. انتظرها.. انتظرها.. انتظرها...".

صباح اليوم التالي سافر إلى القاهرة، ووصل إلى فندق المؤتمر، وفي بهوه صدم بقيادات المعارضة: الذيب ابن شطمة، ومن حوله فريقه من بينهم ماهر وحمود وعشرات، بل مئات الموفدين والموفدات؛ من الداخل والخارج؛ الذين حلّوا ممثلين وممثلات للثورة السوريّة وشبابها المكتوين بنار الموت والتهجير والاعتقال والتغييب على أيدي نظامي الموت الطائفيّ والتكفيريّ على السواء.. لم يسعه المكان، انتحى جانبًا واتصل بشباب تنسيقية بلدة عرسال، وأخبرهم عن مشاهداته، واستأذنهم الرحيل عن ذلك المكان الآثم، المستوعب حثالات السوريين ورذائلهم، أولئك المستهترون بحقوق الشعب السوريّ، المتنكّرون لثورته، كانت روائح جريمة

الساسة بحقّ الثورة تملأ بهو الفندق وكواليسه المتواجد فيها مسؤولو الملف السوريّ من سفارات الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والسويد وروسيا...، لم يكمل الساعتين؛ حتّى ارتحل خارج الفندق، ثمّ كتب لشباب الثورة كيف يتكاثر – في ردهات الفندق – ذئاب وضباع وشطمات كثيرون، وفي اليوم نفسه؛ الذي وصل فيه إلى القاهرة نكص عائدًا إلى الإسكندرية، أقام في ربوعها حالمًا بوطن يحلّ داخل جوانح امرأة عظيمة؛ لطالما راودت خياله، امرأة مصريّة تتقمّص روح ماري سمعان، وتعبر إلى روحه المعذّبة.

فجأة.. علا صوت الأنثى الممزوج بروح ماري سمعان في داخله، يسائله عن عجزه في زمن أوهام الذكورية الجوفاء، فأجاب: "عشتُ أوهامًا بالفعل، ولكنّني على درب الخلاص منها.. أحاول تجنّبها، سأحيا من دونها".

"وأين أنت من الأنوثة التي سكنت روحك؟"

"لا أزال أبحث عنها في أسارير الوجود، لأتبع دربها".

"وماذا عن يحيى؟"

"لا يمكن أن يموت المرء إذا لم يستسلم"، كرّر ما قالته له ماري؛ بعدما امتصّت من جوفه بذور الموت، وارتحلت على جناحه المظلم، وأكمل مناجيًّا نفسه: "لا أظنّ أنّ يحيى من الذين يستسلمون، يحيى حيٌّ فينا وبيننا وحولنا، يحيى باقٍ في ضمير ثورته الأنثويّ، يحيى لن يموت يا ماري، سأنتظره تحت ظلال روحك المتساميّة، ولن أبرح شاطئ أحلامه العظيمة اللامتناهية.. يحيى حيٌّ، وإن كان غير منظور، فأنا أراه يعانق الإله في ملكوت السماء.. وعدني أن ألتقيه قريبًا، وهو لا يكذب يا ماري، لن أتركه عرضة لعبثيّة الساسة والإجرام، سأبقى محتضنًا له، مثلما تركته آخر مرّة في مهجع الموت في سجن فرع المخابرات العسكريّة، حينما احتضنني بفكره الوقّاد، فقد ظلّ يحشوني فكرًا متألّقًا، وعلمًا غزيرًا؛ حتّى لحظات انتزاعه من بين يديّ".

كان أحمد يرغب في البكاء، مع كلّ نسمة أرسلها طيف ماري فوق رأسه، تلك المرأة الطهورة التي صهرت معها روح ثريّا وحلّقت فوق وجوده في معهد الدراسات الثقافيّة، فمنحته الحياة وأمانها، وانتزعت منه الموت، ليغادر جسدها نحو العدم، متحدة مع ملكوت السماء، ولتهيم روحها بحثًا عن درب حلولها في أجساد نساء يستحلن وطنًا.

روح ماري سمعان الحالّة في أنوثة الوجود.. في جموح شباب الثورة؛ وهم يصهلون داخل شوارع سوريا وسجون نظامها القمعيّ وجوامعها ومدارسها، في الداخل وفي مخيمات اللجوء في الخارج، في ضمائر كلّ من أسهم ويسهم في رفع الظلم والقهر والجهل عن كاهل سوريا الجريحة.

***

تُرى.. أين حطّت روحك يا امرأتي في مدينة الإســـكندر المعظّم؟ أفي بحرها؟ أم في مكتبتها؟ أم في جامعتها؟ أفي عبير زهور حديقة الشلالات؟ أم فوق تمثال الإسكندر وروحه الأنثوية؛ التي تطوف في سماء المدينة باحثة عن فعل جديد؟ أفي بحري؟ أم في ميامي؟ أم أين؟ بالله عليكم أخبروني! أين حطّت روح ماري سمعان في زمن الثورة؟!

أبحث عنك أيتها المرأة في روحي التي تسكنيها، أتطلع إلى مجد آلائك، وأنقّب عنك في أنفاس يحيى، ابني، الذي أحياني مع كل لحظة عشتها معه في زمن الثورة؛ حتّى لحظة انتزاعه من حضني في مهجع الموت لدى فرع المخابرات العسكريّة.. ألمح طيبة أهلي في أنفاسك، وأبحث عن أنوثة وطن يخبّئ في أرضه سنبلة، وأستنشق عطرك حول فضاء في المدى المفتوح إلى لا نهائيّة المعاني في عبير زهرة.

هنا.. في مسجد القائد إبراهيم وحواليه المشحون بهدير شباب ميدان التحرير، انضمّ أحمد إلى مظاهرات شباب المدينة، وصار يردد معهم:

- يسقط يسقط حكم العسكر...
- يسقط يسقط الإخوان المسلمين
- لا لا للتكفير..... إحنا جيل التفكير
- لا عسكر ولا سلفية..... عايزين دولة مدنيّة

وحينما حوصروا، ألقوا عليهم القنابل المسيّلة للدموع، قاوم الشباب حتّى النهاية، ثمّ تنادوا للاجتماع – من جديد – في ميدان ســـيدي جابر، توجّه أحمد مع مجموع الثائرين، وظلّت الجموع تتزايد في قلب الميدان، وسيارات العسكر تتوافد، وتتمركز حوله، وانبعثت توابيت التكفيريين من عمق بحر إسكندرية وحطّت في أكثر زوايا المدينة عتمًا.

رائحة غازات تعمي العيون، وتغلق مجاري التنفّس، طائرة حوّامة فوق الميدان، وأخريات من دون طيّار تحوّم في زوايا غامضـــة في ســـمائه، غيوم رماديّة تغطّي الســـماء، غمام يمنع تطلّع الشـــباب نحو آفاقهم اللانهائية، صراخ ونحيب وغُصّات مشحونة بالغضب، أصوات الاستغاثات فاقت أزيز الرصاص ونيرانه؛ التي لم يُعرف مصـــدرها، أكانت من طواغيت العســـكر، أم من جحور التكفيريين، أم من كليهما؟! كان أحمد يسمع أصوات الانفجارات والرصاص على المتظاهرين، ويشهد سقوط الكثيرين من شباب الثورة جرحى، وربما شـــهداء على الدرب الطويل، إلى أن غاب المشـــهد عن ناظريه.. وانفتح باب أمامه، فواجهت عينيه ضـــياء بيضاء ممتدة إلى آماد لا نهائية، لم يسبق له أن رآها، ثمّ اصطبغت مساحات البياض بلون مياه نهر بردى المختلطة بالتراب وبدماء آدميين، كان الظلام بهيمًا سوى من بصيص أضواء تتلألأ في ذاكرته.

حاول سدّ جرحه ومنع نزيف دمه المتدفق من رأسه، ولكنّه لم يكن يشعر؛ إلّا بأقدام الهاربين من إطلاق النار العشوائيّ والرصاصات الطائشة أو الغادرة تدوس فوق جسده.. أصبح يستغيث؛ محاولًا أن يطرد صوته من داخله، ولكنّ الصوت أبى أن يغادره، سلّم أحمد أمره، وبات يبتعد مبتسمًا نحو الغرفة، التي شيّدتها له امرأته على خطّ الأفق.. الآن.. يراها أمام ناظريه، صُــــدِم من هيئتها، التي تغيّرت؛ إذ تجهّم وجه ماري سمعان، وضاقت عيناها، وصار شعرها منكوشًا.. تركته، واستدارت على عقبيها رافضة أن تستقبله، تركته بين جموع الراكضين هربًا، يئنّ وجعًا؛ باحثًا عن عدم يريحه.

أخيرًا، لبّى الشباب صوت استغاثته؛ الذي انخمد في داخله مدحورًا.. حملوه، وركضوا به.. لحظتئذٍ افتقدت حواسه القدرة على التمييز، دخل في نفقٍ أبيض، لم يعد يشعر إلّا بماري سمعان، وهي تلتفت نحوه من جديد، أبعدته عن عتبة غرفتها خلف الأفق، وسارت به على درب زُيّنت جوانبه بالفل البلديّ والورود والياسمين، بقي طيفها أمامه، حتّى أوقفته على حافة سِدرة المنتهى، هناك.. شهد هدير ثورة ميّز بها صوت ابنه يحيى، ولكنّه لم يستطع تحديد معالم خُطاها، حاول أن يلمس أحدًا ليتأكّد من بقائه حيًّا، ولكنّه عجز.

على سرير العيادات الخارجيّة وُضع أحمد، تقدّم منه طبيبٌ كهلٌ، وعاين حالته، وتأوّه قائلًا:

- اللهم اعف عنّا، وبثّ الروح في جسد عبدك المسجّى أمامي...
- ماذا يا دكتور، أليس من شفائه أمل، دعنا ندخله إلى غرفة العمليات، قالت طبيبة شابة.
- لا أمل من شفائه، على كلّ خذيه؛ وأكملي تدريبك به في غرفة العمليات.
- لكن يا دكتور لا يزال حيًّا...

غادر الدكتور الكهل الملتحي مستخفًا؛ من دون أن يردّ على الطبيبة الشابة.

بات أحمد غائبًا عن الوعيّ لحظة أخرجوه من غرفة الأشعة، وأودعوه غرفة العمليات، ثمّ استعانت الطبيبة الشابة بأستاذ آخر؛ تثق بخبرته في مجال جراحة الرأس والمخّ، وشرعا في رتق جروحه لإيقاف نزيف الدم من أسفل رأسه، الناتج عن إصابته بطلق ناريّ، أدّى إلى كسر خطّي في العظم الجداريّ في الجمجمة أيضًا، واستمرّت الجراحة ساعات عديدة.

***

كان أحمد في غرفة العمليات يعوم على سطح بحيرة المياه المتشكّلة من التقاء جداول نقيّة وينابيع بقين وبردى والفيجة والخضرة، تخيّله أحمد سابقًا؛ حينما كانت أشجار الحور على ضفاف بردى، تعاند رياحًا تتعاور مياه بحيرة زرزر؛ التي عرفها برفقة كوثر ومنتهى قبل وصولهم إلى الزبداني في الشهور الأولى من الثورة.. لوّن صفحة سطح البحيرة بزرقة السماء، ونثر فوقها براعم الفلّة البلديّة التي أنتشت من جديد، ووشّحها باخضرار أشجار صفصافها، وزرع بينها سنابل القمح الصفراء، التي حبلت بها سهولها، وأعادتها إلى رحم

الأرض.. كما سلّط عليها لحظات سطوع الشمس؛ قبل تبدّد أضواء مغيبها، تاركة وهجها يختلط بظلّ جرذ يبدو أخطبوطًا لحظة أطلق من بندقيته القنّاصة الآلية، وهو يعتلي سطح البناء المطلّ على ميدان سيدي جابر.

سحبته دوّامة المياه إلى قاع البحيرة، ورمته نحو مصبّها، وسقط شلّال ضياء على صفحة نهر بردى، ثمّ تدفقت مياهه في مجراه الجليل، جارفًا معه أحمد المغالب الموت اصطدامًا بالصخور الناتئة على جانبيه وسط مسارب جوفيّة لا قرار لها، إلى أن ارتفعت المياه، وتلوّثت بالتراب ودماء شباب وطن تُستباح دماؤهم.. تخبطت المياه مذعورة من الدم والعتم والتراب، تكلّم مع نفسه: "ليس غريبًا عليك مشهد النهر يا أحمد، هو النهر نفسه الذي سرت إلى جانبه عام سقوط بغداد على أيدي الجيش الأمريكيّ؛ إذ كان مذعورًا وغاضبًا، ويحمل نفس مياهه التي أغوص فيها، هذا اللون الناتج عن اختلاط الدم والتراب بالماء" فكّر مع نفسه، وتذكّر كيف كان هدير النهر يومها احتجاجًا على أهله غير الأوفياء لمجراه الطاهر، ثمّ امتطى محفّة الظلام، وسافر إلى زمن، كاد أن يسقط معه في النهر انتحارًا.

احتقنت مياه النهر بالعتم والدم أكثر، وبدأت تفيض على ضفتيه، وتسقط عشوائيًّا في أودية الصخور ومساربها، فتساءل عن حاجة الأرض لسفينة نوح، وسط هذا الطوفان الرهيب، ولكنّه قال لنفسه: "لم أخلق لأموت، بل لأحيا، لن يتركني الله في محنتي..." فاستجاب الله لدعائه، وسقطت مياه النهر دفعة واحدة، وغاضت بين صخور باطن الأرض، وهو محميّ بمياه تترقرق في فضاء دماغه المفتوح على أمداء الزمن اللامتناهي، حطّ قرب بناء ضخم مكوّن من حديد، ومزيّن بفوانيس رمضان وأعلام ملوّنة ورايات سوداء وأخرى حمراء، ثمّ قرأ على لوحة أعلى بوابته بالخطّ الكوفي: "البناء اللايزري للحماية من الأشعة النووية"، فحاول فتحها، ولم يستطع، فتركها، وسار بمحاذاة السور المرتفع، حتّى ظنّه أنّه سور الصين، لولا أنّه انتبه لظلّه المتعاظم الملقى على الجدران المملوءة بآيات القرآن الكريم، ثمّ لمح شبح رجلٍ هائل الحجم، ترك ظلالًا شبحيّة أصغر منه، فظنّه خنزيرًا شرسًا، وعندما خلع الخنزير خوذة عسكريّة عن رأسه، تدلّى منها ديدان الموت السوداء الدبقة المرقّطة بالأصفر، واستحال ظلّه معكوسًا على جدار مخيّلة أحمد على شكل خنزير بريّ يحمل عنق زرافة، حتّى تحوّل قلبه لما بين عينيه، كان ينبض ومع كلّ نبضة تولد دودة، حتّى باتت الديدان تنغل، رآها متدلية على حافّة قبره، ثمّ اختفى خلف شاهدة.. ولول أحمد، وركض متخبّطًا في الظلام، كان الليل مسيّجًا بالموت في تلك المقبرة الرهيبة.. لم يعرف أحمد هُويّة شبح الرجل، إلّا أنّ ظلّه قعد على كرسيّ كبير داخل حديقة بناء الحماية اللايزرية، التفت أحمد وقال بنفسه: "كم يشبه حافظ الأسد الذي مات منذ نحو اثنا عشر عامًا".

استهان أحمد بالمشهد، وغذّ السير خارجًا، وأطلّ من شرفة كشرفة شقة عرسال لبنان، ووجد أمامها ساحة أيضًا، ولكنّها أوسع بكثير من ساحة عرسال، وتتصل بحارات كثيرة، وكلّها مغلقة كما حارة عرسال، كان سيّد ساحته الجديدة هو البقّال الأعور، صاحب الشارب الأحمر، والكرش الأكبر، كان يدقّ وتدًا كبيرًا وسط الساحة، يعاونه أشباهٌ له، يدقّون وتدًا، ويختفون في زوايا معتمة، حاول أن يبحث عن امرأة بينهم، فلم يجد سوى ميسون، كانت تطل من نافذة ضيقة في غرفة متهالكة، وضعت في صدر مسرح لا ممثلين على خشبته.

شاهد أحمد أمواجًا تتعالى فوقها هامات متظاهرين؛ يطالبون بالحرية والكرامة، وسمع أناشيد حبّ من أفواه أطفال، وزغاريد نساء تتدافعن وسط الساحة، تستنهض رجولة منسيّة لدى بعولهن، حتّى انزوى البقّال الأعور في غرفة ميسون هلعًا، خاف على دكانه وخضرواته وماله وروحه، فانطلقت الأوامر من فوهات مايكروفونات موزّعة على الساحة وفي كلّ حارة مغلقة، بصوت حافظ الأسد؛ الآمر باعتقال الأطفال قبل الكبار، وبإنزال الجيش إلى الشوارع، وضرب المحتجين بصواريخ سكود وبالطيران الحربيّ بدلًا من المروحيات؛ التي ترمي براميل رديئة الصنع، كان حافظ الأسد متشدّدًا في أوامره، واندهش أحمد كيف أنّه ميّت، ويصدر الأوامر، ويوزّع قوائم المحكوم عليهم بالإعدام، ويجدول الاغتيالات، ثمّ أمر بإبادة أهل البلاد بغاز السارين، فانذهل حين ارتمت على أرض الساحة الكبيرة الجثامين، واندفعت أعمدة تراب من رحم الأرض، تصاعدت نحو السماء وحجبت زرقتها، فانزوى في جحره؛ حينما أقاموا أمام كلّ حارة مغلقة حاجزًا مسلحًا لميليشيات الحرب الطائفيّة، وفي آخرها المسدود خيامًا لفرق الموت التكفيرية.

"تُرى من يبثّ الروح في جثمان حافظ الأسد، هل الله؟ أم الشيطان؟ كيف يسمح الله بقتل الناس وفق هوياتهم الطائفية والعشائرية والحزبية؟ كيف يسمح أن يموت الخلق بغاز السارين؟ وبهذه البراميل والصواريخ؟" كان أحمد يتساءل وهو يطلّ من شرفته نحو ساحة الموت المزروعة حربًا وموتًا، تعثّرت خطاه في أثناء عودته، واصطدم دربه بشبكات عناكب تصطاد عناكب، وجثامين تنتفخ وتكبر تتسابق للوصول إلى جيف تغرق النهر بنتانتها فتساءل: "هل جثامين هؤلاء قادرة على بثّ الحياة في جثامين الطائفة والقبيلة والحزب والأمين العام؟" لم يسعه أن يجد جوابًا، أمام حقيقة واحدة ارتسمت في أعماق وعيّه: حافظ الأسد يصدر أحكامه وقراراته ويبثّ روائح كريهة معها، فاشتمّ في قاع كل حارة مغلقة صديد رائحة الموت، ثمّ تساقطت من السماء ديدانًا سوداء رقطت بالأصفر، كانت تتلوى في الحارات المغلقة باحثة عن عيون بشر لتقتات عليها.

تواطأت جدران المبنى اللايزري والساحة المفضية إلى الأبيض الممتصّ لحاراتها المغلقة؛ ولطرقات تضيق وتضيق وتضيق على ما تبقى من أبنيّة، وعلى أرواح بشر تجاور المستحيل.. تواطؤوا جميعًا على السكوت والتوحّد مع الموت، حتّى سال إسفلت الشوارع دموعًا تفيض على الوجود.

اجتمع أحمد بأرهاط يتّصـــلون بالمقابر، باتوا يتســابقون على الدخول في أخاديد تحفرها جرذان الموت، فانسربت المياه من جديد، وشكّلت طوفانًا آخر حمله على صفحته، ونقله مستلقيًا على محفّة رمادية، فأخذ غفوة، وسرقته الأحلام، حملته نحو الغوطة الشرقيّة، دقّق في أماكنها، فكانت غريبةً عنه، أشجارها استحالت صـــبطانات مدافع، وعبق رياحينها اختلط بروائح مدفن الدّار الكبير ناســـها لم يألفهم كما كان يعيش بينهم سابقًا، وساحاتها التي صدحت بأصوات الحرية، أضحت ركامًا من أحجار صمّاء مختلطة بدماء أبنائها، وميادينها التي شارك في مظاهرات ومهرجانات تأبين شهدائها؛ استحالت قحطًا يابسًا: "تُرى ما هذا الذي أراه، وأين شـــمس النهار، أخلقت هذه البلاد على نور الكهرباء، كيف اســـتطاعوا أن يخفوا نجوم الليل؟ وأين هو القمر؟!".. كان يتساءل، ولم يتحرّى جوابًا، إلّا حينما أطلّ من فتحة غُطّيت بغطاء بئر تجمع للمياه الآسنة، فوجد فيالق وميليشيات غريبة يقودها الشيخ الأردنيّ الذي اعتقله في بلدة المليحة قبل أشهر معدودة، ورجال يستكملون بناء مدينة تحت الأرض، قوامها بنايات تكرّر نفسها، وفي مركزها مبنى ولافتة مثبّتة أعلى بوابتها، كُتب عليها بالخط الكوفيّ أيضًا: مبنى الأحلام اللايزرية، معظمهم كانوا يتلفّعون بالسواد، ويعصبون جباههم بأشرطة سوداء.

لم يتوقّف أحمد عن الحلم، وهو محمول على صـــفحة مياه بردى الزرقاء، بل انفتحت له أبوابُ طرقٍ ضـــيّقة امتدّت وامتدّت، ســـار فيها وانغلقت عليه في آخر دروب ليل بهيم في مدن وبلدات وقرى الغوطة الشرقيّة، كانوا يحفرون بمعاولهم، حاول أن يساعدهم في حفر الأرض، لكنّ الموقف اختلط عليه، ولم يعِ إن كانوا يهدمون مدفن الدار، أم يبنونه، حار في درب ســـيره، وحين قرّر التنقيبَ في دواخلهم، قال له حلمه: توقّف، ثمّ خانه، وأعاده إلى البناء الليزريّ.. ابتعد على محفّة النّور مياه رقراقة تحمله، وتســـلّمه إلى أعمدة ضياء تبتعد به، وتحطّ به على حواف حلم جديد.

***

من أكثر زوايا حلمه ظلمة تسرّب شعاع ضوء من قلب الشمس، كان يمتطيه جسد آدميّ مضـيء، رفع أحمد يده للمسه، ولكنّه فشل، حاول وفشل، كان طيف ماري سمعان، التي استحوذت على أعظم روح.. ماري التي أيقظت في داخله رجولة متهالكة من قبل، واختطفها الموت.. اقترب منه الطيف أكثر وأكثر، اقترب.. ثمّ تعالى نحو السماء، شيّعه بعينيه الحزينتين، وصرخ صرخات استغاثة من دون أن يسمعها أحدٌ.. غادره صوته من دون ارتداد الصدى، إلى أن توحّد طيفها مع روحها، وعصفت تاركة خلفها زوبعة من نور، التي استحالت وجه امرأة أخرى، حمل ملامح امرأته وسريرتها، وضعت كفّ يدها على رأسه، وقالت له:

- الحمد لله على سلامتك..
- أين أنا؟

- أنت في مستشفى الجامعة في الإسكندرية.

أغمض أحمد عينيه، وارتداه حلم جديد مع امرأة خلّاقة، اختصرت الأنوثةَ بصوتها العذب ووجهها الجميل، محيية في داخله شوقًا لمدينته ولابنه يحيى ورفاقه الذين تركهم في السجن؛ المنتظرين رجوعه على الضفّة الأخرى، وعرف حينها أنّ إصابته ليس لسوء طالعه.. بل لحسنه...

وصلَ إلى مشتهى روحِه.. إذ أُصيب بطلقة في أسفل رأسِه؛ ليصل إلى من تمنحه الرجاء.. استفاق من حلمه، فانتصبت أمامه، خلعت أقنعتها نجمة نجمة، وأنارت له دربًا في عين عقله، حتّى أحيت في داخله رجولة تهالكت.. لملمت بقايا جسد ماري من ساحة لاوعيه؛ واستحوذت على روحها المبثوثة في جموح شباب الثورة، الذين باتت أيادي الإجرام الآثمة تغتالهم في اللحظات كلّها.

نظرتْ إلى عينيه في خَفَر، وكانت هي.. هي.. هي من دعته إلى الحياة من جديد، أمسك يديها، وشخص نحو عينيها، واستحلفها أن تبقى معه؛ ليروي روحَه المعذّبة بفيوض أنوثة تحمل روح أنثاه التي افتقدها موتًا، ورجاحة عقل ابنه يحيى المغيّب اعتقالًا؛ وجمال ابنته سلمى تهجيرًا، وكانتّ هي.. هي.. هي من أحيته، امرأةٌ سكندريّة في الإسكندريّة الأنثى.

أدهم مسعود القاق

القاهرة، 2019م

قائمة المحتويات

الإهداء .... **Error! Bookmark not defined.**

بطاقة شكر .... **Error! Bookmark not defined.**

كتابٌ مرقوم .... **Error! Bookmark not defined.**

كتاب الفجّار وكتاب الأبرار .... **Error! Bookmark not defined.**

أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة .... Error! Bookmark not defined.

(جبران خليل جبران) .... Error! Bookmark not defined.

إغماضُ حي أم الإبر عن ولادة الذيب ابن شطمة المبهمة؟! .... Error! Bookmark not defined.

(الجدّة نعيمة) .... Error! Bookmark not defined.

العار الذي لا يمحوه كرُّ الدّهر، هو تمكينُ العدوّ من نواصي صاحبه .... Error! Bookmark not defined.

(جمال الدين الأفغاني) .... Error! Bookmark not defined.

قد بدتِ البغضاءُ من أفواههم، وما تخفي صدورُهم أكبر .... Error! Bookmark not defined.

(قرآن كريم) .... Error! Bookmark not defined.

لاتخشَ شيطانًا أو جحيمًا، فروحك تموتُ قبلَ جسدِك .... Error! Bookmark not defined.

(فريدريك نيتشه) .... Error! Bookmark not defined.

وما الدّهرُ إلاّ منْ رواةِ قصائدي، إذا قلتُ شعرًا أصبحَ الدّهرُ منشدًا .... Error! Bookmark not defined.

(المتنبي) .... Error! Bookmark not defined.

ابتلاؤكم بجاهلٍ، خيرٌ من ابتلائكم بشبه عالم .... Error! Bookmark not defined.

(شكيب أرسلان) .... Error! Bookmark not defined.

اخرجْ من هذا الفناء الضيّق المحشو بالآفات .... Error! Bookmark not defined.

(ابن تيمية) .... Error! Bookmark not defined.

لا تحطّم الجسورَ مع مَنْ تحبّ .... Error! Bookmark not defined.

(وليم شكسبير) .... Error! Bookmark not defined.

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ .... Error! Bookmark not defined.

(القرآن الكريم) .... Error! Bookmark not defined.

عشيرتك مَنْ أحسنَ عشرتك، وعمك منْ عمّك بفضائله .... Error! Bookmark not defined.

(صالح الكحيل الجرماني) .... Error! Bookmark not defined.

يولدُ التحرّر من رحم مقاومة خرائب الإمبريالية وسرديات مثقفيها .... Error! Bookmark not defined.

(إدوارد سعيد) .... Error! Bookmark not defined.

السجن نقطة سكون في عالم متحرّك .... Error! Bookmark not defined.

(نيلسون مانديلا) .... Error! Bookmark not defined.
تتعالى لذةُ روحي وعذابُها على الإيضاح........................ Error! Bookmark not defined.
(فريدريك نيتشه)........................ Error! Bookmark not defined.
تخلّصوا من عالمِ الجهل، يستقبلكم نورُ العقل .... Error! Bookmark not defined.
(جمال الدين عبد الله التنوخي) .... Error! Bookmark not defined.
سبحتُ، حياتي كلّها، ضد الموج، ولا فائدة من الكلام والنصائحُ .... Error! Bookmark not defined.
مطر اليأس جارفٌ، والحبّ جسم عليل .... Error! Bookmark not defined.
(أدونيس) .... Error! Bookmark not defined.
لا تهربْ! ولتكنْ شجاعًا، للتحديقِ في نفسِك .... Error! Bookmark not defined.
(فيلهلم رايش) .... Error! Bookmark not defined.
لستُ الحجر الذي يلقى في الماء، ولكنّني البذرة التي تبذر في الحقل .... Error! Bookmark not defined.
(الطيب صالح) .... Error! Bookmark not defined.
أليس من العجب أن يكونَ هذا الضوءُ الذي أخذ يغمُرنا، شرًّا من الظلمةِ التي خرجنا منها؟!........................ Error! Bookmark not defined.
(طه حسين) .... Error! Bookmark not defined.
تترسب القاذورات في أغوار أرواحهم .... Error! Bookmark not defined.
(فريدريك نيتشه)........................ Error! Bookmark not defined.
تمطُّ أرجلَها الدقائقُ، تجمدُ، تستحيلُ إلى عصورٍ، ليلٌ تحجّرَ في الصخور........................ Error! Bookmark not defined.
(خليل حاوي)........................ Error! Bookmark not defined.
أرق على أرق، ومثلي يأرق... وجوى يزيد، وعبرة تترقرق .... Error! Bookmark not defined.
(المتنبي) .... Error! Bookmark not defined.
يعرف السُّمُّ أوجاعنا........................ Error! Bookmark not defined.
(أدونيس) .... Error! Bookmark not defined.
سيعرف الأعراب يومًا.. أنّهم قتلوا الرسولة........................ Error! Bookmark not defined.
(نزار قباني) .... Error! Bookmark not defined.
قتلوا داخلك، وأحرقوه، ثمّ عولج بالكي .... Error! Bookmark not defined.
(جورج أورويل، 1984) .... Error! Bookmark not defined.
الأخ مدينة منيعة، أخي.. يا وجعي........................ Error! Bookmark not defined.
(العهد القديم)........................ Error! Bookmark not defined.
اتبعوني.. ودعوا الموتى يدفنون موتاهم........................ Error! Bookmark not defined.
(السيد المسيح) .... Error! Bookmark not defined.
أحمد وماري........................ Error! Bookmark not defined.
المستسلمون للسبات العميق، إنّا هاربون ممّا لا يطاق، وإنّا موتى .... **Error! Bookmark not defined.**
(زكريا تامر)........................ **Error! Bookmark not defined.**
سنخرجُ.. فلتفتحوا خطوة لدم فاض عنّا .... Error! Bookmark not defined.

(محمود درويش) .... Error! Bookmark not defined.

يقولونَ: لاتبعد، وهُمْ يدفنونني.... وأينَ مكانَ البعد إلاّ مكانيا! .... Error! Bookmark not defined.

(مالك بن الريب) .... Error! Bookmark not defined.

أكبر عدوٍّ للإسلام جاهلٌ يكفّر الناس .... Error! Bookmark not defined.

(ابن رشد) .... Error! Bookmark not defined.

رقيقُ حواشي الحِلْمِ لوْ أَنَّ حِلْمَهُ.... بِكَفَّيْكَ ما ماريْتَ في أنَّهُ بُرْدُ .... Error! Bookmark not defined.

(أبو تمام) .... Error! Bookmark not defined.

الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا .... Error! Bookmark not defined.

(الرسول العربيّ) .... Error! Bookmark not defined.

الموتُ في مفتاحِ دارِنا .... Error! Bookmark not defined.

(نزار قباني) .... Error! Bookmark not defined.

ماذا ينفع الإنسان، لو ربح العالم، وخسر نفسه .... Error! Bookmark not defined.

(السيّد المسيح) .... Error! Bookmark not defined.

سنخرجُ.. فلتقصفوا ظلّنا.. ظلّنا .... Error! Bookmark not defined.

(محمود درويش) .... Error! Bookmark not defined.

ينكسر الصمت.. يعوي حيوانٌ في غابة .... Error! Bookmark not defined.

(فدوى طوقان) .... Error! Bookmark not defined.

لا ترفعوا شارة النصر فوق الجثث .... Error! Bookmark not defined.

(محمود درويش) .... Error! Bookmark not defined.

لن تكون سوى عدمٍ، خارج نفسك المتردّدة على الوجود .... Error! Bookmark not defined.

(هانم العيسوي) .... Error! Bookmark not defined.

لاتمشِ في الأرض مرَحًا، إنّ الله لايحبّ كلّ مختال فخور .... Error! Bookmark not defined.

(القرآن الكريم) .... Error! Bookmark not defined.

ماري سمعان.. تعرفونَ الحقّ، الحقّ يحرّركم، ماري: سماء أخرى وأرض جديدة .... Error! Bookmark not defined.

(العهد الجديد) .... Error! Bookmark not defined.

وهل تزني الحرّة وتسرق؟! .... Error! Bookmark not defined.

(هند بنت عتبة) .... Error! Bookmark not defined.

هي.. هي.. من سكن الله في روحها، هي حجر الزاوية، أم العالم، هي الطريق .... Error! Bookmark not defined.

(العهد الجديد) .... Error! Bookmark not defined.

خلفَ جفونِ حبنا، أيّةُ أسرار تختبئ؟! .... Error! Bookmark not defined.

(غادة السمان) .... Error! Bookmark not defined.

إلهي.. إلهي، لماذا تركتني؟! .... Error! Bookmark not defined.

(الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد) .... Error! Bookmark not defined.

كم مرة هزمتنا الخيانة من دون قتال! .... Error! Bookmark not defined.

(سعد الله ونوس) .... Error! Bookmark not defined.
لي فيكَ يا بَرَدَى عهدٌ أعيشُ بِهِ .... Error! Bookmark not defined.
(سعيد عقل) .... Error! Bookmark not defined.
وفي النّاسِ شرٌّ.. لوْ بدا ما تعاشَرُوا .... Error! Bookmark not defined.
(أبو العتاهيّة) .... Error! Bookmark not defined.
أنا بصيرٌ رأى حلماً، والنّاس كلّهمُ صمّ! .... Error! Bookmark not defined.
(شمس الدّين التبريزي) .... Error! Bookmark not defined.
جعلتُ الظلمَ بينكم محرّماً، فلا تظالموا .... Error! Bookmark not defined.
(الرسول العربيّ) .... Error! Bookmark not defined.
ضعف المظلومين من يصنع الطغاة .... Error! Bookmark not defined.
(أرسطو) .... Error! Bookmark not defined.
إذا قسا القلبُ قحطتِ العين .... Error! Bookmark not defined.
(ابن تيمية) .... Error! Bookmark not defined.
خفيفة روحي.. وجسمي مثقلٌ بالذكريات والمكان .... Error! Bookmark not defined.
(محمود درويش) .... Error! Bookmark not defined.
إذا كان الثراءُ إلى زوالٍ، فكلّ مُموّل منّا حريبُ .... Error! Bookmark not defined.
(أبو العلاء المعرّي) .... Error! Bookmark not defined.
ولادةٌ تحت الغمام 2
قال الله لنبيه: أرسلتكَ لتقلعَ وتهدمَ، منْ أجلِ أنْ تزرعَ وتبني 8
(العهد القديم) 8
أريدُ أنْ أمسكَ قدري من عرقوبه 23
(بيتهوفن) 23
مهرجان شهداء دوما، يا ألله.. ما لنا غيرك يا ألله 30
(ثورة الربيع العربيّ) 30
الحريّةُ جهادٌ، وهي الجهاد الأكبر في حياتنا 36
(كمال جنبلاط) 36
لا يساوي النصر الناتج عن العنف، إلاّ الهزيمة 42
(المهاتما غاندي) 42
المكان الذي لا يؤنّث، لا يعوّل عليه 48
(محيّ الدين ابن عربيّ) 48
حتّى لا تكون سوريا مملكة للصمت.. الاستبداد إلى زوال 61
(رياض الترك) 61
الفاحشة في كباركم، والعلم في أراذِلكم، والملكُ في صغاركم 68
(الرسول العربيّ) 68

لا شيء سوى صرخات الموت 76
(نازك الملائكة) 76
قلْ أعوذُ بربِّ الفلق من شرِّ ما خلق 88
(قرآن كريم) 88
في السجنِ، يتساوى الموتُ والحياة، بل يصبحُ الموتُ أمنيةً 92
(مصطفى خليفة) 92
إنّ الشجا يبعث الشجا... دعني، فهذا كلّه قبر مالك 103
(متمم بن نويرة) 103
قضبان السجن تنقلب أوتار قيثارة، لمن ينفث في الجماد حياة 108
(مي زيادة) 108
الطفلة وردة التي رسمت أباها الشهيد في الزنداني 122
(الثورة السورية) 122
قد يحطّم المرء، ولكنّه لا يهزم 132
(أرنست همنجواي) 132
صلاة ميت على الموت 140
(الثورة السورية) 140
كُتِبَ على الشعبِ السوريّ الثورة، حتى إسقاط النظام، ولن يتراجع.. 148
(منتهى سلطان الأطرش) 148
على روما أنْ تميّز بينَ قوّةِ الحضارة وحضارةِ القوّة 160
(الملكة زنوبيا) 160
زَيتُها يُضِيءُ، وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ 169
(القرآن الكريم) 169
الثورةُ يصنعُها الشرفاءُ، ويقطف ثمارَها الساسةُ الأوغاد 179
(تشي جيفارا) 179
الليلة مديدة كالعصور.. المرأة في الشرفة، وأنا في السجن 190
(رياض الصالح حسين) 190
اَلرَّبُّ إِلَهٌ غَيُورٌ وَمُنْتَقِمٌ.. الرَّبُّ مُنْتَقِمٌ وَذُو سَخَطٍ 197
(الكتاب المقدّس) 197
موتٌ في دروبِ التهجير، وأحلامٌ على شواطئ جديدة 204
(ثورة االربيع العربيّ) 204

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر
دار نشر - دراسات - استشارات - دورات تدريبيّة
الإسكندرية، مصر
44 شارع سوتير، أمام كلية حقوق الإسكندرية
موبايل: 0020103003691
هاتف: 034830903
بريد إلكتروني: levant.egsy@gmail.com
موقع إلكتروني: www.levantcenter.net
مركز ليفانت أحد فاعليات شركة ليفانت لتنمية الموارد البشريّة، ش. د. م. م. وفق قانون 159 لسنة 1981م ولائحته، رقم: س ض: 545/584/507،
س ت: 9882.

يقيم المركز دورات ثقافية وتعليمية متنوّعة وورشات عمل وندوات ومحاضرات...، ويستثمر في تطوير الموارد البشريّة وتنميتها، ومن ثمّ فهو يهتمّ بإعداد باحثين في مجال الدراسات الثقافيّة تطبيقًا على علم الكوديكولوجيا وتحقيق النصوص التراثيّة وعلوم العربيّة وآدابها وتجديد الفكر الدينيّ، كما يهتمّ بأصحاب المواهب في الكتابة السرديّة والمسرح والسينما والسيناريو، وينشر أعمالهم ورقيًّا وإلكترونيًّا.

وتدير إدارة المركز موقعًا إلكترونيًّا شاملاً نشاطاتها كلّها، علاوة على إتاحته تحميل الكتب والمقالات والفيديوهات المختلفة.

وينشر المركز المقالات والكتب ورقيًا وإلكترونيًّا وفق عقد مع أيّة مؤسسة أو مؤلّف إفراديًّا.

رقم الإيداع: 11311 / 2019م
الترقيم الدولي: 1 - 53 -6651 - 977 - 97